تَهْذِيبُ:
«شَرْحِ: أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ»

المتن والشَّرح للشَّيخ العلاَّمة:

محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ

ويليه:

«مُقَدِّمَةٌ فِي أُصُولِ التَّفْسِيرِ» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ

«الْقَوَاعِدُ الْحِسَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» للعلاَّمة السِّعديّ رَحِمَهُ اللَّهُ

إِعْدَادُ الْفَقِيرِ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ:

هَيْثَم بْنِ مُحَمَّدٍ سَرْحَان

المُدَرِّسُ بِمَعْهَدِ الْحَرَمِ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ -سَابِقًا- وَالمُشْرِفُ عَلَى مَعْهَدِ السُّنَّةِ

mahadsunnah.com

غفرالله له ولوالديه ولمن أعانه على إخراج هذا الكتاب

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

[طبعةٌ إلكترونيَّةٌ - غير مُعدَّةٍ للطِّباعة بعدُ]

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦م

فِهْرِسُ الْـمَوْضُوعَاتِ

فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ ....
(١) تَهْذِيبُ شَرْحِ: أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ ....
الْمُقَدِّمَةُ ....
مُلَخَّصٌ فِي عُلُومُ الْقُرْآنِ ....
فِهْرِسْتُ الْكِتَابِ ....
مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ ....
الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: الْقُرْآنُ الكَرِيمُ ....
أَوَّلًا: تَعْرِيفُ الْقُرْآنِ وصِفاتُه ....
ثَانِيًا: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصْدَرُ التَّشْرِيعِ ....
ثَالِثًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ....
رَابِعًا: أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ....
خَامِسًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ ابْتِدَائِيٌّ وَسَبَبِيٌّ ....
فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ ....
عُمُومُ اللَّفْظِ وَخُصُوصُ السَّبَبِ ....
سادسًا: الـمَكِّيُّ والـمَدَنِيُّ ....
فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ الْمَدَنِيِّ وَالْمَكِّيِّ ....
الْحِكْمَةُ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُفَرَّقًا ....
تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ ....
سابعًا: كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَجَمْعُهُ ....
الِاخْتِبَارُ الْأَوَّلُ ....

الْفَصْلُ الثَّانِي: التَّفْسِيرُ ....
أَوَّلًا: تَعْرِيفُ التَّفْسِيرِ وَحُكْمُهُ ....
ثَانِيًا: الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ....
ثَالِثًا: الْمَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ....
رَابِعًا: الاِخْتِلافُ الْوَارِدُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ ....
خَامِسًا: تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ ....
حُكْمُ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ ....
سَادِسًا: الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ ....
سَابِعًا: الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ ....
الاِخْتِبَارُ الثَّانِي ....
الْفَصْلُ الثَّالِثُ: الْقُرْآنُ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ ....
أَوَّلًا: وَصْفُ الْقُرْآنِ بِالإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ ....
ثَانِيًا: مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ....
ثَالِثًا: أَنْوَاعُ التَّشَابُهِ فِي الْقُرْآنِ ....
رَابِعًا: الْحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ الْقُرْآنِ ....
الْفَصْلُ الرَّابِعُ: مُوهِمُ التَّعَارُضِ فِي الْقُرْآنِ ....
الْفَصْلُ الْخَامِسُ: الْقَسَمُ ....
الْفَصْلُ السَّادِسُ: الْقَصَصُ ....
أَوَّلًا: مَعْنَىٰ الْقَصَصِ وَأَقْسَامُهَا ....
ثَانِيًا: الْحِكْمَةُ مِنْ قَصَصِ الْقُرْآنِ ....
ثَالِثًا: تَكْرَارُ الْقَصَصِ ....
الْفَصْلُ السَّابِعُ: الإِسْرَائِيلِيَّاتُ ....
أَوَّلًا: الإِسْرَائِيلِيَّاتُ وَأَنْوَاعُهَا ....

ثَانِيًا: حُكْمُ سُؤَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ....
ثَالِثًا: مَوْقِفُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ ....
الْفَصْلُ الثَّامِنُ: الضَّمِيرُ ....
أَوَّلًا: مَعْنَىٰ الضَّمِيرِ وَأَنْوَاعُهُ ....
ثَانِيًا: الإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ ....
ثَالِثًا: ضَمِيرُ الْفَصْلِ ....
رَابِعًا: الالْتِفَاتُ ....
الاِخْتِبَارُ الثَّالِثُ ....
(٢) متن «مُقَدِّمَةٌ فِي أُصُولِ التَّفْسِيرِ» ....
(٣) متن «الْقَوَاعِدُ الْحِسَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» ....

تَهْذِيبُ:
«شَرْحِ: أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ»

للشَّيخِ العلَّامة: مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ

من إعدادِ الفقير إلى عفو ربِّه:

هيثم بن محمَّد سرحان

المُدرِّس بمعهد الحرم بالمسجد النَّبويِّ -سابقًا-

والمُشرِف على معهد السُّنَّة

الْـمُقَدِّمَةُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسِنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾[النِّساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[الأحزاب].

أمَّا بعد؛ فإنَّ أجلَّ العلوم وأشرفها علم الشَّريعة الَّذي به قِوام الدِّين، وإنَّ أهمَّ ما ينبغي للمُسلمِ العنايةُ به من عُلوم الشَّريعةِ بعد توحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ علمُ التَّفسير الَّذي به يفهم المسلم كلامَ ربِّه عَزَّوَجَلَّ، قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ: (أَوَّلُ الْعِلْمِ حِفْظُ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَفَهُّمُهُ، وَكُلُّ مَا يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِهِ فَوَاجِبٌ مَعَهُ)، وقال ابن عطيَّة رَحِمَهُ اللهُ صاحب التَّفسير: (عَلِمْتُ أَنَّ شَرَفَ الْعِلْمِ عَلَىٰ قَدْرِ شَرَفِ الْمَعْلُومِ، فَوَجَدْتُ أَمْتَنَهَا حِبَالًا، وَأَرْسَخَهَا جِبَالًا، وَأَجْمَلَهَا آثَارًا، وَأَسْطَعَهَا أَنْوَارًا = عِلْمَ كِتَابِ اللهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، الَّذِي اسْتَقَلَّ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرْضِ، وَنَزَلَ بِهِ أَمِينُ السَّمَاءِ إِلَىٰ أَمِينِ الْأَرْضِ، هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي جُعِلَ لِلشَّرْعِ قِوَامًا، وَاسْتَعْمَلَ سَائِرَ الْمَعَارِفِ خُدَّامًا).

ثمَّ إنَّ الله جلَّ في عُلاه أنزل القرآن العظيم علىٰ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ أفصح الخلق، وأمره بالبيان فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾[النَّحل]، فقام النَّبيُّ ﷺ بأحسن البيان وأتمِّه، ففهم ذلك عنه الصَّحابة الأكرمون رضي الله عنهم، ثمَّ التَّابعون ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، وقد اعتنىٰ العلماء سلفًا وخلفًا بعلم التَّفسير، وألَّفوا فيه المُؤلَّفات الكثيرة، واعتنىٰ جملةٌ منهم ببيان القواعد الَّتي يُبنىٰ عليها فهم كلام الله عزوجل، حتَّىٰ لا يُحمَّل القرآن ما لا يحتمل من المعاني الباطلة الَّتي يروِّج لها أهل الزَّندقة والإلحاد، ومن المُؤلَّفات المُختصرة في هذا الباب الَّتي تلقَّاها العلماء بالقبول رسالةٌ قيِّمةٌ للشَّيخ العلَّامة محمَّد بن صالح العثيمين رحمه الله (ت ١٤٢١هـ) سمَّاها: «أصولٌ في التَّفسير»، بيَّن فيها أهمَّ الأصول الَّتي يُبنىٰ عليها علم التَّفسير، ثمَّ شرحها رحمه الله شرحًا وافيًا طُبع في مُجلَّدٍ كامل، فرأينا أن نخرج هذا الكتاب لطالب العلم ومُريده في حُلَّة جديدةٍ، قصدنا فيها التَّوسُّط في البسط بين المتن وشرحه، وانتهجنا فيها طريقة جدولة المُحتوىٰ تسهيلًا له وتيسيرًا، مع بعض الإضافات اليسيرة حسب ما تقتضيه الحاجة لتوضيح مقصود المُؤلِّف رحمه الله من الكلام.

نسأل الله عزوجل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن ينفع به الكاتب والقارئ، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ رسوله الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مُلَخَّصٌ في عُلُومُ الْقُرْآنِ

قال جلالُ الدِّينِ البُلقينيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

عُلُومُ الْقُرْآنِ مَا حَوَاهُ الْقُرْآنُ الشَّرِيفُ مِنْ أَنْوَاعِ عِلْمِهِ الْمَنِيفِ، وَيَنْحَصِرُ فِي أُمُورٍ ستَّةٍ:

[١] **مَوَاطِنُ النُّزُولِ وَأَوْقَاتُهُ وَوَقَائِعُهُ:**	**اثْنَا عَشَرَ نَوْعًا**: الْمَكِّيُّ، الْمَدَنِيُّ، السَّفَرِيُّ، الْحَضَرِيُّ، اللَّيْلِيُّ، النَّهَارِيُّ، الصَّيْفِيُّ، الشِّتَائِيُّ، الفِرَاشِيُّ، النَّومِيُّ، أَسْبَابُ النُّزُولِ، أَوَّلُ مَا نَزَلَ وآخِرُ مَا نَزَلَ.
[٢] **السَّنَدُ:**	**ستَّةُ أَنْوَاعٍ**: الْمُتَوَاتِرُ، الْآحَادُ، الشَّاذُّ، قِرَاءَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، الرُّوَاةُ، الْحُفَّاظُ.
[٣] **الْأَدَاءُ:**	**ستَّةُ أَنْوَاعٍ**: الْوَقْفُ، الِابْتِدَاءُ، الْإِمَالَةُ، الْمَدُّ، تَخْفِيفُ الْهَمْزَةِ، الْإِدْغَامُ.
[٤] **الْأَلْفَاظُ:**	**سَبْعَةُ أَنْوَاعٍ**: الْغَرِيبُ، الْمُعَرَّبُ، الْمَجَازُ، الْمُشْتَرَكُ، الْمُتَرَادِفُ، الِاسْتِعَارَةُ، التَّشْبِيهُ.
[٥] **الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأَحْكَامِ:**	**أَرْبَعَةَ عَشَرَ نَوْعًا**: االْعَامُّ الْبَاقِي عَلَىٰ عُمُومِهِ، الْعَامُّ الْمَخْصُوصُ، الْعَامُّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخُصُوصُ، مَا خَصَّ فِيهِ الْكِتَابُ السُّنَّةَ، ما خصَّصت فِيهِ السُّنَّةُ الْكِتَابَ، الْمُجْمَلُ، الْمُبَيَّنُ، المُؤَوَّلُ، الْمَفْهُومُ، الْمُطْلَقُ، الْمُقَيَّدُ، النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ، نَوْعٌ مِنَ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهُوَ مَا عُمِلَ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ مُدَّةً مُعَيَّنَةً وَالْعَامِلُ بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ.
[٦] **الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأَلْفَاظِ:**	**خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ**: الْفَصْلُ، الْوَصْلُ، الْإِيجَازُ، الْإِطْنَابُ، الْقَصْرُ.

وَبِذَلِكَ تَكَمَّلَتِ الْأَنْوَاعُ **خَمْسِينَ**، وَمِنَ الْأَنْوَاعِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ: الْأَسْمَاءُ، الْكُنَىٰ، الْأَلْقَابُ، الْمُبْهَمَاتُ؛ فَهَذَا نِهَايَةُ مَا حُصِرَ مِنَ الْأَنْوَاعِ.

تاريخُ علومِ القرآنِ:

[١] عهدُ ما قبلَ التّدوين:
كان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم يعرفون عن القرآن وعلومِه ما عرفه العلماءُ من بعدُ، ولكنَّ مَعرفتَهم لم تُدوَّنْ، ولم تُجمَعْ في كتابٍ؛ لعدم حاجتِهم إلىٰ ذلك.

[٢] عهدُ التَّمهيد لكتابة علوم القرآن:
بدأ ذلك بما تمَّ في عهد الخليفة الثَّالث عثمان بن عفَّانٍ رضي الله عنه من جمع القرآن في مُصحَفٍ إمامٍ، ونسخ عدَّةِ نسخٍ منه لإرسالها إلىٰ الأقطار الإسلاميَّة، والَّذي كانَ الأساسَ لمَّا يُسمَّىٰ: «علمَ رَسمِ القرآن».
ثمَّ في عهد عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وُضع الأساسُ لما يُسمَّىٰ «علمَ النَّحوِ» بعد أن أمر عليٌّ رضي الله عنه أبا الأسودِ الدُّؤَلِيَّ أن يضع بعض القواعد لحماية لغة القرآن من العُجمةِ، وتفشِّي اللَّحنِ بين النَّاس.
ثمَّ في العهد الأمويِّ ساهم عددٌ من الصَّحابةِ والتَّابعين في وضع الأساس لما يُسمَّىٰ «علمَ التَّفسير»، و«علمَ أسباب النُّزول»، و«علمَ النَّاسخ والمَنسوخ»، و«علمَ غريب القرآنِ».

[٣] عهدُ التّدوين:
وفي هذا العهد أُلِّفت الكتبُ في أنواع علوم القرآن، واتَّجهت الهِممُ أوَّل الأمر إلىٰ التَّفسير باعتبارِه أمَّ العلوم القُرآنيَّةِ، ثمَّ في علوم القرآنِ الأخرىٰ.

العلومُ المُتعلِّقةُ بالقرآن تنقسمُ إلى:

[١] علومِ التَّنزيل:
وتشمل مَوَاطِنَ النُّزُولِ وَأَوْقَاتَهُ وَوَقَائِعَهُ.

[٢] علومِ الكتابِ:
وتشمل كلَّ ما يتعلَّقُ بالسَّندِ، والأداءِ، والألفاظِ، والمَعاني.

[٣] أصولِ التَّفسير:
وموضوعُها القواعدُ الَّتي يُبنىٰ عليها تفسيرُ القرآن.

لعلومِ القرآنِ فوائدُ كثيرةٌ، منها:

- [١] تلاوةُ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما أراد الله.
- [٢] فهمُ كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ كما أرادَ اللهُ.
- [٣] التَّدبُّر والتَّفكُّر في كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ.
- [٤] حِفظُ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عن الزِّيادة أو النُّقصان أو التَّغيير.
- [٥] استنباطُ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ علىٰ الوجهِ الصَّحيحِ.
- [٦] الدِّفاعُ عن القرآنِ الكريمِ.
- [٧] فضلُ السَّلفِ باجتهادِهم وعنايتِهم بالقُرآنِ.
- [٨] مَدخَلٌ لدراسةِ التَّفسير؛ كما أنَّ المُصطلح مَدخلٌ لدراسةِ علم الحَديثِ.

حُكمُ تعلُّمِ علومِ القرآنِ:

- [١] **فرضُ عينٍ**: ما تعلَّق منها بتصحيحِ عقيدةِ وعبادةِ المرءِ، وغيرِهما من فروض الأعيانِ.
- [٣] **فرضُ كفايةٍ**: ما عدا ذلكَ.

المُشتَهرونَ بالتَّفسيرِ من الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:

- [١] الخُلَفاءُ الرَّاشِدونَ: أبو بكرٍ، وعُمرُ، وعُثمانُ، وعليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.
- [٢] مُعاوِيَةُ بنُ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
- [٣] عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
- [٤] عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
- [٥] أُبيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

المُشتَهِرونَ بالتَّفسيرِ مِن التَّابعينَ:

[١] مدرسةُ التَّفسيرِ بمكَّة
(ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا):
[أ] سعيدُ بن جُبيرٍ.
[ب] مُجاهد بن جبر.
[ج] عِكرمة بن عبد الله مَولىٰ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
[د] طاوس بنُ كيسانَ.
[هـ] عطاء بن أبي رباحٍ.

[٢] مدرسةُ التَّفسيرِ بالمدينةِ
(أبيُّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا):
[أ] أبو العالية رُفيعُ بن مِهرانَ الرِّياحيُّ.
[ب] محمَّد بن كعبٍ القرظيُّ.
[ج] زيدُ بن أسلَمَ.

[٣] مدرسةُ التَّفسيرِ بالعراقِ
(ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا):
[أ] علقمة بن قيسٍ.
[ب] مَسروقُ بن الأجدَعِ.
[ج] الأسود بن يزيد.
[د] مُرَّةُ الهمدانيُّ.
[هـ] عامرُ الشَّعبيُّ.
[و] الحسن البصريُّ.
[ز] قتادةُ بن دِعامةَ.

أقسامُ كُتُبِ التَّفسيرِ مِن حيثُ المَنهجُ:

[١] التَّفسيرُ بالمَأثورِ.
[٢] التَّفسيرُ بالرَّأي الجائزِ.
[٣] التَّفسيرُ بالرَّأي غير الجائزِ.

[١] أشهَرُ كُتبِ التَّفسيرِ بالمَأثورِ:

١	«جامعُ البيان في تفسير القرآن» لابن جريرٍ الطَّبريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٢	«بحرُ العلوم» لأبي اللَّيث السَّمرقنديِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٣	«الكشفُ والبيان عن تفسير القرآن» لأبي إسحاق الثَّعلبيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٤	«مَعالمُ التَّنزيلِ» لأبي محمَّدٍ الحسين البغويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٥	«المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطيَّة الأندلُسيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٦	«تفسيرُ القرآن العظيم» لأبي الفداء الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٧	«الجواهرُ الحِسان في تفسير القرآن» لعبدالرَّحمنِ الثَّعالبيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٨	«الدُّرُّ المَنثور في التَّفسير المأثور» لجلال الدِّين السُّيوطيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٢] أشْهَرُ كُتب التَّفسيرِ بالرَّأي الجائزِ:

١ «مَفاتحُ الغيب» للفخر الرَّازيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٢ «أنوارُ التَّنزيل وأسرار التَّأويل» لعبد الله بن عمر البَيضاويِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٣ «مَداركُ التَّنزيل وحقائق التَّأويل» لأبي البركاتِ النَّسفيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٤ «لُبابُ التَّأويل في مَعاني التَّنزيل» لعلاء الدِّين الخازن رَحِمَهُ اللهُ.
٥ «البحرُ المُحيط» لأبي حيَّان الأندلسيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٦ «غرائبُ القرآن ورغائب الفرقان» لنظام الدِّين النَّيسابوريِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٧ «تفسيرُ الجلالين» لجَلال الدِّين المَحليِّ وجَلال الدِّين السُّيوطيِّ -رحمهما الله-.
٨ «السِّراجُ المُنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربِّنا الحكيم الخبير» للخَطيب الشِّربينيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٩ «إرشادُ العقل السَّليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم» لأبي السُّعود أفندي رَحِمَهُ اللهُ.
١٠ «روحُ المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المَثاني» لشهاب الدِّين الألوسيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

[٣] أشْهَرُ كُتب التَّفسيرِ بالرَّأي غيرِ الجائزِ:

١ «تنزيهُ القرآن عن المَطاعن» للقاضي عبدالجبَّار المُعتزليِّ.
٢ «الأمالي» للشَّريف المُرتَضىٰ الشِّيعيِّ.
٣ «الكشَّاف عن حقائق غَوامض التَّنزيل، وعيونُ الأقاويل في وجوه التَّأويل» لمحمود بن عمر الزَّمخشريِّ المُعتزليِّ.

تَنبِيهٌ:

لِيَنتبِه القارئُ إلىٰ أنَّه لا ينبغي مُطالعةُ كتب التَّفسير بالرَّأي إلَّا لطالب العلم المُتمكِّن، الَّذي يعرف مَذاهب أهل الزَّيغ والضَّلالِ فيحذرُها، وأمَّا العامِّيُّ وطالبُ العلم المُبتدئُ فينبغي له هَجرُها كما يهجُرُ أصحابَها؛ لئلَّا تعلق الشُّبَه بذهنِه فيقعُ فيها.

مِن أَهَمِّيَّةِ عِلمِ التَّفسيرِ:

[١] أنَّ شرَفَ العِلمِ بشَرَفِ مَوضوعِه، ومَوضوعُ علم التَّفسير هو القرآنُ، وهو كلامُ الله ﷻ.

[٢] أنَّ التَّفسيرَ يوصِلُ إلىٰ تدبُّرِ القُرآن، والتَّدبُّر مَأمورٌ به، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد].

[٣] أنَّ التَّفسيرَ يوصِلُ إلىٰ عِبادة الله ﷻ علىٰ الشَّكل الصَّحيح، وذلِكَ بفَهمِ آياتِ الأحكامِ.

[٤] أنَّ التَّفسيرَ يُساعد علىٰ فهم القرآنِ، ومِنه مَعرفةُ الله ﷻ وأسمائِه وصفاتِه، وفي ذلِكَ زِيادة الإيمانِ.

كيفيَّةُ القِراءَةِ والدِّراسَةِ للتَّفسيرِ:

- البَدءُ بدراسَةِ كتُب التَّفسيرِ بالمَأثورِ.
- البَدءُ بالمُختَصراتِ قبلَ المُطوَّلاتِ؛ لئلَّا يشتَّت ذِهنُه، فإذا بدأَ بالمُختصراتِ فإنَّه يُحصِّلُ الأصولَ فيضبطُها، فيكونُ ذلك أدعىٰ لأن يفهم المُطوَّلاتِ.
- الدِّراسةُ علىٰ مدرسةٍ واحدةٍ حتَّىٰ لا تختلط عليه المَعلوماتُ.
- البَدءُ بتفسيرِ السُّورِ المُشوِّقةِ له؛ كسورة القصص.
- التَّنويعُ في التَّلقِّي؛ فيشتغِلُ تارةً بالقراءةِ، وتارةً بالاستماع للتَّفسير الصَّوتيِّ، وتارةً بالجمع بينهما.
- تدوينُ الفَوائدِ؛ فالتَّدوين لها كالقيد للصَّيدِ يمنعُ انفلاتَه.
- التَّدبُّر في آيات القرآن؛ لأنَّ ذلك يُنمِّي ملكَة الاستنباطِ لديه، فيفتح الله بذلك عليه الفُتوحَ.
- مُحاولة استنباطِ الفوائدِ دون نشرِها، وذلك ليتدرَّبَ علىٰ الاستنباط، ثمَّ يرجع بعدها للتَّفسير ليتأكَّد من سلامة استنباطِه.

سورةُ جمَعَت جميعَ عُلومِ القرانِ الكَريمِ:

قـالَ بَعضُهـم: إنَّ سـورَةَ الفاتِحَـةِ جمَعَـت كلَّ علـومِ القـرآنِ؛ بل إنَّ آيَـةً واحِـدَةً مِنها هي قولُـه تعالـىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحـة] جمعَـت علـومَ القـرآنِ كلَّها.

ينقسِمُ الكلامُ مِن حيثُ:

- **[١] التَّركيبُ إلى:**
  - [أ] اسمٍ.
  - [ب] وفعلٍ.
  - [ج] وحرفٍ.
- **[٢] إمكانُ وَصفِه بالصِّدقِ إلى:**
  - [أ] خبرٍ.
  - [ب] وإنشاءٍ.
- **[٣] الاستِعمالُ إلى:**
  - [أ] حقيقةٍ.
  - [ب] ومَجازٍ.

الخِلافُ في وُجودِ الـمَجازِ على ثلاثةِ أقوالٍ:

[١] الـمَجازُ ثابتٌ في القُرآنِ وغَيرِه:
هو المَشهور عند أكثر المُتأخِّرين.

[٢] لا مَجازَ في القُرآنِ:
قال به بعض أهل العلم.

[٣] لا مَجازَ في القُرآنِ ولا في غَيرِه:
قال به أبو إسحاقَ الإسفراييِنيُّ، ومن المُتأخِّرين العلَّامة محمَّدٌ الأمين الشِّنقيطيُّ، وبيَّن شيخُ الإسلام وابنُ القيِّم أنَّه اصطلاحٌ حادثٌ بعد انقضاء القرون الثَّلاثة المُفضَّلةِ، ونصَرَه بأدلَّةٍ قويَّةٍ كثيرةٍ تُبيِّن لمَن اطَّلع عليها أنَّ **هذا القول هو الصَّوابُ**.

لا يُوجدُ عاقلٌ يفهمُ العربيَّة إلَّا ويفهم المُرادَ مِن الكلام دون الحاجةِ إلىٰ القول بالمَجازِ، فإذا قيل: حَمزةُ أسدٌ؛ فلا يفهم العربيُّ إلَّا وَصفَ حَمزةَ بالشَّجاعة، لا الحيوانِ.

الأدلَّة على أنَّه لا مَجازَ في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ ولا في اللُّغةِ:

[١]	[٢]	[٣]	[٤]	[٥]	[٦]
القول بالمَجازِ بدعةٌ حدثت بعد انقراض القُرون المُفضَّلةِ.	المَجازُ طاغوتُ الفِلاسفةِ (أقوىٰ حُجَّةٍ لهم).	سدُّ الباب أمام من يريد التَّلاعُبَ في النُّصوصِ.	مِن أقوىٰ الأدلَّة علىٰ بُطلانِه أنَّه يُمكنُ نفيُه.	أهلُ اللُّغةِ لم يُصرِّحوا أبدًا بأنَّ العرب قسَّموا لُغتَهم إلىٰ حقيقةٍ ومَجازٍ.	لو أثبتنا المَجازَ في اللُّغةِ لَلزم إثباتُه في بعض القرآن، ولو أثبتناه في بعض القُرآن للزم إثباتُه في كلِّ القُرآن.

قاعدة (١): القولُ بنَفيِ المَجازِ عليه السَّلفُ الصَّالحُ، والقُرونُ المُفضَّلةُ، ثمَّ إن وجدنا من العُلماءِ مَن يقولُ بالمَجازِ في اللُّغة فإنَّه ينفي المَجازَ في آياتِ الأسماءِ والصِّفاتِ، فنجد في كتب شيخ الاسلام أحيانًا ذِكرَ المَجازِ، وكذلك فِعلُ الشَّيخ ابنِ عُثيمينَ في بعض كُتُبِه؛ مع أنَّ كلاهما يَنفي وُجودَ المَجازِ!

قاعدة (٢): ذِكرُ المَسألةِ مُفصَّلةً ثمَّ الرَّدُّ عليها يعني عدم الإقرارِ بها، وإنَّما يتمُّ توضيحُ هذا التَّقسيمِ لمَن يقولُ به، حتَّىٰ لا يقع أحدٌ في التَّأويلِ في الصِّفاتِ.

تنبيهٌ مُهمٌّ: لا مَجالَ للطَّعنِ في كتابِ اللهِ تعالىٰ بمثل هذه الشُّبَهِ؛ كالقول بالمَجازِ، أو أنَّ في القرآنِ شيئًا غيرَ عربيٍّ، أو خِلافَ الأفصَحِ، ولو كانت مَجالًا للطَّعنِ في القرآنِ لَمَا تركَها أسلافُ هؤلاء مِن مُشركي مكَّةَ ومَن بعدَهم، وهم أهلُ اللُّغةِ، ولم يتركوا مَجالًا لأحدٍ للطَّعنِ في النَّبيِّ ﷺ، وفي كِتابِ ربِّه إلَّا قالوه، ولو أنَّهم وجدوا هذه الشُّبهة قائمةً لقالوها، والشَّرعُ مُقدَّمٌ علىٰ اللُّغةِ؛ بل إنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ لم يَكُن لها شأنٌ إلَّا بعدَ نُزولِ القرآنِ بها، فكيف تُقدَّمُ عليه؟!

الإجماعُ على القُرَّاءِ السَّبعَةِ:

قال العلَّامةُ بدرُ الدِّين الزَّركَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٣٢٢): «وَقَدِ انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ صِحَّةِ قِرَاءَةِ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ، وَأَنَّهَا سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، وَلَا مَجَالَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهَا».

ما هي القِراءَةُ المُتَواتِرَةُ؟

قال الإمامُ ابنُ الجزَرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ في «مُنجِد المُقرِئين» (ص١٨): «كُلُّ قِرَاءَةٍ وَافَقَتِ الْعَرَبِيَّةَ مُطْلَقًا، وَوَافَقَتْ أَحَدَ الْمَصَاحِفِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَلَوْ تَقْدِيرًا، وَتَوَاتَرَ نَقْلُهَا = هَذِهِ الْقِرَاءَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ الْمَقْطُوعُ بِهَا».

لـماذا يُقالُ: علومُ القرآنِ، ولا يُقالُ: عِلمُ القرآنِ؟

يُقـالُ: (علـومُ القـرآن الكريمِ) بالجَمعِ، ولا يُستعمَلُ الجَمـعُ في غيرِه مِن العُلـومِ، فيُقالُ: علـمُ الفقـهِ، وعلـمُ الفرائِضِ، وغيرُ ذلك، والسَّـببُ أنَّ كلَّ العلومُ مُستمَدَّةٌ مـن القرآنِ.

ومـن بركـة القـرآنِ الكريـمِ أنَّ كلَّ كتابٍ ألَّفَـه علماءُ الشَّـريعَةِ فهو يخدِمُ كتـابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويرجـع إليه.

فِهْرِسْتُ الْكِتَابِ

أقسامُ الكتابِ:						
أقسامُ الكتابِ:	أقسامُ الكتابِ:	[١] البسملة.	[٢] خطبة الحاجة.	[٣] أهمِّيَّةُ التَّفسير.	[٤] سبب التَّأليفِ.	[٥] مُحتوىٰ الكتاب إجمالًا.
	القسمُ الأوَّلُ: القرآنُ، وفيه:	[١] نزولُ القرآنِ.	[٢] أوَّلُ ما نزل منه.	[٣] النُّزولُ الابتدائيُّ والسَّببيُّ.	[٤] المَكِّيُّ والمدنيُّ.	[٥] كتابةُ القرآن وجمعُه.
	القسمُ الثَّاني: التَّفسيرُ، وفيه:	[١] الواجبُ علىٰ المُسلم في التَّفسير.	[٢] المَرجعُ في تفسير القرآن.	[٣] الاختلافُ الواردُ في التَّفسير المَأثور.	[٤] ترجمةُ القرآن.	[٤] المُشتهرون بالتَّفسير من الصَّحابة.	[٥] المُشتهرون بالتَّفسير من التَّابعين.
	القسمُ الثَّالثُ: مسائلُ مُتفرِّقةٌ، وفيه:	[١] المُحكَمُ والمُتَشابهُ من القرآن.	[٢] موهمُ التَّعارض في القرآن.	[٣] القَسَمُ في القرآن.	[٤] قصصُ القرآن.	[٤] الإسرائيليَّاتُ والمَوقف منها.	[٥] الضَّميرُ في القرآن.

مُقَدِّمَةُ الـمُؤَلِّفِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

بدأ الـمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابَه بالبسملةِ؛ لأمورٍ:

- [١] اقتداءً بكتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.
- [٢] واستنادًا إلىٰ سُنَّةِ الرَّسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- [٣] وعملًا بما كان عليه السَّلفُ.
- [٤] وتيمُّنًا وتبرُّكًا بالبَداءةِ باسمِ اللهِ.

(الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ):

- [١] **الحمدُ**: (وصفُ المَحمود بالكمالِ مع المحبَّة والتَّعظيم)، والحمدُ يكون:
  - [أ] لكمالِ الـمَحمودِ.
  - [أ] لإحسانِه وإنعامِه.
- [٢] **اللَّام**: تفيد:
  - [أ] **الاستحقاق**: فالله عَزَّوَجَلَّ أحقُّ من يُحمَدُ.
  - [أ] **الاختصاص**: (أل) تفيد الاستغراق لجميع المَحامد، والله عَزَّوَجَلَّ هو المُختصُّ بها كلِّها.
- [٣] **نَحْمَدُهُ**: جملةٌ توكيديَّةٌ.

(وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ):

[١] (**وَنَسْتَعِينُهُ**): نطلبُ منه العَونَ، وهو المُساعدة.

[٢] (**وَنَسْتَغْفِرُهُ**): نطلب منه المَغفرة، وهي ستر الذُّنوب والتَّجاوز عنها.

[٣] (**وَنَتُوبُ إِلَيْهِ**): لم تأتِ في الحديث، لكن ذُكرت تقليدًا للعلماء السَّابقين.

(وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا):

أي: نعتصم بالله منها، والنَّفس لها شرورٌ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[يوسف:٥٣]، فالمَعصوم من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ من شرور نفسه.

والنُّفوس الَّتي جاءت في القرآن وُصفت بثلاثة أوصافٍ:

[١] **المُطمئنَّة**: الَّتي تأمرُ بالخير وتنهىٰ عن الشَّرِّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾[الفجر].

[٢] **الأمَّارة بالسُّوء**: الَّتي تأمرُ بالشَّرِّ وتنهىٰ عن الخير، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

[٣] **اللَّوَّامة**: قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة]، وهو وصفٌ للمُطمئنَّة والأمَّارة بالسُّوء معًا.

(وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا):

فالعمل السَّيِّء له آثارٌ سيِّئةٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة:١٣]، فعاقبهم الله بهذه العُقوبات لأنَّهم نقضوا الميثاق، وما حصل الشَّرُّ إلَّا بسيِّئات الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾[الرُّوم].

(مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ) تشمل:

[١] مَن يَهديه اللهُ تقديرًا:
أي: يقدِّر له الهداية، فلابدَّ أن يهتدي ولو وُجدت عوامل تقتضي أن يضلَّ.

[٢] مَن يَهديه اللهُ تحقيقًا:
فمن هداه الله تحقيقًا فاهتدىٰ؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يضلَّه.

فوجب علىٰ الإنسان ألَّا يطلب الهداية إلَّا من الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ) تشمل:

[١] مَن يُضلُّهُ اللهُ تقديرًا:
أي: يريد إضلالَه، فلابدَّ أن يضلَّ.

[٢] مَن يُضلُّهُ اللهُ تحقيقًا: فمن أضلَّه الله تحقيقًا فلا يستطيع أحدٌ أن يهديه، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من حرصه ﷺ علىٰ هداية عمِّه أبي طالبٍ الَّذي صدَّقَه بلسانِه، ونصرَه بفعلِه، لكن لم يُؤمن قلبُه، فمات كافرًا -والعياذُ بالله-.

(وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ):

[١] (أَشْهَدُ): أي: أُقِرُّ إقرار مُشاهدةٍ، والمُشاهد للشَّيء يراه حسًّا.

[٢] (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ): أي: (لا معبود حقٌّ إلَّا الله)، فخبر (لا) النَّافية (حقٌّ) مَحذوفٌ، واسم الجلالة (اللهُ) بعد (إلَّا) بدلٌ منه.

[٣] (وَحْدَهُ): توكيدٌ لإثبات (إلَّا الله).

[٤] (لَا شَرِيكَ لَهُ): توكيدٌ للنَّفي (لا إله).

هذه الجملة هي كلمة الإخلاص الَّتي لو وُزنت بها السَّموات والأرض لرجحت بهنَّ؛ كما في الحديث الَّذي أخرجه أحمد.

(وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ):

[١] (**مُحَمَّدًا**): هو ابن عبد الله بن عبد المُطَّلب، الهاشميُّ القُرشيُّ، لا يوجد من بني إسماعيل نبيٌّ سواهُ.

[٢] (**عَبْدُهُ**): أي: العابد المُتذلِّل لله ﷻ، وليس له حقٌّ من الرُّبوبيَّة، وفيه الرَّدُّ على من غلا فيه ﷺ.

[٣] (**وَرَسُولُهُ**): أي: المُرسَل من الله ﷻ، فليس بكاذب، وفيه الرَّدُّ على من قدح فيه ﷺ، أو قال: إنَّ رسالته ليست عامَّةً، ولم يقل المُؤلِّف: (إلى النَّاس كافَّةً)؛ حذفًا لما هو مَعلومٌ.

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ):

[١] (**صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ**): أحسنُ ما يُقال فيها أنَّها: (ثناء الله عليه) أي: مدحه ووصفه بصفات الكمال (في الملأ الأعلى).

[٢] (**وَعَلَى آلِهِ**): يُطلق الآل على:

[أ] **جميع أتباعه ﷺ على دينه**: إذا ذُكرت مُفردةً.

[ب] **قرابته ﷺ المُؤمنون به**: إذا ذُكرت مع الصَّحب والأتباع.

[٣] (**وَأَصْحَابِهِ**): الَّذين اجتمعوا به مؤمنين به -ولو لحظةً-، وماتوا على ذلك.

[٤] (**وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ**): من قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التَّوبة:١٠٠]، قُيِّدت التَّبعيَّة بالإحسان بحيث يترسَّم خُطاهم قولًا، وفعلًا، وتركًا.

(وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا):

ثنَّى بالسَّلام؛ لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب]، أمَّا في التَّشهُّد فيُبدأ بالسَّلام لأنَّه ﷺ علَّمهم السَّلام قبل الصَّلاة.

قـالَ الـمُصنِّـف رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَمَّـا بَعْـدُ؛ فَإِنَّ مِـنَ المُهِمِّ فِـي كُلِّ فَـنٍّ أَنْ يَتَعَلَّـمَ الْمَرْءُ مِـنْ أُصُولِهِ مَـا يَكُـونُ عَوْنًـا لَـهُ عَلَىٰ فَهْمِـهِ، وَتَخْرِيجِـهِ عَلَىٰ تِلْـكَ الْأُصُـولِ، لِيَكُـونَ عِلْمُـهُ مَبْنِيًّا عَلَىٰ أُسُـسٍ قَوِيَّـةٍ، وَدَعَائِمَ رَاسِـخَةٍ، وَقَـدْ قِيلَ: مَـنْ حُرِمَ الْأُصُـولَ حُـرِمَ الْوُصُولَ.

وَمِـنْ أَجَـلِّ فُنُـونِ الْعِلْمِ؛ بَـلْ هُوَ أَجَلُّهَـا وَأَشْـرَفُهَا، عِلْمُ التَّفْسِـيرِ، الَّـذِي هُوَ تَبْيِيـنُ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَـدْ وَضَـعَ أَهْـلُ الْعِلْـمِ لَـهُ أُصُولًا كَمَـا وَضَعُوا لِعِلْـمِ الْحَدِيـثِ أُصُولًا، وَلِعِلْـمِ الْفِقْـهِ أُصُولًا.

وَقَـدْ كُنْـتُ كَتَبْـتُ مِـنْ هٰـذَا الْعِلْمِ مَـا تَيَسَّـرَ لِطُـلَّابِ الْمَعَاهِـدِ الْعِلْمِيَّةِ فِـي جَامِعَـةِ الْإِمَامِ مُحَمَّـدِ بْـنِ سَـعُودٍ الْإِسْـلَامِيَّةِ، فَطَلَـبَ مِنِّـي بَعْـضُ النَّـاسِ أَنْ أُفْرِدَهَا فِـي رِسَـالَةٍ؛ لِيَكُونَ ذَلِـكَ أَيْسَـرَ وَأَجْمَـعَ، فَأَجَبْتُـهُ إِلَىٰ ذَلِـكَ، وَأَسْـأَلُ اللهَ تَعَالَـىٰ أَنْ يَنْفَـعَ بِهَا).

لـماذا كان علمُ التَّفسير أجَلَّ العلوم وأشرفَها؟

لأنَّ العلم يشرُف بمَوضوعه، ومَوضوع علم التَّفسير كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أشرف مَوضوعٍ، فالاهتمام به أهمُّ من الاعتناء بغيره.

على ماذا اعتمدَ الـمُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في تأليفه لهذه الرِّسالة؟

اعتمد علىٰ «مُقدِّمة التَّفسير» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، ولـمَّا كان كلام شيخ الإسلام مُرسَلًا احتيج إلىٰ أن يُجمَع ويُبسَط ويُسهَّل للطَّالب.

قالَ الـمُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَيَتَلَخَّصُ ذَلِكَ فِي مَا يَأْتِي:

۞ القُرْآنُ الْكَرِيمُ:

١) مَتَىٰ نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَمَنْ نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟

٢) أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ.

٣) نُزُولُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: سَبَبِيٌّ وَابْتِدَائِيٌّ.

٤) الْقُرْآنُ مَكِّيٌّ وَمَدَنِيٌّ، وَبَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنْ نُزُولِهِ مُفَرَّقًا وَتَرْتِيبُ الْقُرْآنِ.
٥) كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَحِفْظُهُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.
٦) جَمْعُ الْقُرْآنِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ رضي الله عنهما.

❁ التَّفْسِيرُ:
١) مَعْنَىٰ التَّفْسِير لُغَةً وَاصْطِلَاحًا، وَبَيَانُ حُكْمِهِ وَالْغَرَضُ مِنْهُ.
٢) الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.
٣) الْمَرْجِعُ فِي التَّفْسِيرِ إِلَىٰ مَا يَأْتِي:
○ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ بِحَيْثُ يُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ.
○ سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِ اللهِ.
○ كَلَامُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم لَاسِيَمَا ذَوِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْعِنَايَةِ بِالتَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ وَفِي عَصْرِهِمْ.
○ كَلَامُ كِبَارِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اعْتَنَوا بِأَخْذِ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.
○ مَا تَقْتَضِيهِ الْكَلِمَاتُ مِنَ الْمَعَانِي الشَّرْعِيَّةِ أَوِ اللُّغَوِيَّةِ حَسْبَ السِّيَاقِ، فَإِنِ اخْتَلَفَ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ، أُخِذَ بِالْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ، إِلَّا بِدَلِيلٍ يُرَجِّحُ اللُّغَوِيَّ.
٤) أَنْوَاعُ الاخْتِلَافِ الْوَارِدِ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ.
٥) تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ، تَعْرِيفُهَا، أَنْوَاعُهَا، حُكْمُ كُلِّ نَوْعٍ.

❁ أَقْسَامُ الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ، مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، التَّشَابُهُ: حَقِيقِيٌّ وَنِسْبِيٌّ، الْحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ.
❁ مُوهِمُ التَّعَارُضِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ، وَأَمْثِلَةٌ مِنْ ذَلِكَ.
❁ الْقَسَمُ: تَعْرِيفُهُ، أَدَاتُهُ، فَائِدَتُهُ.
❁ الْقَصَصُ: تَعْرِيفُهَا، الْغَرَضُ مِنْهَا، الْحِكْمَةُ مِنْ تَكْرَارِهَا وَاخْتِلَافِهَا فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ وَالْأُسْلُوبِ.
❁ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي أُقْحِمَتْ فِي التَّفْسِيرِ، وَمَوْقِفُ الْعُلَمَاءِ مِنْهَا.
❁ الضَّمِيرُ: تَعْرِيفُهُ، مَرْجِعُهُ، الْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ وَفَائِدَتُهُ، الِالْتِفَاتُ وَفَائِدَتُهُ، ضَمِيرُ الْفَصْلِ وَفَائِدَتُهُ).

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: القُرْآنُ الكَرِيمُ

أَوَّلًا: تَعْرِيفُ الْقُرْآنِ وصِفاتُه

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْقُرْآنُ فِي اللُّغَةِ: مَصْدَرُ قَرَأَ بِمَعْنَىٰ تَلَا، أَوْ بِمَعْنَىٰ جَمَعَ، تَقُولُ: قَرَأَ قَرْءًا وَقُرْآنًا، كَمَا تَقُولُ: غَفَرَ غَفْرًا وَغُفْرَانًا، فَعَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ: (تَلَا) يَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَىٰ اسْمِ الْمَفْعُولِ، أَيْ: بِمَعْنَىٰ مَتْلُوٍّ، وَعَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الثَّانِي: جَمْعٌ يَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَىٰ اسْمِ الْفَاعِلِ، أَيْ: بِمَعْنَىٰ جَامِعٍ؛ لِجَمْعِهِ الْأَخْبَارَ وَالْأَحْكَامَ.

وَالْقُرْآنُ فِي الشَّرْعِ: (كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ، الْمُنَزَّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمَبْدُوءُ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ، الْمَخْتُومُ بِسُورَةِ النَّاسِ)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان]، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف]).

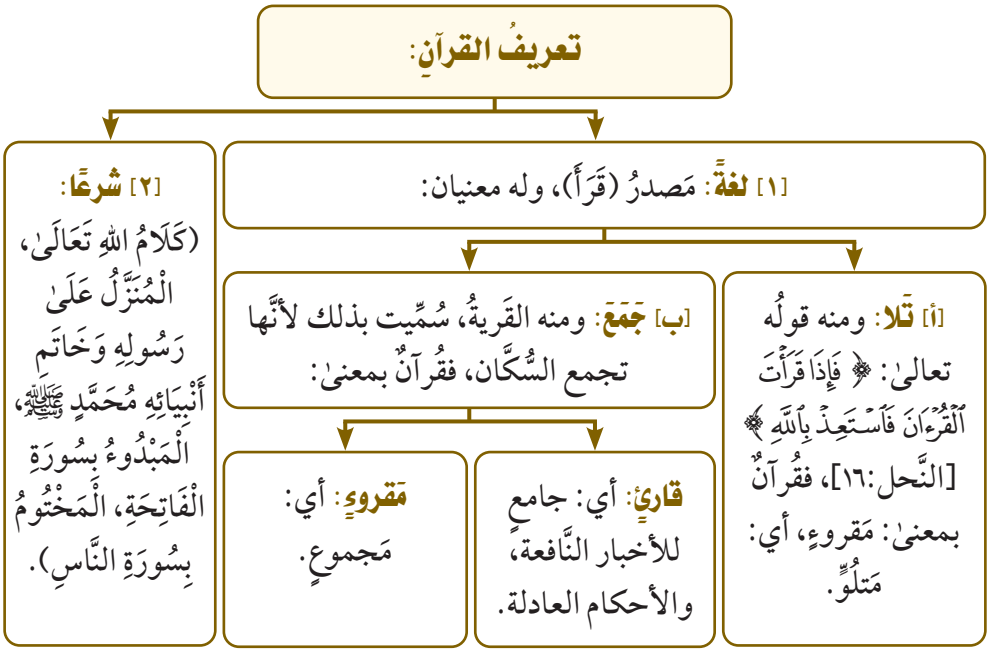

القرآنُ الكريمُ:

[١] كلامُ الله:
لفظًا ومعنًى، نؤمن بأنَّ الله ﷻ تكلَّم بهذا القرآن الَّذي نقرؤه كلامًا مَسموعًا مَنقولًا إلينا، فالله ﷻ هو المُبلِّغُ عنه.

[٢] ويُنسَبُ إلى جبريل عليه السلام:
لأنَّه هو الرَّسول الملكيُّ المُبلِّغ عن الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾ [التَّكوير].

[٣] ويُنسَبُ إلى النَّبيِّ ﷺ:
لأنَّه هو الرَّسول الإنسيُّ المُبلِّغ عن جبريل عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [الحاقَّة].

لماذا قال المُؤلِّف رحمه الله: (خَاتَمِ أَنبِيَائِهِ)، ولم يقل: (خَاتَمِ رُسُلِهِ)؟

[١] لأنَّ نفي النَّبيِّ يقتضي نفي الرَّسول من باب أولىٰ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ.

[٢] لأنَّه تعالىٰ وصفه بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقد أجمع المسلمون أنَّه لا نبيَّ بعد محمَّدٍ ﷺ.

من صِفاتِ القرآنُ الكريمُ أنَّه:

[١] مَحفوظٌ في الصُّدور.

[٢] مَكتوبٌ في السُّطور.

[٣] مَنقولٌ بالتَّواتر القطعيِّ اليقينيِّ، فلا نقص فيه ولا زيادة، فمن أنكر منه حرفًا واحدًا مُجمعًا فيه بين القرَّاء فقد كفر، أجمع علىٰ هذا المسلمون، ولم يخالف إلَّا الرَّافضة الَّذين ادَّعوا فيه النَّقص وزادوا عليه ما ليس منه.

تنبيهٌ: لا يضرُّ اختلاف القراءات المُتواترة في بعض الأحرف التَّركيبيَّة؛ نحو (مَلِكِ) و(مَالِكِ)، أو المعنويَّة؛ نحو: (فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) و(وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا).

أسماءُ القرآنِ الكريمِ ومَعناها:

القُرآنُ	– القارِئُ: الجامعُ للأخبار النَّافعة، والأحكامِ العادلة. – المَقروءُ: المَجموعُ في المَصاحِفِ، وفي الصُّدورِ.
الذِّكرُ	– المُتضمِّنُ للعديدِ من المَواعِظِ والزَّواجِرِ. – المُشتمِلُ علىٰ ما يحتاجُه النَّاسُ في أمورِ دُنياهم وآخِرَتِهم. – ذو الشَّرفِ والقَدرِ العالي.
الفُرقانُ	فرَّقَ بين الحَقِّ والباطل.
الكِتابُ	جمعَ أنواعًا عديدةً من القَصصِ، والأحكامِ، والأخبارِ، والآياتِ، علىٰ شكلٍ مَخصوصٍ.
التَّنزيلُ	المُنزَّلُ من اللهِ تعالىٰ إلىٰ النَّاسِ.

كثرَةُ الأسماءِ تدُلُّ على شرَفِ المُسَمَّى أو كَمالِه في أمرٍ من الأُمورِ:

[١]	[٢]	[٣]	[٤]	[٥]	[٦]
كثرَةُ أسماءِ اللهِ تعالىٰ دلَّت علىٰ عِظَمِ المَوصوفِ والمُسمَّىٰ، وكمالِه، وكثرَةِ التَّعلُّقِ به.	كثرَةُ أسماءِ النَّبيِّ ﷺ دلَّت علىٰ عُلُوِّ رُتبَتِه وسُمُوِّ درجَتِه.	كثرَةُ أسماءِ القُرآنِ الكَريمِ دلَّت علىٰ شرَفِه وفَضيلَتِه.	كثرَةُ أسماءِ الأسَدِ دلَّت علىٰ كمالِ قوَّتِه.	كثرَةُ أسماءِ يومِ القيامَةِ دلَّت علىٰ كمالِ شِدَّتِها وصُعوبَتِها.	كثرَةُ أسماءِ الدَّاهِيَةِ دلَّت علىٰ شدَّةِ نِكايَتِها.

المَوضوعاتُ الرَّئيسيَّةُ في القرآنِ:

[١] التَّوحيدُ.	[٢] الأخبارُ.	[٣] الأحكامُ.

القرآنُ الكريمُ أعظمُ آيةٍ دالَّةٍ على نبُوَّةِ محمَّدٍ ﷺ:

قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْآيَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَهِيَ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ آيَاتِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُسَمِّيهَا مَنْ يُسَمِّيهَا مِنَ النُّظَّارِ (مُعْجِزَاتٍ)، وَتُسَمَّىٰ (دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ) وَ(أَعْلَامَ النُّبُوَّةِ)، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِذَا سُمِّيَتْ بِهَا آيَاتُ الْأَنْبِيَاءِ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ لَفْظِ الْمُعْجِزَاتِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَفْظُ (الْمُعْجِزَاتِ) مَوْجُودًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا فِيهِ لَفْظُ (الْآيَةِ) وَ(الْبَيِّنَةِ) وَ(الْبُرْهَانِ)».

القرآنُ الكريمُ مُعجِزٌ:

قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَكَوْنُ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ لَيْسَ هُوَ مِنْ جِهَةِ فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ فَقَطْ، أَوْ نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ إِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ صَرْفِ الدَّوَاعِي عَنْ مُعَارَضَتِهِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ سَلْبِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ مُعَارَضَتِهِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مُعْجِزَةٌ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ»، ومن إعجازِ القُرآنِ أنَّه لم يُحفَظ عن أحدٍ من مُشركي العربِ أنَّه لم يفهمه كما حصل من الأُمَمِ السَّابقةِ؛ كقولِ قومِ شُعَيبٍ: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾[هود:٩١]، قالَ تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[الحاقة]؛ لإصرارِهم علىٰ الكُفرِ وعدمِ الإيمانِ، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[الحاقة]؛ لأنَّ التَّفريقَ بينه وبين كلامِ الكُهَّانِ يحتاجُ إلىٰ تذكُّرٍ.

مِن وجوهُ الإعجازِ في القرآنُ الكريمُ:

[١]	[٢]	[٣]	[٤]
اللَّفظُ.	**النظْمُ.**	**البَلَاغَةُ:** فِي دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ.	**المَعاني:** قالَ رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ، الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ الْغَيْبِ الْمَاضِي، وَعَنِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْمَعَادِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا بَيَّنَ فِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْيَقِينِيَّةِ، وَالْأَقْيِسَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ»

أقسامُ النَّاسِ في سماعِ القُرآنِ (سماعَ فِقهٍ وقَبولٍ):

[١] مُعرِضٌ مُمتنعٌ عن سماعِه.	[٢] يسمعُ الصَّوتَ ولا يفقهُ المَعنىٰ.	[٣] يفقهُه لكنَّه لا يقبَلُه.	[٤] يسمعُه سماعَ فقهٍ وقَبولٍ.

أنواعُ هَجرِ القرآنِ (ذكَرَها ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ):

[١] هجرُ سَماعِه، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.	[٢] هجرُ العملِ به والوقوفِ عندَ حلالِه وحرامِه، وإن قرأه وآمنَ به.	[٣] هجرُ تحكيمِه والتَّحاكُمِ إليه في أصولِ الدِّينِ وفروعِه.	[٤] هجرُ تدبُّرِه، وتفهُّمِه، ومعرفة ما أرادَ المُتكلِّمُ به منه.	[٥] هجرُ الاستشفاءِ والتَّداوي به في جميع أمراضِ القُلوبِ وأدوائِها.

القرآنِ الكريمِ لا يُشبِه شيئًا من كلامِ العَرَبِ:

القرآنُ الكَريمُ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أحكَمَ آياتِه، وفصَّلَها، وبيَّنَها، بكلامٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ، وليس هو علىٰ طريقَةِ ما عرفَه العَرَبُ من الشِّعرِ، ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[يس:٦٩]، ولا علىٰ طريقَةِ النَّثرِ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾[يس]، فهو قسمٌ خاصٌّ، لا يُشبِهُ الشِّعرَ والنَّثرَ ولا يُشبِهانِه، ولهذا جاءَ في «المُستدرَكِ» أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرَةِ لمَّا سمِعَه قالَ: «**وَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَىٰ، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ**».

تنبيهٌ: اجتمع في القرآنِ الكَريمِ أنَّه مُعجزَةٌ وتَشريعٌ، بخِلافِ باقي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ ففيها تَشريعٌ فقط كما في التَّوراةِ، وإنَّما أوتِيَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ العصىٰ وغيرَها من الآياتِ.

الفَرقُ بين القرآنِ الكريمِ والـمُصحَف:

القُـرآنُ الكَريـمُ لا يُضـافُ إلَّا إلـىٰ الله ﷻ؛ لأنَّـه كلامُـه، ولا يُجمَع، أمَّـا المُصحَفُ فهو الصُّحُـفُ الَّتـي كُتِـبَ فيهـا القُـرآنُ، ويُمكِـنُ إضافَتُهـا إلـىٰ مَـن كتبَهـا أو جمَعَهـا، مِثـلَ: مُصحَـفِ عُثمـانَ وتُجمَـع أيضًـا علـىٰ مَصاحِفَ.

قـالَ المُصنِّـف رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَـدْ حَمَـىٰ اللهُ تَعَالَىٰ هَـٰذَا الْقُـرْآنَ الْعَظِيمَ مِـنَ: التَّغْيِيـرِ، وَالزِّيَادَةِ، وَالنَّقْـصِ، وَالتَّبْدِيـلِ؛ حَيْـثُ تَكَفَّـلَ ﷻ بِحِفْظِـهِ، فَقَـالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وَلِذَلِـكَ مَضَـتِ الْقُـرُونُ الْكَثِيـرَةُ وَلَـمْ يُحَـاوِلْ أَحَدٌ مِـنْ أَعْدَائِهِ أَنْ يُغَيِّـرَ فِيـهِ، أَوْ يَزِيـدَ، أَوْ يَنْقُـصَ، أَوْ يُبَـدِّلَ = إِلَّا هَتَـكَ اللهُ تَعَالَـىٰ سِـتْرَهُ، وَفَضَـحَ أَمْرَهُ).

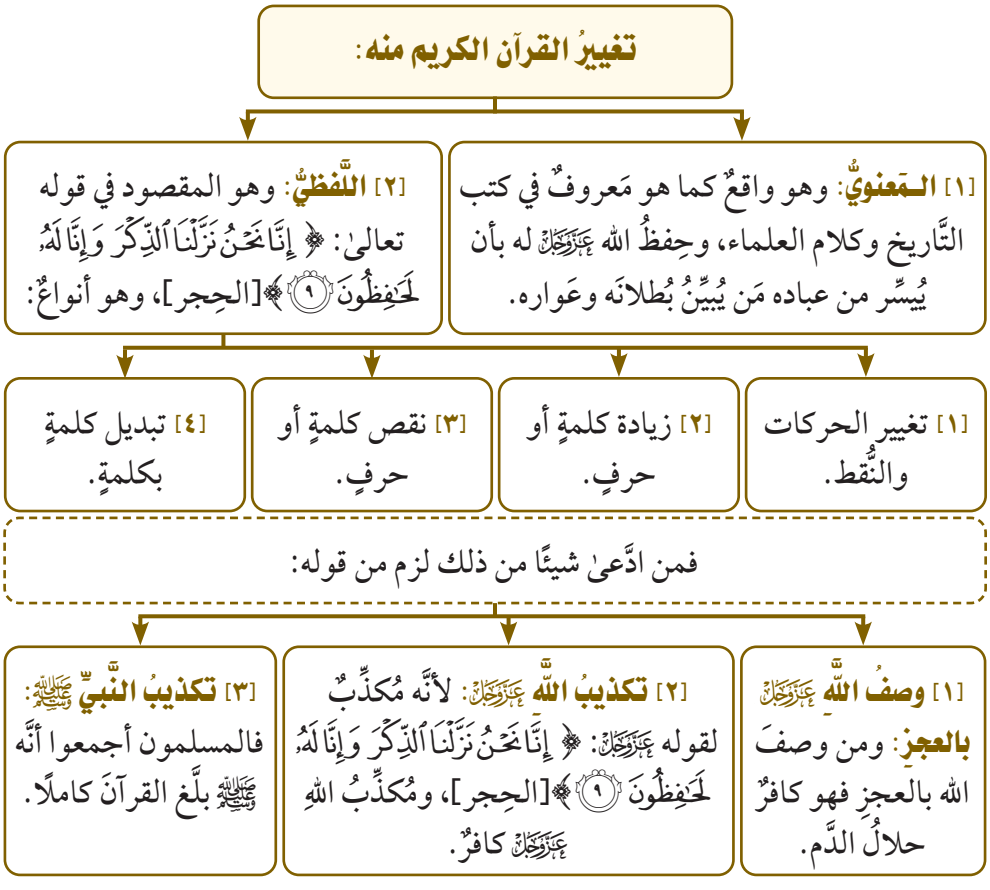

حكمُ استعمالِ القُرآنِ لغيرِ ما أُنزِلَ له وللمِزاحِ:

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:)وَلَيْسَ لِأَحَدٍ اسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ لِغَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ فَسَّرَ الْعُلَمَاءُ الْحَدِيثَ الْمَأْثُورَ: «**لَا يُنَاظَرُ بِكِتَابِ اللهِ**»، أَيْ: لَا يُجْعَلُ لَهُ نَظِيرٌ يُذْكَرُ مَعَهُ؛ كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِمَنْ قَدِمَ لِحَاجَةٍ: لَقَدْ ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[طه]، وَقَوْلِهِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[يونس:٤٨]؟! أَوْ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[التَّوبة].

ثُمَّ إِنْ خَرَّجَهُ مَخْرَجَ الِاسْتِخْفَافِ بِالْقُرْآنِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ كَفَرَ صَاحِبُهُ.

وَأَمَّا إِنْ تَلَا الْآيَةَ عِنْدَ الْحُكْمِ الَّذِي أُنْزِلَتْ لَهُ، أَوْ كَانَ مَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فَحَسَنٌ؛ كَقَوْلِهِ لِمَنْ دَعَاهُ إِلَىٰ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ: ﴿مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾[النُّور:١٦]، وَقَوْلِهِ عِنْدَ مَا أَهَمَّهُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦]».

وسُئِلَ الشَّيخُ العُثيمينُ رَحِمَهُ اللَّهُ عن استِعمالِ آياتِ القرآنِ علىٰ سَبيلِ المِزاحِ فقالَ: «أمَّا من قالَ هذا علىٰ سبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريةِ فإنَّه علىٰ خطرٍ عظيمٍ، وقد يُقالُ: إنَّه خرجَ من الإسلامِ؛ لأنَّ القرآن لا يجوزُ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ أن يُتَّخذَ هُزُوًا، وكذلك الأحكامُ الشَّرعيَّة؛ كما قالَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التَّوبة]، ولهذا قالَ العلماءُ -رحمهم اللهُ-: من قالَ كلمةَ الكُفرِ ولو مازحًا فإنَّه يكفُرُ! ويجبُ عليه أن يتوبَ، وأن يعتقِدَ أنَّه تاب من الرِّدَّةِ، فيُجدِّد إسلامَه، فآياتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورسولِه أعظَمُ مِن أن تُتَّخذَ هُزُوًا أو مَزحًا.

أمَّا من استشهدَ بآيةٍ علىٰ واقعةٍ جرت وحدثت فهذا لا بأسَ به، فإنَّ رسولَ الله ﷺ استشهَدَ بالآياتِ علىٰ الوقائعِ، فاستشهد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] حينما جاء الحسَنُ والحُسَينُ يتعثَّرانِ في أثوابِهما، فنزَلَ من المِنبرِ ﷺ وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التَّغابن:١٥]، فالاستشهادُ بالآياتِ علىٰ الوقائعِ لا بأسَ به).

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِأَوْصَافٍ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ، وَبَرَكَتِهِ، وَتَأْثِيرِهِ، وَشُمُولِهِ، وَأَنَّهُ حَاكِمٌ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾[الحجر]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا﴾[ق]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص]، وَقَالَ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة]، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾[الأنعام]، وَقَالَ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[الفرقان].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[النحل]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾[المائدة: ٤٨]).

السَّبعُ المَثاني هي الفاتحةُ، آياتُها سبعٌ، وفيها:

- [١] الخبر.
- [٢] الدُّعاء.
- [٣] التَّاريخ.
- [٤] تقسيم النَّاس بالهداية.

بعضُ أسماء سورة الفاتحة:

فاتحةُ الكتاب، والسَّبعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ، والرُّقية، وأمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والصَّلاةُ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وهذه هي الَّتي جاءت بها الأدلَّة، وسُمِّيت بغيرها.

وصف اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القرآنَ بالعظمةِ؛ فقال:

[١] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر].

[٢] ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق]، والمَجدُ هو: (العظمة والسُّلطان).

يُفهم من عظمةِ القرآنِ:

[١] تعظيمُ القرآن نفسِه.

[٢] أنَّ من تمسَّك به نال العظمة والمجدَ، وصارَ له السُّلطة علىٰ غيره، وتاريخ الأمَّة الإسلاميَّة يشهد بهذا.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

[١] وصفَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ بأنَّه مُباركٌ:

- **[أ] في أجره وثوابه**: فمن قرأ القرآن فله بكلِّ حرفٍ عشر حسناتٍ. أخرجه التِّرمذيُّ.
- **[ب] في تأثيره**: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر].
- **[ج] في أثره**: ومنه النصر علىٰ العدوِّ، وصلاح القلب، وإقبال العبد علىٰ ربِّه، وتليين القلب.

[٢] وبيَّن الحكمةَ من إنزالِه:

- [أ] ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾: فالَّذي يقرأ القرآن بحضور قلبٍ وتدبُّرٍ يتأثَّر به تأثُّرًا عظيمًا، وفيه أنَّ معانيَ آيات الصِّفات مَعلومةٌ.
- [ب] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: فالتَّدبُّر مُطلقٌ، والتَّذكُّر خاصٌّ بأولي الألباب، أي: العقول، فهم الَّذين يتذكَّرون ويتَّعظون بالقرآن.

مَعنى كون القرآنِ الكريمِ كتابًا أنَّه مَكتوبٌ في:

- [١] **اللَّوح المَحفوظ**: في الملأ الأعلىٰ.
- [٢] **الصُّحف**: الَّتي بأيدي السَّفرة الكرام البررة.
- [٣] **المَصاحف**: الَّتي في أيدينا.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

- [١] ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾: الاتِّباع فرع معرفة المعنىٰ؛ فترجع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.
- [٢] ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: حُذف المَفعول، وتقديره: اتَّقوا مُخالفتَه، وهي ضدُّ الاتِّباع، فيشمل كلَّ شرائع القرآن.
- [٣] ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾: (لعلَّ) تأتي في اللُّغة للتَّرجِّي والتَّعليل، وهي هنا للتَّعليل؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يعسر عليه شيءٌ.
- [٤] ﴿تُرۡحَمُونَ﴾: أُضمِر الرَّاحم، والفاعل يُحذف للعلم به، والفاعل هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ، أو لإفادة العموم، فيكون المَعنىٰ: مَن رَحِمَه اللهُ يسَّر له مَن يرحمُه مِن الخلق، فيكون مَرحومًا من الله عَزَّوَجَلَّ ومن الخلقِ.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ مُؤكَّدةٌ بثلاث مُؤكِّداتٍ:

- [١] **القسم**: في قوله تعالىٰ قبلها: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة]، و(لا) هنا للتَّنبيه، وليست نافيةً.
- [٢] **إنَّ**.
- [٣] **اللَّام**.

وصفَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ بأنَّه كريمٌ:

أي: كثير الخير، يفتح المَدارك، ويوسِّع العلوم، فيه من المعاني والعلوم العظيمة ما لا يوجد في غيره، فهو كريمٌ في ألفاظه، ومعانيه، وآثاره، وغيرها.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾:

[١] أي: للخَصلة الَّتي هي أقوم، و(أقوم) صيغة تفضيل، فكلُّ خُلُقٍ فاضلٍ فالقرآن يهدي إلىٰ أعلاه، وكلُّ مُعاملةٍ حسنة فالقرآن يهدي إلىٰ أحسنها، وكلُّ عبادةٍ مُستقيمةٍ فالقرآن يهدي إلىٰ أقومها....

[٢] فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الدِّين الإسلاميَّ يبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ، والأصلح فالصَّالح، ويدفع الأسوأ بالسَّيِّء.

[١] وصف اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القرآن بشدَّة التَّأثير فقال:

[١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ): والجبل أصمُّ صُلبٌ شديدٌ.

[٢] (لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا): أي: ذليلًا.

[٣] (مُّتَصَدِّعًا): أي: مُتفتِّتًا ليِّنًا.

[٤] (مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ): الخشية خوفٌ مَقرونٌ بعلمٍ.

[٥] (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ): أي: لأجل أن يتفكَّروا.

هنا قاعدتان مهمَّتان:

[١] **قاعدةٌ أصوليَّةٌ**: (كلُّ مثلٍ في القرآن فهو إثباتٌ للقياس)؛ لأنَّ المقصود انتقال الذِّهن من هذا لهذا.

[٢] **قاعدةٌ عقديَّةٌ**: في الآية دلالةٌ علىٰ أنَّ الجبال لها فهمٌ وإدراكٌ، قال ﷺ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**». مُتَّفقٌ عليه.

قاعدةٌ أخرى مُهمَّةٌ:

(كلُّ مَثلٍ في القرآن يُمكنُ الوصولُ إلىٰ مَعناهُ؛ إلَّا مثلًا سيق للتَّنفير)، مثل قوله تعالىٰ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾[الصَّافَّات]، ورؤوس الشَّياطين غيرُ مَعلومة الهيئة.

وصفَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ بأنَّه يزيد المُؤمنين إيمانًا، ويزيد الكافرين رجسًا:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم﴾ أي: من المُنافقين، ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ استفهامٌ للتَّحديِّ؛ إمَّا لكونهم لم ينتفعوا بهذه الآيات، أو لأنَّهم يُكابرون، فانقسم النَّاس مع القرآن قسمين:

[١] (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ):

- [أ] (فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا): وزيادة إيمانهم بأنَّ السُّورة إذا نزلت بخبرٍ صدَّقوه، وإذا نزلتْ بأمرٍ أو نهيٍ امتثلوه.
- [ب] (وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ): أي: يبشِّر بعضهم بعضًا بما نزل، وبحكمه، فكلَّ ما نزلت آيةٌ دلَّت أنَّ الله أراد بالأمَّة خيرًا.

[٢] (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ):

- [أ] (فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ): والرِّجس هنا معنويٌّ؛ لمجيئه للتَّوكيد، زادهم الله رجسًا لأنَّهم كذَّبوا الخبر وخالفوا الطَّلب.
- [ب] (وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ): استمرُّوا علىٰ الرِّجس إلىٰ الموت.

فيه تحذيرٌ عظيمٌ لمن ردَّ الشَّرع أوَّل مرَّةٍ أنَّه خطرٌ عليه أن يستمرَّ معه هذا الرَّدُّ حتَّىٰ يموت علىٰ الكفر -عياذًا بالله-.

المـرض:

(علَّةٌ تقتضي خروج البدن عن الاعتدال الطَّبيعيِّ)، ومرض القلب في كلِّ موضعٍ بحسبه:

- [١] **مرض شهوةٍ**: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب:٣٢].
- [٢] **مرض شبهةٍ**: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [التَّوبة]، أي: مرض الشَّكِّ والجحود، عُرف هذا بمُقابله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فائدةٌ نحويَّةٌ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم﴾:

(كُلَّما أتت «ما» بعد «إذا» فهي زائدةٌ)، قال النَّاظم:

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَهْ بَعْدَ (إِذَا) (مَا) زَائِدَهْ

مِن تأثيرِ القرآنِ أنَّه إنذارٌ لـمن بلغَه، قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

[١] (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ): أي: المُخاطبون.

[٢] (وَمَنۢ بَلَغَۚ):أي: كلُّ من بلغه القرآن.

فكلُّ من بلغه القرآن وعرف معناه فلابدَّ أن يتأثَّر به ولو كان كافرًا، ولهذا كان أهل مكَّة يجتمعون علىٰ النَّبيِّ ﷺ إذا قرأ القرآن ليسمعوه مِن فِيهِ.

واستدلَّ بعض العلماء بهذه الآية علىٰ أنَّ كلَّ من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجَّة ولو لم يفهمه، وهو قولٌ ضعيفٌ، وإنَّما تقوم الحجَّة إذا قيل له: (هذا كلام الله الواجبُ اتِّباعُه)، ولا يُقال: لابدَّ من التَّفصيل؛ لأنَّه قد يكون صعبًا.

قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، **أي:**

[١] **جاهدهم بآياتِ القُرآنِ**: أي: اتلُ عليهم القرآن، وضيِّق عليهم به، فإنَّهم يضيقون به ذرعًا.

[٢] **جاهدهم بأحكامِ القرآنِ وحِكَمِه**: واتَّبع ما جاء في القرآنِ من قِتالهم وجِهادهم حتَّىٰ تكونَ كلمةُ الله هي العُليا.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: لا تَتَأَنَّ وتمُدَّ إليهم يدَ الضَّعفِ بل القوَّة؛ لأنَّهم يريدون أن يمدُّوا لكم يد القوَّة.

وصفَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ بأنَّه تِبيانٌ لكلِّ شيءٍ:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النَّحل]، فالقرآن الكريم مَصدرُ الشَّريعة الإسلاميَّة، وهو:

- [١] **هدًى**: لجميع النَّاس.
- [٢] **رحمةٌ**: للمُسلمين.
- [٣] **بُشرَى**: لهم إذا تمسَّكوا به.

ممَّا وصفَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ به القُرآنَ:

- [١] (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ): الباء تفيد:
  - [أ] **المُلابسة**: فهو نازلٌ نزول حقٍّ.
  - [ب] **التَّعدية**: أي: أتىٰ بالحقِّ، فأخبارُه صدقٌ، وأحكامُه عدلٌ.
- [٢] (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ): من وجهين:
  - [أ] أنَّ الكتب السَّابقة ذكرت منه شيئًا؛ فنزل مِصداقًا لها.
  - [ب] أنَّه يقول: إنَّها حقٌّ وصدقٌ؛ فيجب الإيمان بها.
- [٣] (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ): الهيمنة هي السَّيطرة والسُّلطة، أي: القرآن ناسخٌ لما سبقه من الكتب.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، الفاء للسَّببيَّة، أي: لأنَّه مُهيمنٌ احكم بينهم بما أنزل الله.

القرآنُ أتىٰ ناسخًا ومُهيمِنًا علىٰ ما سبق من الكُتب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨]، ولهذا قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْدَثُ، تَقْرَؤُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لَا وَاللهِ، مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ**». رواه البخاريُّ (٧٣٦٢). وقوله: «**مَحْضًا لَمْ يُشَبْ**» أي: لم يُخالِطْهُ غيرُه.

فُروقاتٌ مهمَّةٌ:

القرآن الكريمُ:	الكتب السماوية:
آيةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وتَشريعٌ له ولأمَّتِه.	تشريعٌ فقط.
تعهَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بحِفظِه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[الحجر].	أمرَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بحِفظِها، ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾[المائدة:٤٤].
حَفظَه كثيرٌ مِن الأمَّةِ في الصُّدورِ.	لم يَحفظها إلَّا الأنبياءُ عليهم السلام.
ناسخٌ لكلِّ الكتبِ الَّتي سبَقته.	كلُّها مَنسوخٌ بالقرآنِ العَظيمِ.
بلغَةٍ عربيَّةٍ فَصيحَةٍ.	المَعلومُ مِنها كانَ بغَيرِ العربيَّةِ.
نزلَ مُنجَّمًا بحسَبِ حاجَةِ النَّاسِ.	لم يَنزل مِنها مُنجَّمًا سوىٰ الزَّبورِ.
سُمِّيَ قرآنًا بمَعنىٰ: مَقروءٍ.	لم يُسَمَّ كِتابٌ مِنها قرآنًا إلَّا الزَّبورُ.
شَمِلَ كلَّ جَوانِبِ الحياةِ.	
نزَلَ لكلِّ الثَّقلين إلىٰ يوم القيامةِ.	
مُصدِّقٌ لجَميعِ الكُتُبِ ومُهيمِنٌ عليها.	
فيه ما لم ينزِل مثلُه في بقيَّةِ الكُتبِ؛ كسورة الفاتحةِ، وبعضُ ما نزلَ في الكُتبِ السَّابقةِ.	

القرآن الكريمُ:	الحَديثُ القُدسيُّ والحَديثُ النَّبويُّ:
تحدَّىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ النَّاسَ أن يأتوا بمثلِه.	لم يَقع به التَّحدِّي.
لفظُه ومَعناه من اللهِ، وهو مُتعبَّدٌ بتِلاوَتِه.	ليس مُتعبَّدًا بتِلاوَتِه.
مُعجِزٌ بأقصَرِ سورةٍ منه.	ليس مُعجِزًا، ومنه الصَّحيحُ والضَّعيفُ.
مَنقولٌ بطريقِ التَّواتُرِ، فكلُّه قَطعِيُّ الثُّبوتِ.	منها ما هو مُتواترٌ، ومنها ما هو آحادٌ.
لا تصحُّ الصَّلاةُ إلَّا به.	لا يُتلىٰ في الصَّلاة.
ثوابُ تلاوتِه عَظيمٌ.	فيه ثوابٌ، لكنَّه أقلُّ من ثوابِ قراءةِ القُرآنِ.
الجُنُبُ لا يمَسُّ القرآنَ.	الجُنُبُ له أن يمَسَّ كُتُبَ الحَديثِ.

عددُ سُوَرِ القرآنِ:	١١٤	أقصر سورَةٍ في القرآنِ:	الكوثر
عددُ آياتِ القرآنِ:	٦٢٣٦	عددُ آياتِ أقصَرِ سورَةٍ:	٣
عددُ أجزاءِ القرآنِ:	٣٠	أطوَلُ سورَةٍ في القرآنِ:	البقرة
عددُ أحزابِ القرآنِ:	٦٠	أعظَمُ آيةٍ:	الكرسي
عددُ أرباعِ الحِزبِ:	٤	أطوَلُ آيةٍ:	الدَّين
عدد الأثمان في الحِزبِ:	٨	عددُ السُّوَرِ المكِّيَّةُ:	٨٦
عددُ الأثمانِ في القرآنِ:	٢٤٠	عددُ السُّوَرِ المدنِيَّةِ:	٢٨

ثَانِيًا: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصْدَرُ التَّشْرِيعِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصْدَرُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان]، وَقَالَ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾[إبراهيم].

وَسُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مَصْدَرُ تَشْرِيعٍ أَيْضًا كَمَا قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾[النِّساء]، وَقَالَ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾[الأحزاب]، وَقَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر]، وَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾[آل عمران]).

القوانينُ الوضعيَّة لا تخلو من حالين:

[١] **أن تكون موافقةً للشَّرع**: فنقول: إنَّ الَّذي شرعها هو الشَّرع، ولا كرامة ولا منَّة للقوانين الوضعيَّة.

[٢] **أن تكون مُخالفةً للشَّرع**: فيجب نبذُها وطرحُها، وأن نعلم أنَّها باطلةٌ، ولا يمكن أن يُصلحَ الخلقَ قانونٌ وضعه البشر.

الرَّدُّ على من زعمَ أنَّ قانونَه يصلُحُ للخلقِ من وجوهٍ:

[١] أنَّه قاصرٌ في نفسه، وعقله، ومعرفة ما يُصلحُ الخلقَ.

[٢] أنَّه إن عرف ذلك فإنَّما يعرفه فيما حوله من الأماكن، لا فيما بعُد عنه.

[٣] أنَّه إن عرف المَصالح فإنَّما يعرفها في الزَّمن الَّذي يعيش فيه، لا فيما بعده.

النَّاظر في:

- [١] **القرآن**: ينظرُ من وجهٍ واحدٍ فقط، وهو دَلالتُه علىٰ الحُكم.
- [٢] **السُّنَّة**: ينظر من وجهين:
  - [أ] جهة ثبوتها عن النَّبيِّ ﷺ.
  - [ب] جهة دلالتها علىٰ الحكم.

من أدلَّة كون القرآن مصدرًا للتَّشريع:

- [١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ **[الفرقان]**: الفُرقان هو القرآن، سُمِّي بذلك لأنَّه يُفرِّق بين الحقِّ والباطل، وفي قوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ دليلٌ علىٰ عموم رسالة النَّبيِّ ﷺ.
- [٢] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ **[إبراهيم]**: فالكتاب الَّذي يجب أن نسير عليه هو القرآن، وعلَّل ذلك بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ثمَّ بيَّن مآل الكافرين الَّذي لا يهتدون بالقرآن: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾، ويشمل:
  - [أ] من أنكر أنَّ القرآن أُنزل علىٰ مُحمَّدٍ ﷺ.
  - [ب] من أثبت نُزولَه، لكن أنكر كونَه للعالمين.

تنبيهٌ:

القرآنُ الكريمُ له أسماءٌ وأوصافٌ.

وأشهرُ أسمائِه: القرآنُ، والفُرقانُ، والذِّكرُ، والكتابُ.

وأشهرُ أوصافِه أنَّه: هدًى، ونورٌ، وشفاءٌ، ورحمةٌ، ومَوعظةٌ، وبُشرىٰ، ومُبارَكٌ، وعزيزٌ، وكريمٌ، وبشيرٌ، ومجيدٌ، ونذيرٌ.

بدأ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابَه بالبسملةِ؛ لأمورٍ:

[١] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ **[النِّساء:٨٠]**: والطَّاعة هنا فيما لم يرد به القرآنُ، فطاعتُه ﷺ طاعةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ومن لم يطعه ﷺ فقد برئ منه النَّبيُّ ﷺ، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾.

[٢] ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ **[الأحزاب]**: فمن عصىٰ النَّبيَّ ﷺ فيما لم يرد به القرآنُ فقد ضلَّ.

[٣] ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ **[الحشر]**: وردت في الفيء وقسمته، لكن تشمل كلَّ ما أتىٰ به النَّبيُّ ﷺ من شريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

[٤] ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ **[آل عمران]**: وتُسمَّىٰ آية المِحنة، أي: امتحان واختبار من ادَّعىٰ حبَّ الله عَزَّوَجَلَّ، فميزانُ الصِّدق هو اتِّباعُ النَّبيِّ ﷺ. وفيها أنَّ الشَّأن أن يحبَّك الله، لا أن تدَّعي حُبَّه، وأنَّ من اتَّبع النَّبيَّ ﷺ حصلت له فائدتان: محبَّةُ الله، ومغفرة الذُّنوب.

ومن أدلَّةِ حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النِّساء]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٢٤].

دلالةُ الإجماعِ على حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ:

قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا أعلمُ مِن الصَّحَابَة وَلَا التَّابعينَ أحدًا أُخبر عَن رَسُول الله ﷺ إِلَّا قَبِلَ خَبرَه، وانْتهىٰ إِلَيْهِ، وَأثبت ذَلِك سنَّةً ... وصنَعَ ذَلِك الَّذين بعدَ التَّابعينَ، وَالَّذين لَقِينَاهُمْ كلُّهم يثبتُ الْأَخْبَارَ، ويجعلهُا سنَّةً يُحمَدُ مَن تبعَها ويُعابُ مَن خالفَها، فَمن فَارق هَذَا الْمَذْهَب كَانَ عندنَا مُفارقًا سَبِيلَ أَصْحَابِ رَسُول الله ﷺ وَأهلِ الْعلم بعدهمْ إِلَىٰ الْيَوْم، وَكَانَ من أهل الْجَهَالَة).

ثَالِثًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (نَزَلَ الْقُرْآنُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[القدر]، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾[الدُّخان]، وَقَالَ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة: ١٨٥].

وَكَانَ عُمُرُ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً عَلَىٰ الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَغَيْرِهِمْ، وَهٰذِهِ السِّنُّ هِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا بُلُوغُ الرُّشْدِ، وَكَمَالُ الْعَقْلِ، وَتَمَامُ الْإِدْرَاكِ.

وَالَّذِي نَزَلَ بِالْقُرآنَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ جِبْرِيلُ، أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الْكِرَامِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾[الشُّعراء]).

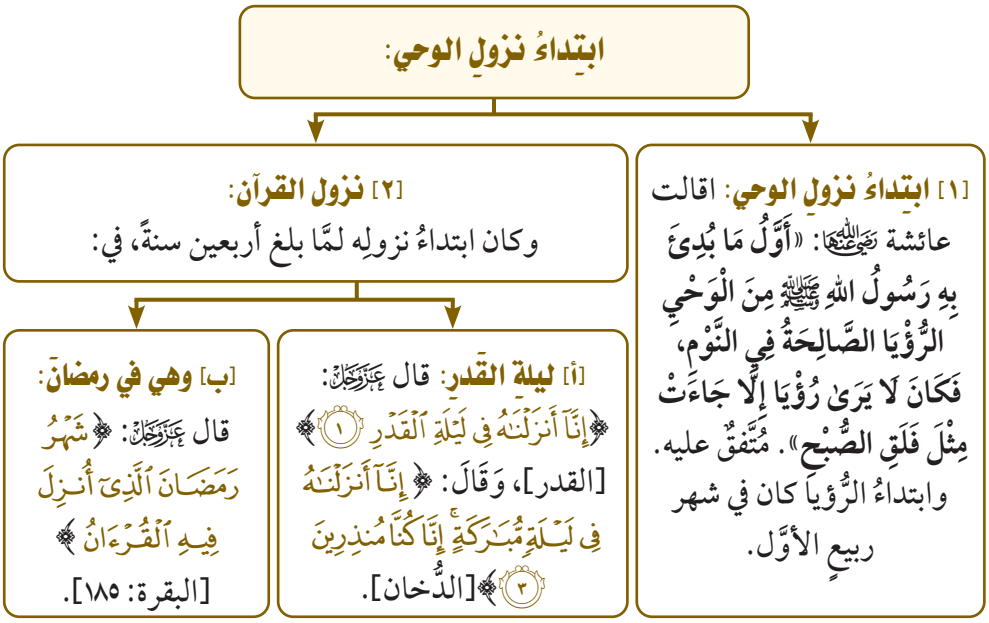

صفةُ نُزولِ القُرآنِ أوَّلَ ما نزلَ:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ: التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ أُولَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[العلق]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ؛ مَا لِي؟! وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ...». مُتَّفَقٌ عليه.

سنُّ بلوغ الرُّشد أربعون سنةً:

وبهذا فسَّر بعض العُلماء قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾[القصص:١٤].

لطيفةٌ:

سبق أنَّ ابتداءَ الرُّؤيا كان في شهر ربيعٍ الأوَّل، وأنَّ ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، وبينهما ستَّة أشهرٍ، ولبث ﷺ بعد نزول الوحي ثلاثةً وعشرين سنةً ونصف السَّنَة، قال بعض العلماء: هذا هو السِّرُّ في قول النَّبيِّ ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**». مُتَّفَقٌ عليه.

ولا تنافي بين هذا وبين قولِنا: إنَّه ﷺ نُبِّئ بـ(اقرأ)؛ لأنَّ الرُّؤيا تكون من غير النَّبيِّ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ... بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشُّعراء]:

[١] (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ): جملةٌ مُؤكَّدةٌ بمُؤكِّدين: (إنَّ) و(اللَّام).	[٢] (رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ): إشارةٌ إلىٰ أنَّ القرآن مُنزَّلٌ لكلِّ العالمين.	[٣] (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ): هو جبريل عليه السلام، ووصفُه بالأمانة مُناسبٌ؛ لأنَّ القرآن هو أعظم أمانةٍ.	[٤] (عَلَىٰ قَلْبِكَ): نزَّله علىٰ محلِّ العقل الَّذي هو القلب.	[٥] (لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ): تعليل نزول القرآن.	[٦] (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ): نزل بلغةٍ عربيَّةٍ، وهو بيِّنٌ في نفسه، مُبيِّنٌ لغيره.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَدْ كَانَ لِجِبْرِيلَ عليه السلام مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ: الْكَرَمِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْمَكَانَةِ، وَالِاحْتِرَامِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْحُسْنِ، وَالطَّهَارَةِ = مَا جَعَلَهُ أَهْلًا لِأَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللهِ تَعَالَىٰ بِوَحْيِهِ إِلَىٰ رُسُلِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التَّكوير]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ [النَّجم]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النَّحل].

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا أَوْصَافَ جِبْرِيلَ الَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِهِ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ عِظَمِ الْقُرْآنِ، وَعِنَايَتِهِ تَعَالَىٰ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْسَلُ مَنْ كَانَ عَظِيمًا إِلَّا بِالْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ).

تنبيهٌ:

قال شيخُ الإسلام في «مَجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٢٨): (ومَذهبُ سلفِ الأمَّةِ، وأئمَّتِها، وخلفِها؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمع القرآنَ من جبريلَ، وجبريلُ سمِعَه من الله عزَّ وجلَّ)، ولهذا فإنَّه يجبُ تعديلُ الاجازاتِ في القرآنِ الَّتي فيها: عن جبريل عن اللَّوح المَحفوظِ!

وردت أهمُّ صفات جبريل عليه السلام في ثلاثة مواضع من القرآن:

[١] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ فيها: الكرم، ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ فيها: القوَّة، ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ فيها: قُربُه من الله عزوجل، ﴿مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ذو مكانةٍ، ﴿مُّطَاعٍ﴾ فيها: أنَّه ذو احترامٍ، ﴿ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾[التَّكوير]، فيها: الأمانة.

[٢] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ فيها شدَّة قوَّته، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: على هيئةٍ حسنةٍ، ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ [النَّجم].

[٣] ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[النَّحل]، فيها دليلٌ على اتِّصافِه بالطَّهارة.

كونُ الله عزوجل يصف جبريل عليه السلام بهذه الأوصاف العظيمة دليلٌ على عِظم ما أُرسل به؛ لأنَّه لا يُرسَل بالأمور العظيمة إلَّا من هو عظيمٌ.

تَرجَمَةُ جِبريـــلَ عليه السلام:

- اسمُه: جِبريلُ أو جَبرائيلُ، والجبر هو العبد، أُضيف إلى إيل وهو بالنَّبطيَّة: اسمٌ لله.
- لقبُه: الرُّوح الأمينُ، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾[الشُّعراء].
- وظيفتُه: مُوكَّلٌ بالوحي، ينزل به من عند الله عزوجل على من يشاءُ من عباده المُرسَلين.
- صِفاتُه الخَلقيَّة: قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: هيئةٍ حسنةٍ، وعند الشَّيخين: «**لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ**»، و«**سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ**» أي: ملأها، وعند ابن أبي عاصم: «**جَنَاحَاهُ لُؤْلُؤٌ، وَبَاطِنُ قَدَمَيْهِ أَخْضَرُ**»، وعند ابن حبَّان: «**يَنْثُرُ مِنْ رِيشِهِ تَهَاوِيلَ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ**»، وكان يتصوَّر في صورة دِحية الكلبيِّ رضي الله عنه كما في الحديث.
- مَرتبتُه: هو أفضلُ الملائكة ومُقدَّمُهم، ولمَّا اتَّخذه اليهودُ عدُوًّا قالَ اللهُ عزوجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة]، وقد سأل جبريلُ عليه السلام النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟**»، قال: «**مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ**»، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: «**وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ**»، ومنهم جبريلُ عليه السلام.

الوَحيُ نوعانِ:

[١] **شرعِيٌّ**: وهو وحيُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للرُّسُلِ بالشَّرائِعِ، ومَراتِبُه سبعةٌ.

[٢] **لُغوِيٌّ**: وهو الَّذي يكونُ لكُلِّ المَخلوقاتِ، وهو ستَّةُ أنواعٍ.

مَراتِبُ نُزولِ الوَحي الشَّرعيِّ على النَّبيِّ ﷺ:

[١] **الرُّؤيا الصَّادِقَةُ**: وكانت مَبدأَ وَحيِه ﷺ.

[٢] **إلقاءُ المَلَكِ في رَوعِه** ﷺ: دونَ أن يَراهُ.

[٣] **المَلَكُ في صورَةِ رَجُلٍ**: فيُخاطِبُه حتَّىٰ يَعِيَ عنه ما يقولُ.

[٤] **في مِثلِ صَلصَلَةِ الجَرَسِ**: وهو أشدُّه عليه ﷺ.

[٥] **أن يَرى المَلَكَ على صورَتِه**: وقَعَ له ﷺ مرَّتينِ.

[٦] **الوَحيُ المُباشِرُ**: فوقَ السَّماءِ ليلَةَ المِعراجِ.

[٧] **كلامُ اللهِ له** ﷺ **بلا واسِطَةٍ**: كما في حَديثِ الإسراءِ.

أنواعُ الوَحيِ اللُّغَوِيِّ:

[١] **الإلهامُ الفِطريُّ للإنسانِ السَّليمِ الفِطرَةِ**: وهو ما يُلقيه اللهُ في نفسِه؛ كالوَحي إلىٰ أمِّ موسَىٰ.

[٢] **الالهامُ الغَريزِيُّ للحيوانِ**: كالوَحي للنَّحلِ.

[٣] **الأمرُ الكَونِيُّ للجَماداتِ**: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزَّلزلة].

[٤] **ما يُلقيه للمَلائكَةِ**: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: ١٢].

[٥] **الإشارَةُ السَّريعَةُ بجارِحَةٍ من الجَوارِحِ**: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟﴾ [مريم: ١١].

[٦] **وسوَسَةُ الشَّيطانِ**: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١١٢].

رَابِعًا: أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِطْلَاقِ قَطْعًا: الْآيَاتُ الْخَمْسُ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ الْعَلَقِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق]).

فائدةُ مَعرفةِ أوَّلِ ما نزلَ:

معرفة أوَّل ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه من مهمَّات معرفة المُتقدِّم والمُتأخِّر، وهو مُهمٌّ لمعرفة النَّاسخ والمَنسوخ.

من مَعاني هذه الآياتِ الخَمسِ:

[١] (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١): أمر جبريلُ النَّبيَّ ﷺ أن يقرأ، فأجاب بأنَّه لا يُحسن القراءة؛ لأنَّه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

[٢] (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢): ذكر عَزَّوَجَلَّ ابتداء خلق الإنسان، والعلقة دودةٌ حمراء، وهي أوَّل الدَّم، وعدل عن النُّطفة إلىٰ العلقة لأنَّ الانتقال من النُّطفة إلىٰ العلقة دليلٌ علىٰ ابتداء الخلق.

[٣] (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣): الواو للاستئناف، والأكرم اسم تفضيلٍ من الكرم.

[٤] (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤): أي: علَّم بالقلم كيف نكتب به، وهذا أولىٰ من تقدير محذوفٍ؛ لأنَّ الأصل عدم الحذف، فإذا دار الكلام بين الحذف وعدمه، حُمل علىٰ العدم.

[٥] (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥): أي: علَّم كلَّ إنسانٍ ما لم يعلمه.

لـماذا افتُتِحَ القُرآنُ بالفاتحةِ، ولم يُفتتحْ بهذه الآياتِ الخمسِ؟

لأنَّ الفاتحة هي أمُّ القرآن، فهي كالعنوان له، وما بعدها تفصيلٌ له، ولهذا لا تكاد تجد معنًى من القرآن إلَّا وقد تضمَّنته الفاتحة إيماءً.

قـالَ المُصنِّـف رَحِمَهُ اللهُ: (ثُـمَّ فَتَرَ الْوَحْـيُ مُدَّةً، ثُـمَّ نَزَلَتِ الْآيَـاتُ الْخَمْسُ الْأُولَىٰ مِنْ سُـورَةِ الْمُدَّثِّـرِ، وَهِـيَ قَوْلُـهُ تَعَالَـىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[المُدَّثـر]).

الحِكمة من فُتور الوَحي:

ليشتدَّ شوق النَّبيِّ ﷺ إليه؛ كما وقع فعلًا، فإنَّه لمَّا فتر الوحي صار النَّبيُّ ﷺ يخرج ليتطلَّع إلىٰ جبريل عليه السلام، وقد اختلف العلماء في مدَّة الفترة.
وفيه حرص النَّبيِّ ﷺ علىٰ الدَّعوة مع ما يُلاقيه من شدَّةٍ عند نزول الوحي.

من مَعاني هذه الآياتِ الخَمسِ:

[١] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١):	[٢] (قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢):	[٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣):	[٤] (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤):	[٥] (وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥):
أصلُها (المُتَدَثِّرُ)، أي: لابس الدِّثار، ثمَّ قُلبت التَّاء دالًا لعلَّةٍ صرفيَّةٍ.	أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يقوم ويُنذر النَّاس، وألَّا يركن إلىٰ الكسل والخمول، وبها صار رسولًا.	مَفعولٌ مُقدَّمٌ، والفاء لتزيين اللَّفظ، وقيل: للعطف.	هي الثِّياب المَعنويَّة كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، وقيل: طهِّر الثِّياب الحسِّيَّة من النَّجاسة.	الرُّجز: الأوثان، أمره عَزَّوَجَلَّ بهجرها.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» -صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي بَدْءِ الْوَحْيِ قَالَتْ: حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، يَعْنِي: لَسْتُ أَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ: ثُمَّ قَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[العلق].

وَفِيهِمَا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾[المُدَّثر]»).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ**» أي: الشَّرعُ والقرآنُ، «**وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ**» في جبل حِراءٍ علىٰ يمين الدَّاخل إلىٰ مكَّة من جهة الشَّرائع، ويُسمِّيه أهل الحجاز جبل النُّور، والتَّسمية الأولىٰ أحسن، «**فَجَاءَهُ الْمَلَكُ**» أي: جبريل، و(أل) للعهد الذِّهنيِّ.

القولُ بأنَّ السُّنَّة هي المَصدرُ الثَّاني للتَّشريع يحتمل أن يُرادَ به:

[١] أنَّنا لا نقبلها إلَّا في المرتبة الثَّانية: فهذا غلطٌ؛ لأنَّها بمنزلة القرآن.

[٢] أنَّها المَصدر الثَّاني من حيث العدد لا من حيث التَّرتيبُ: فلا بأس.

هل حكمُ ما أنزل اللَّهُ مُتعلِّقٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة أم بتوحيد الألوهيَّة؟

[١] تعلُّقه بتوحيد الرُّبوبيَّة أقوىٰ؛ لأنَّ الَّذي يملك الحكم والتَّشريع هو الله، وفي حديث عديِّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَلَيْسَ إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**»، قلتُ: نعم، قال ﷺ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**». أخرجه التِّرمذيُّ.

[٢] وله تعلُّقٌ بتوحيد الألوهيَّة؛ لأنَّ من الشَّرائع أن يتعبَّد إلىٰ الله، وشرطا العبادة: الإخلاصُ والمُتابعةُ.

هل ما كان مَعلومًا مِن الدِّين بالضَّرورة يحتاجُ إلى إقامةِ الحُجَّة؟

نعم، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: من أنكر وجوب الصَّلوات الخمس وهو حديثُ عهدٍ بإسلام، أو في باديةٍ بعيدةٍ؛ فإنَّه لا يُحكم بكُفره حتَّىٰ يُبلَّغ.

ثمَّ إنَّ القول بأنَّ هذا مَعلومٌ مِن الدِّين بالضَّرورة أمرٌ نسبيٌّ، قد يرىٰ بعض العلماء أنَّ هذا من المَعلوم مِن الدِّين بالضَّرورة، ويرىٰ آخرون خِلاف ذلك.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَثَمَّةَ آيَاتٌ يُقَالُ فِيهَا: أَوَّلُ مَا نَزَلَ؛ وَالْمُرَادُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ بِاعْتِبَارِ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ، فَتَكُونُ أَوَّلِيَّةً مُقَيَّدَةً، مِثْلُ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ سَأَلَهُ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلَ؟ قَالَ جَابِرٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، فَقَالَ جَابِرٌ: لَا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾»).

فَهٰذِهِ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا جَابِرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِاعْتِبَارِ أَوَّلِ مَا نَزَلَ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، أَوْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ فِي شَأْنِ الرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ مَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ اقْرَأْ ثَبَتَتْ بِهِ نُبُوَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ ثَبَتَتْ بِهِ الرِّسَالَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، وَلِهٰذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نُبِّئَ بِاقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ).

أوَّليَّة النُّزول قسمان:

[١] أوَّليَّةٌ مُطلقةٌ:

وهي الآيات الخمس من سورة العلق.

[٢] أوَّليَّةٌ نسبيَّةٌ (إضافيَّةٌ):

فيُقال مثلًا في حديث جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أوَّل ما نزل بعد فترة الوحي)، أو: (أوَّل ما نزل باعتبار الرِّسالة).

خَامِسًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ ابْتِدَائِيٌّ وَسَبَبِيٌّ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَنْقَسِمُ نُزُولُ الْقُرْآنِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:
الْقِسْمُ الأَوَّلُ: ابْتِدَائِيٌّ، وَهُوَ مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ، وَهُوَ غَالِبُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التَّوبة] الْآيَاتُ، فَإِنَّهَا نَزَلَتِ ابْتِدَاءً فِي بَيَانِ حَالِ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَمَّا مَا اشْتَهَرَ مِنْ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ ذَكَرَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَرَوَّجَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْوُعَّاظِ = فَضَعِيفٌ لَا صِحَّةَ لَهُ).

ينقسمُ القرآنُ باعتبار سببِ نُزولِه إلى:

- [١] **ابتدائيٍّ**: (مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ).
- [٢] **سببيٍّ**: (مَا تَقَدَّمَ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ)، والأسباب ثلاثةٌ:
  - [أ] (سُؤَالٌ يُجِيبُ اللهُ عَنْهُ).
  - [أ] (حَادِثَةٌ وَقَعَتْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَحْذِيرٍ).
  - [أ] (فِعْلٌ وَاقِعٌ يُحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِهِ).

مثَّل المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ للابتدائيِّ بآيةِ التَّوبةِ:

وهي قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المُنافقين، ﴿مَّنْ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، ﴿عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ جُملةٌ مُؤكَّدةٌ بثلاث مُؤكِّداتٍ: (اللَّام)، و(القسم المُقدَّر)، و(النُّون)، وهذا نذرُ طاعةٍ مُعلَّقٌ بشرطٍ.
واختار رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية من بين غالب القرآن ليبيِّن القصَّة الَّتي تُذكر في سبب نزولها.

القصَّةُ ضعيفةٌ لا تصحُّ، أخرجها الطَّبرانيُّ بسندٍ فيه عليُّ بن يزيد الألهانيُّ، وهو متروكٌ.

نذر الطَّاعة نوعان:

[١] **مُطلَقٌ**: مثل أن يقول: لله عليَّ نذرٌ أن أصلِّي ركعتين.

[٢] **مُعلَّقٌ**: مثل أن يقول: إن شفىٰ الله مريضي فللَّه عليَّ نذرٌ أن أتصدَّق بكذا.

وهو آكد في وجوب الوفاء؛ لأنَّه علىٰ اندفاع نقمةٍ أو حصول نعمةٍ، فهو نذرٌ يتضمَّن العهد والشُّكر لله عَزَّوَجَلَّ، وقد أعطاك عَزَّوَجَلَّ ما عاهدته عليه فوجب عليك أن توفِّي بعهدك.

تتمَّةُ آيةِ التَّوبةِ:

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾، في هذه الآية التَّحذير من نذر الطَّاعة المُعلَّق وإخلافه، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يعني: إلىٰ الموت -والعياذ بالله-، ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[التَّوبة].

وممَّا يؤيِّد بطلان القصَّة ما جاء فيها من إعراض النَّبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ وعمر وعثمان عنه، وعدم قبول توبته، وهذا غير ممكنٍ؛ لأنَّ الرَّجل مهما أذنب من الذُّنوب إذا تاب ورجع إلىٰ الله فإنَّ الله يقبل منه، فهذه القصَّة مُخالفةٌ لما عُلم من الدِّين بالضَّرورة وهو قبول توبة الله تعالىٰ من التَّائبين.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (**القِسْمُ الثَّانِي: سَبَبِيٌّ، وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ، وَالسَّبَبُ: أ. إِمَّا سُؤَالٌ يُجِيبُ اللهُ عَنْهُ، مِثْلُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]**).

مِن مَعاني هذه الآيةِ:

[١] (يَسْـَٔلُونَكَ): الظَّاهر أنَّ السَّائلين هم الصَّحابة، ويحتمل غيرهم.

[٢] (عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ): جمع هلالٍ، وهو القمر يُرىٰ في أوَّل ليلةٍ، وثاني ليلةٍ، وثالث ليلةٍ، والحكم هنا يتعلَّق برؤيته أوَّل ليلةٍ.

[٣] (قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ): أي: كلِّ النَّاس من العرب والعجم، منذ خلق الله الأهلَّة إلىٰ أن يشاء الله.

[٤] (وَٱلْحَجِّ): نصَّ علىٰ الحجِّ؛ لأنَّ ميقاته أشهرٌ، والأشهر ميقات رمضان كذلك، لكن ذكر الحجَّ لأنَّه يحتاج إلىٰ سفرٍ وعناءٍ، ولأنَّه عدَّة أشهرٍ.

سببُ اختيارِ هذا المثالِ:

هو دفع ما قاله البلاغيُّون في **أسلوب الحكيم**، وهو: (**أن يُجاب السَّائل بخلاف ما يتوقَّع إشارةً إلىٰ ما كان ينبغي أن يسأل عنه**)، قالوا: إنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا عن الأهلَّة وسبب بُدُوِّ الهلال صغيرًا ثمَّ يكبر، فصرف الله عَزَّوَجَلَّ الجواب عمَّا سُئله إلىٰ بيان فائدة الأهلَّة.

والجواب عن قولهم -عفا الله عنهم-: أنَّ قولهم هذا ليس له أصلٌ، فالصَّحابة إنَّما سألوا عن الحكمة من الأهلَّة، فأُجيبوا ببيانها.

مِن فوائدِ هذه الآيةِ:

[١] إثباتُ علم الله عَزَّوَجَلَّ، وسَعة سمعِه.

[٢] أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يتركوا شيئًا يحتاج إليه النَّاس -إذا لم يُبيَّن لهم ابتداءً- إلَّا سألوا عنه، وبذلك كمُل الدِّينُ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

ب. (أَوْ حَادِثَةٌ وَقَعَتْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَحْذِيرٍ، مِثْلُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التَّوبة: ٦٥-٦٦] الآيَتَيْنِ، نَزَلَتَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ؛ فَجَاءَ الرَّجُلُ يَعْتَذِرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيُجِيبُهُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التَّوبة]).

في هذه القصَّة بيان أنَّ المُنافقين لا يألون جهدًا في القدح في الإسلام والمسلمين، لكنَّهم يختفون لجُبنهم، وعدم صراحتهم، وخيانتهم، وخداعهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، يعني: نخوض في الحديث، ونلعب في الأفكار، ولسنا نقصد ذلك على وجه الجدِّ!

الأوصافُ الَّتي وصف المُنافق بها النَّبيَّ ﷺ وأصحابَه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وهم منها برَاءُ:

[١] «أَرْغَبَ بُطُونًا»:	[٢] «أَكْذَبَ أَلْسُنًا»:	[٣] «أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»:
أي: ليس لهم همٌّ إلَّا بطونُهم.	والكذب هو: الإخبار بخلاف الواقع.	والجُبن هو: الشُّحُّ بالنَّفس، والبُخل هو: الشُّحُّ بالمال.

والمُنافقون هم أحقُّ النَّاس بهذه الأوصاف!

في هذه الآية دليلٌ على أنَّ المُستهزئ بالله وآياته ورسوله كافرٌ، حتَّى وإن لم يقله على وجه الجدِّ؛ بل إنَّ كُفر المُستهزئ أشدُّ من كفر القائل على الجدِّ؛ لأنَّ المُستهزئ جمع بين الكفر والاستهزاء.

المُراد بقوله تعالى: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾:

[١] **الجنسُ**: فتشمل الآية الواحدة، فمن استهزأ بآيةٍ واحدةٍ فقد كفر.

[٢] **الجمع**: فيكون من استهزأ بآيةٍ واحدةٍ داخلًا في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾[البقرة:٨٥]، فيكون كافرًا؛ لأنَّ من آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه كان كافرًا بالجميع.

المُستهزئُ إمَّا أن يستهزئَ بـ:

[١] **الشَّرع**:

فهذا يكفر مُطلقًا، بلا تفصيلٍ.

[٢] **مَن تلبَّس بالشَّرع (كمَن يُقصِّرُ ثوبَه مثلاً)، فهذا فيه تفصيلٌ**:

[أ] **يكفرُ**: إذا استهزأ به لأنَّه فعل ذلك؛ فهذا استهزاءٌ بما فعله من الشَّريعة.

[ب] **لا يكفرُ**: إذا استهزأ به لشخصه، لكنَّه علىٰ خطرٍ أن يلقي الشَّيطان في قلبه كراهية هذا الشَّخص لكونه تلبَّس بهذه الشَّريعة.

مسألتان مُهمَّتان في الاستهزاء:

[١] **من استهزأ بالله، ورسوله، وآياته، هل تُقبل توبتُه؟**

تُقبلُ توبتُه، والدَّليلُ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التَّوبة]، فالطَّائفة المَعفوُّ عنها هي التَّائبةُ.

[٢] **من سبَّ الرَّسولَ ﷺ بعد وفاتِه، هل تُقبلُ توبتُه؟**

تُقبلُ توبتُه؛ لكنَّه يُقتل أخذًا بالثَّأر للرَّسول ﷺ، فيُغسَّل، ويُصلَّىٰ عليه.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

ج. (أَوْ فِعْلٌ وَاقِعٌ يُحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِهِ، مِثْلُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١...﴾[المجادلة]).

سببُ نزولِ هذه الآيةِ:

أنَّ رجلًا ظاهر من امرأته، فقال لها: (أنتِ عليَّ كظهر أمِّي)، وكانوا في الجاهليَّة يرون الظِّهار طلاقًا بائنًا، فلم تصبر المرأة، فجاءت تشتكي إلىٰ الرَّسول ﷺ، فأنزل الله هذه الآية في بيان حكمِها.

مِن فوائدِ هذه الآيةِ:

بيان إحاطة سمع الله عَزَّوَجَلَّ بكلِّ شيءٍ، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ**» أي: في طرف الحُجرة «**وَإِنَّ بَعْضَ حَدِيثِهَا لَيَخْفَىٰ عَلَيَّ، وَاللهُ -جَلَّ وَعَلَا- سَمِعَهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**». أخرجه أحمد وبعض أصحاب «السُّنن».

بل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يسمع السِّرَّ، والنَّجوىٰ، ويعلم ما توسوس به النَّفس وتتحدَّث به.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

(فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ:

مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ مُهِمَّةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَىٰ فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

١. بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ الشَّيْءِ، فَيَتَوَقَّفُ عَنِ الْجَوَابِ أَحْيَانًا حَتَّىٰ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، أَوْ يَخْفَىٰ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ، فَيَنْزِلُ الْوَحْيُ مُبَيِّنًا لَهُ).

مِن فوائدِ مَعرفةِ أسبابِ النُّزولِ:

- [١] (بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ).
- [٢] (بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِرَسُولِهِ ﷺ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ).
- [٣] (بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرُبَاتِهِمْ، وَإِزَالَةِ غُمُومِهِمْ).
- [٤] (فَهْمُ الْآيَةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ).

الفائدة الأولى (بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى):

ووجه ذلك أنَّ القرآن لو كان من عند النَّبيِّ ﷺ لكان يجيب علىٰ كلِّ ما يرد عليه من دون توقُّفٍ وانتظارٍ، فلمَّا كان يتوقَّف وينتظر حتَّىٰ تنزل الآية دلَّ علىٰ أنَّ القرآن نزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِثَالُ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ مَا الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، وَفِي لَفْظٍ: فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾).

من الَّذين سألوا النَّبيَّ ﷺ عن الرُّوح؟

- [١] **اليهود**: جاء هذا في حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُتَّفق عليه.
- [٣] **قُريشٌ**: وجاء هذا في حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند أحمد وبعض أصحاب «السُّنن» بإسنادٍ صحيحٍ.

والقاعدة أنَّه: (**يُمكن أن يكون للآية أكثر من سبب نزولٍ**)، وعليه فلا تعارض بين هذين الحديثين.

فائدةٌ في جوابِ أهلِ البِدعِ:

في قولـه تعالـىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[الإسـراء] تبكيـتٌ للسَّـائلين؛ كأنَّه يقول لهـم: ما بقـي عليكـم إلَّا أن تعرفـوا الرُّوح!

وبهـذه الآيـة يمكـن أن نجيـب أهـل البـدع الَّذيـن يسـألون عـن كيفيَّـة الصِّفـات، أو عن كيفيَّـة مـا يقـع مـن أمـور الغيب.

قـالَ المُصنِّـف رَحِمَهُ اللهُ: (وَمِثَـالُ الثَّانِـي قَوْلُـهُ تَعَالَـىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾[المنافقون:٨]، وَفِـي «صَحِيحِ الْبُخَـارِيِّ» أَنَّ زَيْدَ بْـنَ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَـمِعَ عَبْـدَ اللهِ بْـنَ أُبَـيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِيـنَ يَقُـولُ ذَلِـكَ، يُرِيدُ أَنَّـهُ الْأَعَزُّ، وَرَسُـولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُـهُ الْأَذَلُّ، فَأَخْبَـرَ زَيْـدٌ عَمَّـهُ بِذَلِـكَ، فَأَخْبَرَ بِـهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَدَعَا النَّبِـيُّ ﷺ زَيْدًا فَأَخْبَـرَهُ بِمَا سَـمِعَ، ثُمَّ أَرْسَـلَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْـنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِـهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُـوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْـزَلَ اللهُ تَصْدِيـقَ زَيْـدٍ فِي هٰـذِهِ الْآيَةِ، فَاسْـتَبَانَ الْأَمْرُ لِرَسُـولِ اللهِ ﷺ).

ما قاله المُنافقونَ:

[١] ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:
وكان المُنافقون أغنياء أعزَّاء بأنفسهم، وهم أذلَّةٌ، ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ للتَّعليل، أي: حتَّىٰ يتركوه ﷺ، فأجابهم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾[المُنافقون].

[٢] ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾:
والقائل هو عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلولٍ، ونُسب القولُ إلىٰ المُنافقين لأنَّه زعيمُهم.

مِن فوائد هذه القصَّة:

[١] عمُّ زيد بن أرقم صحابيٌّ، وكلُّهم عدولٌ، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ أراد أن يتثبَّت في الأمر، حتَّىٰ يأتي الأمر علىٰ بصيرةٍ، فالحديث أصلٌ في: (وجوب التَّثبُّت فيما يُنقل).

[٢] لمَّا دعا النَّبيُّ ﷺ المُنافقين وسألهم حلفوا ما قالوا، وهكذا شأن المُنافقين يحلفون علىٰ الكذب وهم يعلمون؛ لأنَّ شعارهم الكذب، والمُخادعة، والنِّفاق.

[٣] قال تعالىٰ ردًّا علىٰ المُنافقين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافقون:٨]، ولم يقل: (رسول الله هو الأعزُّ)، أو: (الله هو الأعزُّ)، بل قدَّم الخبر ليفيد الحصر، فلا يكون للمُنافقين عزَّةٌ.

أنزل اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

[١] **في رجلٍّ واحدٍ من الكفَّار**: وهو أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ ﷺ سورة المسد.

[٢] **في المُنافقين:**

[أ] **سورة المُنافقون.**

[ب] **عدَّة آياتٍ من سورة براءة**: فكانت من أشدِّ السُّور عليهم؛ لأنَّها فضحتهم.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢. (**بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِرَسُولِهِ ﷺ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، وَكَذَلِكَ آيَاتُ الْإِفْكِ، فَإِنَّهَا دِفَاعٌ عَنْ فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَطْهِيرٌ لَهُ عَمَّا دَنَّسَهُ بِهِ الْأَفَّاكُونَ**).

مِن فوائد هذه القصَّة:

[١] سبب نزولها:
أنَّهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أُنزلت التَّوراة والإنجيل، فردَّ عليهم الله ﷻ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، فلو نُزِّل جملةً واحدةً لم يحصل التَّثبيت، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ، فمن وعظك موعظةً بليغةً ثمَّ لم يعظك بعدها لم يكن كمن وعظك موعظةً خفيفةً ثمَّ أعادها عليك مرَّةً ثانيةً وثالثةً...

[٢] الوقف:
يحسُن الوقف على: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾؛ لأنَّ جملة ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، فهي تعليلٌ لجملةٍ مَحذوفةٍ، والتَّقدير: (أَنْزَلْنَاهُ كَذَلِكَ).

[٣] التَّرتيل:
قوله ﷻ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ مثل قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المُزَّمِّل]، أي: اقرأه على مهل، وليس معناه جوِّده، فالتَّجويد لًا يجب، فإنَّه يجوز للإنسان أن يقرأ القرآن غير مُجوَّدٍ مادام أنَّه ينطق بحروفه وحركاته، وأمَّا تحسين الصَّوت فمشروعٌ؛ لحديث أبي موسى رضي الله عنه: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**». مُتَّفقٌ عليه.

قصَّة حادثة الإفك:

قصَّة الإفك مشهورةٌ في كتب التَّاريخ والسِّير، وفي كتب الصِّحاح والمسانيد، وفيها أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تخلَّفت عن الجيش في بعض الغزوات، ووجدها صفوان بن مُعطِّل رضي الله عنه نائمةً، ثمَّ أناخ بعيره، ولم يتكلَّم لها بأيِّ كلمةٍ احترامًا لفراش النَّبيِّ ﷺ، لكنَّه وضع قدمه على ذراع البعير، ثمَّ ركبت أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، ثمَّ ذهب يقودُها، ولم يجعلها بين يديه، بل كانت من خلفه، فلمَّا وصل إلى القوم فرح المُنافقون بهذا، ورأوا ذلك فرصةً في الطَّعن برسول الله ﷺ بتدنيس فراشه، وحاشاه من ذلك، ثمَّ حصل في ذلك ما حصل... فنزلت آيات الإفك العشرة المُحكَمات تطهيرًا له ﷺ ولأمِّ المؤمنين رضي الله عنها عمَّا دنَّسهما به المُشركون، يقرأهنَّ المسلمون تقرُّبًا إلى الله ﷻ.

الحكمة من إنزال آيات الإفك:

بيان عناية الله ﷻ برسوله ﷺ، ونعم المُرسِل ونعم الرَّسول، ومن عنايته ﷻ رسوله ﷺ عنايتُه بفراشه أن يُدنَّس، فحصل بتبرئة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها طمأنينته ﷺ، وخذلان الخبثاء الَّذين انتقصوه.

وفيها بيان عناية الله ﷻ بعباده في تفريج كُرُباتهم، وإزالة غمومِهم، ولله الحمد والشُّكر.

جزاء من تكلَّم بالإفك:

نزل في عبد الله بن أبيٍّ قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾[النُّور]، وهذا في الآخرة، وأمَّا في الدُّنيا فلم يحُدَّه النَّبيُّ ﷺ مع أنَّه أقام الحدَّ علىٰ حسَّان بن ثابتٍ، ومِسطح بن أثاثةَ، وحمنة بنت جحشٍ رضي الله عنهم.

لـماذا لم يُقم النَّبيُّ ﷺ الحدَّ على عبدِ اللَّهِ بن أُبيٍّ؟

[١] اكتفاءً بقول الله ﷻ: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ولم يقل ﷻ: اجلدوه.	[٢] الحدُّ تطهيرٌ، وعبد الله بن أُبيٍّ خبيثٌ ليس أهلًا للتَّطهير.	[٣] أنَّه ﷺ يحبُّ التَّأليف، فلربَّما يحصل من قومه ما لا تُحمَدُ عُقباه لو أُقيم عليه الحدُّ.	[٤] أنَّ الخبيث عبد الله بن أُبيٍّ ماكرٌ مُخادِعٌ، لم يُصرِّح بهذا الأمر، لكنَّه يجلس في المجالس يقول: ما سمعتم شيئًا؟ يشير بالحديث.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

٣. (بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرُبَاتِهِمْ، وَإِزَالَةِ غُمُومِهِمْ، مِثَالُ ذَلِكَ: آيَةُ التَّيَمُّمِ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّهُ ضَاعَ عِقْدٌ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَهِيَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ لِطَلَبِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ عَلَىٰ غَيْرِ مَاءٍ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرُوا الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، وَالْحَدِيثُ فِي «الْبُخَارِيِّ» مُطَوَّلًا).

سبب حبس النَّبيِّ ﷺ للجيش:

[١] لأنَّ العقد الَّذي ضاع مالٌ، والمال عندهم قليلٌ.

[٢] لأنَّ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تتحلَّىٰ به للنَّبيِّ ﷺ أشرفِ الخلق، فهو عقدٌ ذو قيمةٍ.

[٣] لأنَّ الرَّسول ﷺ مُرَبٍّ لأُمَّته بمَقالِه وفِعالِه، حتَّىٰ يعلموا ما للزَّوجات من حقوقٍ، وأنَّه تجب مُراعاتُهنَّ، وحتَّىٰ يعرفوا قدر المال، فلا يُضيِّعوه بلا فائدةٍ.

والعِقد هو ما تلبسه المرأة في عنقِها.

من أمثلة القاعدة العامَّة ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشَّرح]:

[١] **آية التَّيمُّم:**

لمَّا عجزوا عن الماء وعسُر عليهم أمرُهم فرَّج الله عنهم، وأنزل آية التَّيمُّم، قال أُسيد بن حُضيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ)، ومن بركاتِهم أيضًا: خلافة أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقتالُه أهل الرِّدَّة، وتوليته عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ...

[٢] قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ فلن يضيع الولدُ؛ بل لابدَّ أن يُيسِّر الله من يرضعُه، ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ [الطَّلاق].

التَّبرُّك هو: (طلبُ البركة)، ومنه:

[١] **ممنوعٌ**: ضابطُه أنَّه كلُّ ما لم يثبت فيه أمرٌ شرعيٌّ أو حسِّيٌّ، مثل: التَّمسُّح بحُجرة النَّبيِّ ﷺ.

[٢] **مشروعٌ**: وقد يكون بـ:

[أ] **أمرٍ شرعيٍّ**: كالصَّلاة في المسجد الحرام، وقراءة القرآن.

[ب] **أمرٍ حسِّيٍّ**: كالتَّبرُّك بدراسة كتب أهل السُّنَّة.

حكمُ قولِ: (هذا من بركة فُلانٍ):

[١] **وفلانٌ حيٌّ**: جائزٌ؛ كقول: (من بركاتك أنَّك أصلحت بين القوم).

[٢] **وفلانٌ ميِّتٌ**: فإمَّا أن يكون الشَّيء وقع:

[أ] **في زمانه، وكان سببًا له**: جائزٌ؛ كقول: (آية التَّيمُّم من بركات عائشة رضي الله عنها).

[ب] **بعد موته**: حرامٌ، وقد يكون شركًا أكبر.

حكمُ مُصاحبةُ الرَّجلِ لالتماسِ البركةِ:

[١] **جائزٌ**: إذا كان في صُحبته حُصولُ الخير؛ لكونِه يأمر بالمعروفِ، وينهىٰ عن المُنكرِ، ويُعلِّمُ الخيَر.

[٢] **غير جائزٍ**: إذا قصدَ حُصولَ البركةِ بمُجرَّد الصُّحبةِ.

عن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ رضي الله عنه: لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ مَكَّةَ خَرَجَ بِنَا مَعَهُ قِبَلَ هَوَازِنَ، حَتَّىٰ مَرَرْنَا عَلَىٰ سِدْرَةِ الْكُفَّارِ، سِدْرَةٍ يَعْكُفُونَ حَوْلَهَا وَيَدْعُونَهَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السَّنَنُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨]**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ**». أخرجه أحمدُ والتِّرمذيُّ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

٤. (فَهْمُ الْآيَةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أَيْ: يَسْعَىٰ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أَنَّ غَايَةَ أَمْرِ السَّعْيِ بَيْنَهُمَا أَنْ يَكُونَ مِنْ قِسْمِ الْمُبَاحِ، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ قَالَ: كُنَّا نَرَىٰ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وَبِهٰذَا عُرِفَ أَنَّ نَفْيَ الْجُنَاحِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ بَيَانَ أَصْلِ حُكْمِ السَّعْيِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَفْيُ تَحَرُّجِهِمْ؛ لِإِمْسَاكِهِمْ عَنْهُ حَيْثُ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَمَّا أَصْلُ حُكْمِ السَّعْيِ فَقَدْ تَبَيَّنَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾).

نذر الطَّاعة نوعان:

[١] ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾: فيه كونُ السَّعي شعيرةً من شعائر الله، وتعظيمُ شعائر الله من تقوىٰ القلوب؛ فهو أمرٌ مَطلوبٌ.

[٢] ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾: فيه نفيُ التَّحرُّج الَّذي كان يصيبهم عند السَّعي لظنِّهم أنَّ السَّعي من أمر الجاهليَّة.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

(عُمُومُ اللَّفْظِ وَخُصُوصُ السَّبَبِ:

إِذَا نَزَلَتِ الْآيَةُ لِسَبَبٍ خَاصٍّ وَلَفْظُهَا عَامٌّ كَانَ حُكْمُهَا شَامِلًا لِسَبَبِهَا، وَلِكُلِّ مَا يَتَنَاوَلُهُ لَفْظُهَا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ تَشْرِيعًا عَامًّا لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، فَكَانَتِ الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ لَفْظِهِ لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهِ).

إذا ورد نصٌّ عامٌّ وكان السَّبب خاصًّا، هل يختصُّ الحكمُ بالسَّبب أم يعُمُّه وغيرَه؟

[١] **الخصوص عينيٌّ**:
لا يُخصَّص العُموم بالسَّبب؛ بل يُقالُ: **(العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب)**، وسيأتي مثال هذا في كلام المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٢] **الخصوص وصفيٌّ**:
يُخصَّص به العموم؛ لأنَّ حقيقة الوصف أنَّه عامٌّ.
مثالُه حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَىٰ زِحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، فَقَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ». مُتَّفقٌ عليه. فيتنزَّل عموم النَّصِّ علىٰ من كانت حالتُه كهذا الرَّجل الَّذي ذُكر، ووجه هذا الحمل أنَّه ﷺ ذكر النَّصَّ علىٰ حالٍ مَخصوصةٍ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِثَالُ ذَلِكَ: آيَاتُ اللِّعَانِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النُّور]، فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾، الْحَدِيثَ.
فَهٰذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ بِسَبَبِ قَذْفِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ لِامْرَأَتِهِ، لَكِنَّ حُكْمَهَا شَامِلٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُوَيْمِرَ الْعَجْلَانِيَّ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ»، فَأَمَرَهُمَا ﷺ بِالْمُلَاعَنَةِ بِمَا سَمَّىٰ اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَاعَنَهَا، الْحَدِيثَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُكْمَ هٰذِهِ الْآيَاتِ شَامِلًا لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ وَغَيْرِهِ).

اللِّعان:

- [١] **سببُه**: أن يقذف الرَّجل زوجتَه بالزِّنا.
- [٢] **الخصوص وصفيٌّ**: أنَّ الرَّجل يقول فيه: (وأنَّ لعنة الله عليَّ...)، ولم يُسمَّ غضبًا؛ لأنَّ اللِّعان يُبتدأ به أوَّلًا.

الصَّحابيُّ غير مَعصومٍ، قد تقع منه الكبيرةُ، لكنَّها مُكفَّرةٌ عنه؛ لأنَّه:

- [١] قد تاب منها.
- [٢] أتىٰ بحسناتٍ تمحوها.
- [٣] غُفرت له بفضل سابقتِه.
- [٤] غُفرت له بشفاعة محمَّدٍ ﷺ، والصَّحابة أحقُّ النَّاس بشفاعته ﷺ.
- [٥] ابتُلي ببلاءٍ في الدُّنيا كُفِّر به عنه.

وقد قال الله ﷻ لأهل بدرٍ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». مُتَّفقٌ عليه.

من فوائد قصَّة هلال بن أميَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

- [١] (**الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**): (البيِّنةَ) بالنَّصب أي: أقم البيِّنةَ، أو بالضَّمِّ أي: عليك البيِّنةُ.
- [٢] (**إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ**): جملةٌ مُؤكَّدةٌ بـ: القسم، واللَّام، والنُّون، وفيها الثِّقة بالله، وحسنُ الظَّنِّ به.
- [٣] (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...): فيها التَّفريق بين رمي الرَّجل لزوجته ورميه لغيرها:
  - [أ] **في الزَّوجة**: إن لم يُقِم البيِّنة ولم تُقرَّ المرأة فإنَّهما يُلاعنان، فإن لاعنا لم يُحدَّا، ووجب التَّفريق بينهما، وحُرِّمت عليه تحريمًا مُؤبَّدًا.
  - [ب] **في غير الزَّوجة**: إن لم يُقِم البيِّنة ولم تُقرَّ المرأة فإنَّه يُحدُّ حدَّ القذف.

حكمُ مَن وجد رجلاً يزني بامرأتِه فقتله:

[١] **إذا أقام البيِّنة**: فإنَّه لا يُقتل؛ لأنَّه لمَّا نزل قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ [النُّور:٤]، قال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**». مُتَّفَقٌ عليه. فأقرَّه النَّبيُّ ﷺ.

[٢] **إذا لم يقم البيِّنة**: وهذا هو الغالب، إذ يبعد أن يزني بها أمام النَّاس، وإنَّما في خفاءٍ، ويبعد أن يذهب الزَّوجُ بعد أن رأىٰ ذلك يتطلَّب الشُّهود، فقيل: يُقتل به، وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (يجب النَّظر إلىٰ حال الرَّجل إن كان من أهل الخير والصَّلاح، وصاحبُه المقتول من أهل الشَّرِّ والفساد = فيُقبل قولُه، وإلَّا فلا يُقبل)، وهذا هو الرَّاجح؛ لما فيه من إعمال القرائن، ولهذا أمثلةٌ في الشَّرع.

مَنزلةُ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الواسطيَّة»: (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»، وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ «الْكِتَابُ» وَ «السُّنَّةُ» وَ «الإِجْمَاعُ» مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ- وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ -وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ لَقَدْ رَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ).

وفصَّلَ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في أصول أهل السُّنة والجماعة في «مجموع الفتاوى» بقوله:

۞ سلامةُ قلوبهم وألسنتِهم لأصحاب رسول اللهِ ﷺ؛ كما وصَفَهم الله به في قولِه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، وطاعةً للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

۞ وأنَّهم يَقْبلون ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ والإجْماعُ مِن فضائلِهم ومَراتبِهم.

۞ وأنَّهم يُمْسِكون عمَّا شجر بيْن الصَّحابة، ويقولون: إنَّ هذه الآثارَ المرويَّةَ في مساويهم منها ما هو كذبٌ، ومنها ما قد زِيدَ فيه ونُقِصَ، وغُيِّرَ عن وجهِه الصَّريح، والصَّحيحُ منه هم فيه مَعْذورون؛ إمَّا مُجْتهدون مُصِيبون، وإمَّا مُجتهدون مُخْطِئون.

۞ وأنَّهم مع ذلك لا يعتقدون أنَّ كلَّ واحدٍ من الصَّحابة معصومٌ عن كبائر الإثم وصغائره، بل تَجُوز عليهم الذُّنوب في الْجُملة.

۞ وأنَّ لهم من السَّوابق والفضائل ما يوجب مَغفرةَ ما يَصْدر منهم إنْ صدَر، حتَّىٰ إنَّه يُغفَرُ لَهم من السَّيِّئات ما لا يُغفَر لِمَن بعدهم؛ لأنَّ لَهم من الحسنات الَّتي تَمْحو السَّيِّئات ما ليس لِمَن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنَّهم: «**خَيْرُ الْقُرُونِ**»، وأنَّ الْمُدَّ من أحدهم إذا تصدَّق به كان أفضل من جبل أُحُدٍ ذهبًا مِمَّن بعدهم.

۞ ثمَّ إذا كان قد صدر عن أحدهم ذنْبٌ فيكون قد تاب منه، أو أتىٰ بحَسناتٍ تَمْحوه، أو غُفِرَ له بفضلِ سابقتِه، أو بشفاعة مُحمَّدٍ ﷺ الَّذي هم أحَقُّ النَّاس بشفاعتِه، أو ابْتُلِي ببلاءٍ في الدُّنيا كُفِّرَ به عنه.

۞ فإذا كان هذا في الذُّنوب المُحقَّقة، فكيف بالأمورِ الَّتي كانوا فيها مُجْتهدين: إن أصابوا فلهم أجْران، وإن أخطؤوا فلهم أجْرٌ واحد، والْخَطأ مغفورٌ لَهم؟!

۞ وأنَّ القَدْرَ الَّذي يُنْكَرُ مِن فعْلِ بعضِهم قليلٌ نزْرٌ، مغمورٌ في جنب فضائل القوم ومَحاسنهم؛ من الإيمان بالله ورسولِه، والجهاد في سبيلِه، والْهِجرة، والنُّصرة، والعلم النَّافع، والعمَل الصَّالِح.

۞ وأنَّ مَن نظر في سيرة القوم بعِلْمٍ وبصيرةٍ، وما منَّ الله به عليهم من الفضائل؛ عَلِم يقينًا أنَّهم خيْرُ الْخَلق بعد الأنبياءِ، لا كان ولا يكونُ مثْلُهم، وأنَّهم هم صفوة الصَّفوة من قرون هذه الأُمَّة الَّتي هي خيْرُ الأمم، وأكرَمُها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

مُلَخَّصٌ لبَعضِ أسبابِ النُّزولِ:	
السُّورَةُ أو الآيةُ:	سببُ نُزولِها:
سورةُ الأنفالِ	نزَلَت في غَزوَةِ بَدرٍ وما تلاها مِن قَسمِ الغَنائِمِ ومُعامَلَةِ الأسرى.
سورةُ براءَةَ	نزَلَت في غَزوَةِ تَبوكَ، وما فعَلَه المُنافِقونَ والمُشركونَ، وما حصَلَ للثَّلاثَةِ المُخَلَّفينَ، وأولئِكَ الَّذين لم يجِدوا ما يُحمَلُون عليه.
سورةُ الأحزابِ	نزَلَت في غزوَةِ الخَندَقِ، وما أصابَ المُؤمنينَ مِن البَلاءِ والشِّدَّةِ.
سورةُ الفَتحِ	نزَلَت في صُلحُ الحَديبيَةِ، ومُبايَعةِ ١٤٠٠ مِن الصَّحابَةِ للنَّبيِّ ﷺ تحت الشَّجرَةِ بيعَةَ الرِّضوانِ.
سورةُ المُجادلةِ	نزَلَت في خَولَةَ بنتِ ثعلبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتي ظاهَرَ مِنها زَوجُها أوسُ بنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
سورةُ الحَشرِ	نزَلَت في يَهودِ بني النَّضيرِ، الَّذين كادوا بالنَّبيِّ ﷺ بعد أن عاهَدهم، فأجلاهم ﷺ مِن دِيارِهم، وأخرَجَهم من المدينَةِ.
سورةُ الجِنِّ	نزَلَت في طائفَةٍ مِن الجنِّ خرجوا يبحَثون عن السَّبَبِ الَّذي مِن أجلِه حيلَ بينهم وبين خبَرِ السَّماءِ، فلمَّا سمِعوا قِراءَةَ النَّبيِّ ﷺ للقرآنِ في الصَّلاةِ آمنوا، ورجَعوا إلىٰ قومِهم يَدعونَهم.
سورَةُ الضُّحى	«اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[الضُّحى]» متَّفقٌ عليه.
سورةُ الإخلاصِ	رُوِيَ أنَّها نزَلَت جَوابًا لقُريشٍ لمَّا سألوا النَّبيَّ ﷺ وقالوا: «انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ».
آيةُ الظِّهارِ	نزَلَت في أوسِ بن الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما تقدَّمَ.
آيةُ التَّيمُّمِ	نزَلَت في فَقدِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِقدَها في غَزوَةِ بَني المُصطَلِقِ، وما تَلا ذلِكَ مِن تَشريعِ التَّيمُّمِ لفاقِدِ الماءِ.

سادسًا: المَكِّيُّ والمَدَنِيُّ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مُفَرَّقًا فِي خِلَالِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكْثَرَهَا بِمَكَّةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء].

وَلِذَلِكَ قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- الْقُرْآنَ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ: مَكِّيٍّ وَمَدَنِيٍّ:

فَالْمَكِّيُّ: مَا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَالْمَدَنِيُّ: مَا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَعَلَىٰ هٰذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، مِنَ الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِعَرَفَةَ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، نَزَلَتْ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).

نزول القرآن الكريم:

- [١] بدأ نزولُه وسنُّه ﷺ ٤٠ سنةً.
- [٢] لبث ﷺ ١٣ سنةً في مكَّة.
- [٣] لبث ﷺ ١٠ سنين في المدينة.
- [٤] توفِّي ﷺ وانقطع الوحي وسنُّه ٦٣ سنةً.

من معاني آية الإسراء:

- [١] (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ): جعلناه مُفرَّقًا.
- [٢] (لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ): علىٰ مهلٍ، يقرؤونه شيئًا فشيئًا علىٰ التَّدريج؛ فيرسخ في قلوبهم ويعملون به.
- [٣] (وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا): نزَّلناه شيئًا فشيئًا.

لـماذا قسَّموا القرآن إلى مكِّيٍّ ومدنيٍّ فقط مع أنَّ منه ما نزل بغيرهما؟

إنَّما اقتصروا علىٰ القسمين رفعًا للمشقَّة، فكثيرٌ من الآيات نزلت في أسفاره ﷺ، ويصعب استقصاؤها كلِّها، فقسَّموه باعتبار الزَّمان لا باعتبار المكان، فالمكِّيُّ ما نزل قبل الهجرة ولو بغير مكَّة، والمدنيُّ ما نزل بعد الهجرة ولو بمكَّة.

ومثَّل رَحِمَهُ اللَّهُ للمدنيِّ الَّذي نزل بمكَّة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وذكر قول عمر في «صحيح البخاريِّ»: (**نَزَلَتْ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ**)، وذلك في حجَّة الوداع.

نزول القرآن الكريم:

- [١] (ٱلْيَوْمَ): (أل) للعهد الحضوريِّ، أي: اليوم الَّذي تكلَّم فيه ﷺ.
- [٢] (أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ): جعلتُه كاملًا.
- [٣] (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي): بإكمال الدِّين.
- [٤] (وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا): فلا يرضىٰ من عباده غيرَه من الأديان.

سببُ قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لليهوديِّ: (عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ):

- [١] **بيانُ شرف المكان الَّذي نزلت فيه**: وهو عرفةُ، وعرفةُ هي المَشعرُ الحلالُ.
- [٢] **بيانُ شرف الزَّمان الَّذي نزلت فيه**: من وجهين:
  - [أ] **يومُ عرفةَ**: يومُ عيد الحُجَّاج، وهو عيدٌ سنويٌّ.
  - [ب] **يومُ الجمعةِ**: وهو عيدُ المسلمين الأسبوعيُّ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَيَتَمَيَّزُ الْقِسْمُ الْمَكِّيُّ عَنِ الْمَدَنِيِّ مِنْ حَيْثُ الْأُسْلُوبُ وَالْمَوْضُوعُ:

أ. أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْأُسْلُوبُ فَهُوَ:

١. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قُوَّةُ الْأُسْلُوبِ، وَشِدَّةُ الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُعْرِضُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، وَلَا يَلِيقُ بِهِمْ إِلَّا ذَلِكَ، اقْرَأْ سُورَتَي الْمُدَّثِرِ وَالْقَمَرِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِي أُسْلُوبِهِ اللِّينُ وَسُهُولَةُ الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُقْبِلُونَ مُنْقَادُونَ، اقْرَأْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ.

٢. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قِصَرُ الْآيَاتِ، وَقُوَّةُ الْمُحَاجَّةِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُعَانِدُونَ مُشَاقُّونَ، فَخُوطِبُوا بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ، اقْرَأْ سُورَةَ الطُّورِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ طُولُ الْآيَاتِ، وَذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُرْسَلَةً بِدُونِ مُحَاجَّةٍ؛ لِأَنَّ حَالَهُمْ تَقْتَضِي ذَلِكَ، اقْرَأْ آيَةَ الدَّيْنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ).

الفرق بين المكّيّ والمدنيّ من وجهين:

[١] الأسلوب:		[٢] الموضوع:	
[أ] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قُوَّةُ الْأُسْلُوبِ، وَشِدَّةُ الْخِطَابِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِي أُسْلُوبِهِ اللِّينُ وَسُهُولَةُ الْخِطَابِ.	[ب] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قِصَرُ الْآيَاتِ، وَقُوَّةُ الْمُحَاجَّةِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ طُولُ الْآيَاتِ، وَذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُرْسَلَةً بِدُونِ مُحَاجَّةٍ.	[أ] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ تَفْصِيلُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ.	[ب] الغالبُ علىٰ المدنيِّ الْإِفَاضَةُ فِي ذِكْرِ الْجِهَادِ وَالْمُنَافِقِينَ، بخلاف المكِّيِّ.

مثّل المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ لشدّة الأسلوب المكّيّ بـ:

[١] سورة المُدَّثِّر:

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ ما العقوبةُ؟ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾[المُدَّثِّر]، هذا كلامٌ عظيمٌ جدًّا، قويٌّ في التَّهديد والإنذار.

[٢] سورة القمر:

قال تعالىٰ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾، فصارت الأرضُ كلُّها عيونًا تنبع، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾، والجواب عن سؤالهم: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾[القمر].

ومن الأمثلة كذلك:

[١] سورة الواقعة:

قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة].

[٢] سورة الطُّور:

قال جبير بن مُطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾[الطُّور] كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ! أخرجه ابن ماجه.

ومثَّل رَحِمَهُ اللهُ للين الأسلوب المدنيِّ بآية الدَّين:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ...﴾[البقرة]، والآية طويلةٌ وسهلةٌ، وليس فيها إلَّا أحكامٌ وتوجيهٌ؛ لأنَّ القوم مُنقادون مُستسلمون، لا يُناظرون ولا يُجادلون.

قاعدةٌ:

الأصل أنَّ السُّور المكِّيَّة كلُّها مكِّيَّةٌ، وأنَّ السُّور المدنيَّة كلُّها مدنيَّةٌ، ولا يُصدَّق كون آيةٍ من السُّورة مُستثناةً إلَّا إذا ثبت ذلك بسندٍ صحيحٍ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

ب. (وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَوْضُوعُ، فَهُوَ:

١. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، خُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ تَفْصِيلُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي نُفُوسِهِمُ التَّوْحِيدُ وَالْعَقِيدَةُ السَّلِيمَةُ، فَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ تَفْصِيلِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ.

٢. الْإِفَاضَةُ فِي ذِكْرِ الْجِهَادِ وَأَحْكَامِهِ، وَالْمُنَافِقِينَ وَأَحْوَالِهِمْ فِي الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ؛ لِاقْتِضَاءِ الْحَالِ ذَلِكَ، حَيْثُ شُرِعَ الْجِهَادُ، وَظَهَرَ النِّفَاقُ، بِخِلَافِ الْقِسْمِ الْمَكِّيِّ).

ممَّا كثُر إنكاره من الكفَّار قبل الهجرة:

[١] **توحيدُ الألوهيَّة**: ومن ذلك ما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عنهم بقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾[ص].

[٢] **البعث**: ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾[المؤمنون].

من أمثلة إنكار الكفَّار للبعث:

ومن هذا ما رواه سعيد بن منصورٍ وغيره عن غزوان الغفاريِّ قال: جَاءَ أُبَيُّ بن خلفٍ بعظمٍ نخرةٍ فَجعل يفُتُّه بَين يَدي النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: من يحيي الْعِظَام وَهِي رَمِيمٌ؟ فَأنْزل اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[يس]. وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في الآيات الأواخر من سورة يس ستَّة أدلَّةٍ على البعث:

[١] (يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ): لأنَّ القادر على ابتدائها قادرٌ على إعادتها، بل إعادتُها أهون عليه.

[٢] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا): فجعل من رطوبة الأخضر وبرودته حرارةً ويبوسةً.

[٣] (وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ).

[٤] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ).

[٥] (فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ): والَّذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ مُنزَّهٌ عن العجز.

[٦] (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ): فلو لم نرجع إلى الله ليحاسبنا على أعمالنا لكان ذلك مُنافيًا للحكمة.

ومن أدلَّة قدرة اللَّه عَزَّوَجَلَّ على البعث الحسُّ:

[١] قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ بأشجارها وزرعها ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: عَلَتْ، قيل: إنَّ عُلُوَّها هو قشرة الأرض يدفعها النَّبات، وقيل: إنَّ عُلُوَّها عُلُوُّ النَّبات، ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾[الحجّ].

[٢] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فُصِّلت].

من خصائص السُّور المدنيَّة الإفاضة في ذكر:

[١] **الجهادِ والتَّرغيبِ فيه وبيانِ أحكامه**: ولم يكن المسلمون في حاجةٍ إلىٰ ذلك قبل الهجرة؛ لأنَّهم لم يُؤمروا بالجهاد، ولم يكونوا يستطيعونه.

[٢] **المُنافقين**: ولا تكاد تجد في السُّور المكِّيَّة ذكرًا للمُنافقين؛ لأنَّهم إنَّما ظهروا بعد غزوة بدرٍ لمَّا قويت شوكة المؤمنين، لكن ورد في سورة العنكبوت -وهي مكِّيَّةٌ- قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾[العنكبوت].

علاماتٌ يُعرَفُ بها المكِّيُّ والمدنيُّ:

[١] كلُّ سورَةٍ في أوَّلها حروفٌ مُقطعَّةٌ فهي مكِّيَّةٌ إلَّا البقرَةُ وآلُ عِمرانَ.
[٢] كلُّ سورَةٍ فيها (كلَّا) فهي مكِّيَّةٌ إلَّا التَّكاثُر.
[٣] كلُّ سورَةٍ فيها سَجدةُ تِلاوَةٍ فهي مكِّيَّةٌ.
[٤] كلُّ سورَةٍ مَبدوءَةٍ بقَسَمٍ فهي مكِّيَّةٌ.
[٥] كلُّ سورَةٍ مُفتَتَحَةٍ بالحَمدِ فهي مكِّيَّةٌ.
[٦] كلُّ سورَةٍ فيها قصَصُ الأنبياءِ مُفصَّلةً فهي مكِّيَّةٌ إلَّا البقرَةَ.
[٧] كلُّ سورَةٍ فيها (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) وليس فيها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فهي مكِّيَّةٌ.
[٨] كلُّ سورَةٍ فيها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وليس فيها (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) فهي مدَنِيَّةٌ.
[٩] كلُّ سورَةٍ فيها ذِكرُ المُنافقين فهي مدنِيَّةٌ إلَّا سورةَ العَنكبوتُ ففيها خِلافٌ.
[١٠] كلُّ سورَةٍ فيها حَدٌّ أو بيانُ فريضَةٍ فهي مدنِيَّةٌ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ الـمَدَنِيِّ وَالـمَكِّيِّ:

مَعْرِفَةُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ عُلُومِ الْقُرْآنِ الْمُهِمَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهَا فَوَائِدَ مِنْهَا:

١. ظُهُورُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي أَعْلَىٰ مَرَاتِبِهَا، حَيْثُ يُخَاطَبُ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ مِنْ: قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، أَوْ لِينٍ وَسُهُولَةٍ.

٢. ظُهُورُ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ فِي أَسْمَىٰ غَايَاتِهِ، حَيْثُ يَتَدَرَّجُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِحَسَبِ الْأَهَمِّ، عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ حَالُ الْمُخَاطَبِينَ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْقَبُولِ وَالتَّنْفِيذِ.

٣. تَرْبِيَةُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَوْجِيهُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا سَلَكَهُ الْقُرْآنُ فِي الْأُسْلُوبِ وَالْمَوْضُوعِ، مِنْ حَيْثُ الْمُخَاطَبِينَ، بِحَيْثُ يَبْدَأُ بِالْأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ، وَتُسْتَعْمَلُ الشِّدَّةُ فِي مَوْضِعِهَا، وَالسُّهُولَةُ فِي مَوْضِعِهَا.

٤. تَمْيِيزُ النَّاسِخِ مِنَ الْمَنْسُوخِ، فِيمَا لَوْ وَرَدَتْ آيَتَانِ مَكِّيَّةٌ وَمَدَنِيَّةٌ، يَتَحَقَّقُ فِيهِمَا شُرُوطُ النَّسْخِ، فَإِنَّ الْمَدَنِيَّةَ نَاسِخَةٌ لِلْمَكِّيَّةِ؛ لِتَأَخُّرِ الْمَدَنِيَّةِ عَنْهَا).

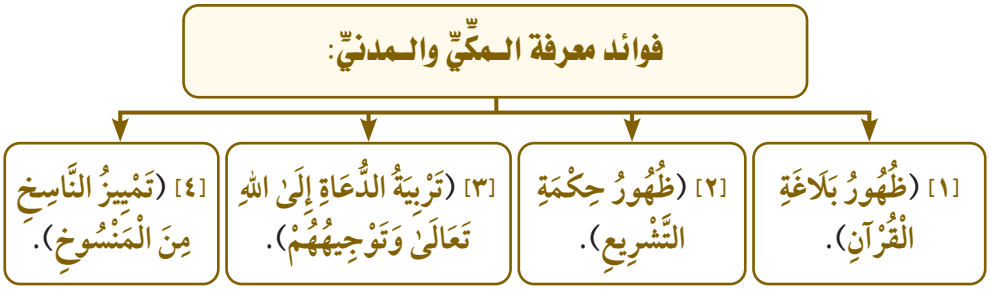

الفائدة الأولى:

أن نعرفَ أنَّ القرآنَ أبلغُ ما يكونُ في الكلام؛ لأنَّه يخاطبُ كلَّ قومٍ بما تقتضيه حالُهم.

ويتفرَّعُ عنها:

أن نسلُكَ مَسلكَ القرآنِ، فنُخاطبَ كلَّ قومٍ بما تقتضيه حالُهم؛ فلا يستوي الجاهلُ جهلًا بسيطًا والعالمُ المُعاندُ.

الفائدة الثَّانية:

أأن نعرفَ حكمة التَّشريع، حيث أتىٰ شيئًا فشيئًا لئلَّا يصعُب علىٰ النَّاس، فلم يُفرض الصَّوم والزَّكاة ونحوها في مكَّة، وإنَّما فُرضت وبُيِّنت في الآيات المدنيَّة.

ويتفرَّعُ عنها:

أن نسلُكَ مَسلكَ القرآنِ، فإذا رأينا شخصًا عنده مُنكراتٌ كثيرةٌ نبدأ في نصيحتِه بالأهمِّ فالمُهمِّ، وكذا في الأوامر نعطيه شيئًا فشيئًا حتَّىٰ يلين، ونبدأ بالمُتَّفق عليه الَّذي لا يكون فيه مُعارضةٌ؛ ليقبل منَّا.

الفائدة الثَّالثة:

تربية الدُّعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فالإنسان الَّذي آتاه الله الحكمة يعرف كيف يتصرَّف، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩].

فينبغي للدَّاعي إلىٰ الله أن يبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ، وأن يستعمل:

[١] السُّهولة في موضعها:

مثاله: جاء أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**»، فَتَرَكُوهُ حَتَّىٰ بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**». أخرجه مسلمٌ بتمامه.

وقال الأعرابيُّ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا! أخرجه البخاريُّ.

[٢] الشِّدَّة في موضعها:

مثاله: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَالَ ﷺ: «**فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرَ يُهْدَىٰ لَهُ أَمْ لَا؟**». مُتَّفقٌ عليه.

وكذلك: رَأَىٰ ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ!**». أخرجه مسلمٌ.

من المفاسد الَّتي قد تترتَّب على قيام الرَّجل من بوله قبل تمامه:

- [١] لو قام فإمَّا أن يكون كاشفًا عورته، وإمَّا أن يغطِّيها فيصيب ثوبَه البول.
- [٢] إذا قطع بوله كان ضررٌ علىٰ قنوات البول.
- [٣] لو قام فلربَّما تساقطت نقطٌ من البول فتتَّسع رقعة النَّجاسة.

الفائدة الرَّابعة:

فإذا وجدنا آيتين مُتعارضتين، ولم يمكن الجمع بينهما؛ فإنَّنا نعمل بالنَّسخ، والآيات المدنيَّة ناسخةٌ للآيات المكِّيَّة؛ لأنَّها مُتأخِّرةٌ عنها، والنَّسخ ثابتٌ في كلِّ الشَّرائع.
ومن أهمِّ شروط إثباته: معرفة المُتأخِّر من النَّصَّين، ولهذا فإنَّ عدد المواضع الَّتي يثبت فيها النَّسخ حقيقةً لا يبلغ أكثر من عشرةٍ كما ذكره ابن القيِّم في «إعلام الموقِّعين».
ولا يجوز ادِّعاء النَّسخ بمجرَّد العجز عن الجمع؛ لأنَّه من الكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

النَّسخ:

- [١] **لغةً**: الإزالة والنَّقل.
- [٢] **اصطلاحًا**: (رفْع حكم دليلٍ شرعيٍّ أو لفظِه بدليلٍ من الكتاب والسُّنَّة):
  - [أ] **خرَجَ بقولنا**: (**رفع حكم**): تغييره من إيجابٍ إلىٰ إباحةٍ، أو من إباحةٍ إلىٰ تحريم مثلًا، فخرج بذلك تخلُّف الحكم لفوات شرطٍ أو وجود مانعٍ؛ كأن يرتفع وجوب الزَّكاة لنقص النِّصاب؛ فلا يُسمَّىٰ ذلك نسخًا.
  - [ب] **خرَجَ بقولنا**: (**أو لفظه**): لفظ الدَّليل الشَّرعيِّ؛ لأنَّ النَّسخ إمَّا أن يكون للحكم دون اللَّفظ، أو بالعكس، أو لهما جميعًا؛ كما سيأتي.
  - [ج] **خرَجَ بقولنا**: (**بدليلٍ من الكتاب والسُّنَّة**): غيرهما من الأدلَّة فلا يُنسخ به.

النَّسخ جائزٌ عقلاً:

[١] لأنَّ الأمر والحكم بيد الله؛ لأنَّه الرَّبُّ المالك، فله أن يُشرِّع لعباده ما تقتضيه حكمته ورحمته، وهل يمنع العقل أن يأمر المالكُ مَملوكَه بما أراد؟

[٢] لأنَّ مُقتَضىٰ حِكمة الله ورحمته بعباده أن يشرِّع لهم ما يعلم تعالىٰ أنَّ فيه قيام مَصالح دينهم ودنياهم، والمَصالح تختلف بحسب الأحوال والأزمان، فقد يكون الحُكم في وقتٍ أو حالٍ أصلح للعباد، ويكون غيرُه في وقتٍ أو حالٍ أخرىٰ أصلح، والله عليمٌ حكيمٌ.

والنَّسخ واقعٌ شرعًا، ومن أدلَّته:

[١] قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦].

[٢] قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾[الأنفال:٦٦]، وقوله: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾[البقرة:١٨٧]؛ فإنَّ هذا نصٌّ في تغيير الحكم السَّابق.

[٣] قوله ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا**». أخرجه مسلمٌ. فهٰذا نصٌّ في نسخ النَّهي عن زيارة القبور.

من حِكم النَّسخ:

[١] مُراعاة مَصالح العباد بتشريع ما هو أنفع لهم في دينهم ودنياهم.

[٢] التَّطوُّر في التَّشريع حتَّىٰ يبلغ الكمال.

[٣] اختبار المُكلَّفين باستعدادهم لقبول التَّحوُّل من حُكمٍ إلىٰ آخر ورِضاهم بذلك.

[٤] اختبار المُكلَّفين بقيامهم: بوظيفة الشُّكر إذا كان النَّسخ إلىٰ أخفَّ، ووظيفة الصَّبر إذا كان النَّسخ إلىٰ أثقل.

شروطُ النَّسخ:

[١] تعذُّرُ الجمع بين الدَّليلين:

[١] فإن أمكن الجمع فلا نسخ لإمكان العمل بكلٍّ منهما.

[٢] العلمُ بتأخُّر النَّاسخ:

[أ] **إمَّا بالنَّصِّ**: كقوله ﷺ: «**كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». أخرجه مسلمٌ.

[ب] **أو بخبر الصَّحابيِّ**: كقول عائشة رضي الله عنها: «**كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ**». أخرجه مسلمٌ.

[ج] **أو بالتَّاريخ**: مثل: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦] الآية؛ و﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ يدلُّ على تأخُّر هذا الحكم، وكذا لو ذُكر أنَّ النَّبيَّ ﷺ حكم بشيءٍ قبل الهجرة، ثمَّ حكم بعدها بما يُخالفه، فالثَّاني ناسخٌ، ولا توجَدُ آيةٌ مكِّيَّةٌ تنسَخُ آيةً مدنِيَّةً.

[٣] اثبوتُ النَّاسخ:

[أ] اشترط الجمهور: أن يكون أقوىٰ من المَنسوخ أو مُماثلًا له؛ فلا يُنسخ المُتواتر عندهم بالآحاد وإن كان ثابتًا.

[ب] والأرجح أنَّه لا يُشترط أن يكون النَّاسخ أقوىٰ أو مُماثلًا؛ لأنَّ محلَّ النَّسخ الحُكم، ولا يُشترط في ثبوته التَّواتر.

ينقسم النَّسخ إلى أقسامٍ باعتباراتٍ:

[١] باعتبارِ المَنسوخِ.

[٢] باعتبارِ النَّاسخِ.

[٣] باعتبار خفَّةِ الحُكمِ.

النَّسخ باعتبار النَّصِّ المَنسوخ ثلاثة أقسامٍ:

[١] **ما نُسخ حكمُه وبقي لفظُه**: وهو كثيرٌ في القرآن، مثاله: آيتا المُصابرة، وهما قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾[الأنفال:٦٥]، نُسخ حكمُها بـ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ ...﴾[الأنفال:٦٦].

[١] **الحِكمةُ**: بقاء ثواب التِّلاوة، وتذكير الأمَّة بحِكمة النَّسخ.

[٢] **ما نُسخ لفظُه وبقي حكمُه**: كآية الرَّجم، فقد ثبت في «الصَّحيحين» من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَىٰ إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللهِ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ...**».

[٢] **الحِكمةُ**: اختبار الأمَّة في العمل بما لا يجدون لفظَه في القرآن، عكس اليهود الَّذين كتموا نصَّ الرَّجم في التَّوراة.

[٣] **ما نُسخ حكمُه ولفظُه**: كنسخ حكم الرَّضعات العشر السَّابق في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

النَّسخ باعتبار النَّاسخ أربعة أقسامٍ:

[١] **نسخ القرآن بالقرآن**: ومثاله آيتا المُصابرة.

[٢] **نسخ القرآن بالسُّنَّة**: ولم نجد له مثالًا سليمًا.

[٣] **نسخ السُّنَّة بالقرآن**: ومثاله: نسخ استقبال بيت المَقدس الثَّابت بالسُّنَّة باستقبال الكعبة الثَّابت بقوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[البقرة:١٤٤].

[٤] **نسخ السُّنَّة بالسُّنَّة**: ومثاله قوله ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ فِي الْأَوْعِيَةِ، فَاشْرَبُوا فِيمَا شِئْتُمْ، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا**». أخرجه مسلمٌ.

النَّسخُ باعتبارِ خِفَّةِ الحُكمِ وثِقَلِه ثلاثَةُ أقسامٍ:

[١] **إلى أخفَّ**: وهو كثيرٌ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾[الأنفال:٦٦].

[٢] **إلى أثقلَ**: ومثالُه التَّدرُّج في تحريمِ الخمرِ، حيثُ انتُقِلَ مِن الإباحةِ إلىٰ التَّحريمِ وقتَ الصَّلواتِ، ثمَّ إلىٰ التَّحريمِ الكُلِّيِّ.

[٣] **إلى مُساوٍ**: ومثالُه نسخُ استقبالِ بيتِ المَقدِسِ بالكَعبَةِ.

صُوَرٌ يمتَنِعُ فيها النَّسخ:

[١] **الأخبار**:

[أ] **خبَرٌ مَحضٌ**: يمتَنِعُ نَسخُه؛ لأنَّ نسخ أحد الخبرين يستلزم أن يكون أحدهما كذبًا، والكذب مُستحيلٌ في أخبار الله ورسوله ﷺ.

[ب] **حُكمٌ في صورَةِ الخبَرِ**: لا يمتنع نسخُه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ [الأنفال:٦٥] الآية، فإنَّ هذا خبرٌ معناه الأمر، ولذا جاء نسخه في الآية الَّتي بعدها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ [الأنفال:٦٦].

[٢] **الأحكام الَّتي تكون مَصلَحةً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ**:

[أ] **الأمرُ**: كالتَّوحيد، وأصول الإيمان، وأصول العبادات، ومَكارم الأخلاق؛ من الصِّدق، والعفاف، والكرم، والشَّجاعة، ونحو ذلك؛ فلا يمكن نسخ الأمر بها.

[ب] **النَّهيُ**: عمَّا هو قبيحٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ كالشِّرك، والكفر، ومَساوئ الأخلاق من الكذب والفجور والبُخل والجُبن ونحو ذلك.

يَمتَنِعُ النَّسخُ في الحالَين؛ إذ الشَّرائع كلُّها لتَحقيقِ المَصالح ودفع المَفاسد.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

(الحِكْمَةُ مِنْ نُزُولِ القُرْآنِ الكَرِيمِ مُفَرَّقًا:

مِنْ تَقْسِيمِ القُرْآنِ إِلَىٰ مَكِّيٍّ وَمَدَنِيٍّ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مُفَرَّقًا، وَلِنُزُولِهِ عَلَىٰ هٰذَا الوَجْهِ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

١. تَثْبِيتُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾ يَعْنِي: كَذَلِكَ نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان].

٢. أَنْ يَسْهُلَ عَلَىٰ النَّاسِ حِفْظُهُ وَفَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، حَيْثُ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء].

٣. تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِقَبُولِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَنْفِيذِهِ، حَيْثُ يَتَشَوَّقُ النَّاسُ بِلَهَفٍ وَشَوْقٍ إِلَىٰ نُزُولِ الْآيَةِ، لَا سِيَمَا عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ كَمَا فِي آيَاتِ الْإِفْكِ وَاللِّعَانِ).

حِكَمُ نزول القرآن مُفرَّقًا:

- [١] (تَثْبِيتُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ).
- [٢] (أَنْ يَسْهُلَ عَلَىٰ النَّاسِ حِفْظُهُ وَفَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ).
- [٣] (تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِقَبُولِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَنْفِيذِهِ).
- [٤] (التَّدَرُّجُ فِي التَّشْرِيعِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْكَمَالِ).

الحِكمة الأولى:

تثبيتُ قلب النَّبيِّ ﷺ، ولو نزل جملةً واحدةً لحصلت الموعظة في أوَّل نزوله، لكن قد ينسىٰ الإنسان، وقد يغفل، فإذا نزل مرَّةً ثانيةً ازداد ثباتًا.

واستدلَّ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ بآية الفرقان.

من معاني آية الفرقان:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ كما نزل في الكتب السَّابقة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك مُفرَّقًا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: لأجل أن يكون مُرتَّلًا، والتَّرتيل: أن يقرأه شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ليصدُّوا النَّاس عن سبيل الله ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان] أي: أحسن بيانًا ووضوحًا؛ لأنَّ الشُّبهة ترد علىٰ النَّبيِّ ﷺ في أوقاتٍ مُختلفةٍ، فإذا وردت الشُّبهة نزل القرآن في حلِّها.

الحِكمة الثَّانية:

إذا نزل مُفرَّقًا سهُل علىٰ النَّاس:

- [١] حفظُه.
- [٢] فهمُه.
- [٣] العملُ به.

ويتفرَّعُ عنها:

أنَّ من أراد أن يحفظ القرآن عن ظهر قلبٍ؛ فالأفضل ألَّا يقرأ جملةً واحدةً، بل يجعله مُفرَّقًا، يقرأ خمسة أسطرٍ حتَّىٰ يحفظها، ثمَّ خمسةً... فإذا أتمَّ جملةً صالحةً للإعادة أعادها كلَّها.

الحِكمة الثَّالثة:

أنَّه إذا تأخَّر نزول القرآن صار النَّاس يتشوَّقون، وينتظرونه بفارغ الصَّبر، فإذا نزل القرآن في شدَّة الاشتياق كان أدعىٰ لقبوله، والعمل به، والرَّاحة فيه، ومثَّل المُصنِّف لذلك بآية اللِّعان، والإفك، ومن الأمثلة كذلك: آية الظِّهار وغيرها.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

٤. (التَّدَرُّجُ فِي التَّشْرِيعِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْكَمَالِ، كَمَا فِي آيَاتِ الْخَمْرِ الَّذِي نَشَأَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَلِفُوهُ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُجَابَهُوا بِالْمَنْعِ مِنْهُ مَنْعًا بَاتًّا، فَنَزَلَ فِي شَأْنِهِ:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[البقرة:٢١٩]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ تَهْيِئَةٌ لِلنُّفُوسِ لِقَبُولِ تَحْرِيمِهِ، حَيْثُ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُمَارِسَ شَيْئًا إِثْمُهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ.

ثُمَّ نَزَلَ ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[النِّساء:٤٣]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ تَمْرِينٌ عَلَىٰ تَرْكِهِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَهِيَ أَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ.

ثُمَّ نَزَلَ ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾[المائدة]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَاتِ الْمَنْعُ مِنَ الْخَمْرِ مَنْعًا بَاتًّا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، بَعْدَ أَنْ هُيِّئَتِ النُّفُوسُ ثُمَّ مُرِّنَتْ عَلَىٰ الْمَنْعِ مِنْهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ).

الحِكمة الرَّابعة:

التَّدرُّج في التَّشريع، وأظهر الأمثلة علىٰ ذلك الخمر كما ذكره المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ، ومن ذلك الصَّلوات فُرضت ركعتين ثمَّ زيدت في الحضر، وكذلك الصِّيام كان الإنسان فيه مُخيَّرًا بين الصِّيام والإطعام، والصِّيامُ أفضل، ثمَّ بعد ذلك تعيَّن الصِّيام فكان سهلًا؛ لأنَّ النُّفوس تهيَّأت لإيجابه.

هل لنا أن نتدرَّج مع المَدعُوِّ:

[١] المُقصِّر في ترك المُنكَر:

نعم، لا لكي ينسلخ من الدِّين، ولا إقرارًا له علىٰ المعصية، وإنَّما تسهيلًا عليه.

مثالُه: من لم يستطع ترك التَّدخين مرَّةً واحدةً، وقال: اسمحوا لي أن أشربه في اليوم مرَّتين، نقول: لا بأس؛ لأنَّه ربَّما بالتَّدرُّج ينتفع.

[٢] المُقصِّر في فعل الواجب:

لا نتساهل فيه، بل نقول له: قم بالواجب.

مثالُه: لو قال رجلٌ: اسمحوا لي أن أصلِّي الظُّهر والعصر والمغرب فقط، وأمَّا الفجر والعشاء فيصعب عليَّ، فإنَّ النَّفس لا تطمئنُّ لذلك، بل نلزمه أن يصلِّي الجميع، مع أنَّه ورد عند أصحاب «السُّنن» بسندٍ صحيح أنَّ ثقيفًا اشترطوا علىٰ النَّبيِّ ﷺ أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، فقبل منهم ﷺ، وقال: «**سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا**».

ما هو الخمرُ؟

قال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**». أخرجه مسلمٌ.

والإسكارُ هو: (تغطيةُ العقل علىٰ وجه الطَّرب واللَّذَّة)، سُمِّي خمرًا لأنَّه يغطِّي العقل كما يغطِّي الخِمارُ وجه المرأة ورأسَها.

حكم الخمر في أوَّل الإسلام:

كان الخمرُ حلالًا في أوَّل الإسلام؛ لأنَّ الإسلام أقرَّهم عليه كما في قصَّة حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُتَّفق عليها.

وقيل إنَّ الخمر كان حلالًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[النَّحل:٦٧].

ثمَّ مرَّ تحريمُ الخمر بثلاث مَراحل كما ذكر المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

المرحلةُ الأولى من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: عن حكمهما، فلم يقل: حرامٌ، وإنَّما عرَّض فقال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالكيفيَّة ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالكمِّيَّة، فالمنافع جمع جموعٍ يدلُّ علىٰ الكثرة، والإثم واحدٌ لكنَّه في الكيفيَّة أشدُّ، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾ كيفيَّةً، ولم يقلْ: أكثر؛ لأنَّ الكثرة ترجع إلىٰ الكمِّيَّة، ﴿مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩] أفرد النَّفع ليدلَّ علىٰ أنَّ المنافع الَّتي يظنُّها الظَّانُّ كثيرةً هي في الحقيقة نفعٌ واحدٌ، والميسرُ هو: (كلُّ مُعاملةٍ يكون الإنسان فيها إمَّا غانمًا وإمَّا غارمًا)، سُمِّيت كذلك ليُسر الرِّبح فيها.

وهذه الآية تهيئةٌ للتَّحريم؛ لأنَّ العاقل لا يُقدم علىٰ شيءٍ إثمُه أكبر من نفعه.

المرحلةُ الثَّانية من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّساء:٤٣]، وفي هذا تحريمُ شرب الخمر في أوقات الصَّلوات الخمس، تمرينًا للمؤمنين علىٰ ترك الخمر في بعض الأوقات.

وفي قولِه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ عدَّة فوائد منها:

[١] أنَّ السَّكران لا يعلم ما يقول، فلو أنَّ سكرانًا أعتق جميع عبيده فإنَّهم لا يعتقون؛ لأنَّه لا يعلم ما يقول، وكذلك لو طلَّق نساءه فإنَّهنَّ لا يطلقن، ويُقاسُ عليه الغضبان الَّذي أطبق عليه الغضب.

[٢] وجوبُ الخشوع في الصَّلاة، وهو: (إحضار القلب)؛ لأنَّه لا يمكن أن يعلم ما يقول إلَّا إذا كان قلبُه حاضرًا، والرَّاجح أنَّ الصَّلاة لا تبطل مع عدم الخشوع؛ لقوله ﷺ: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَىٰ النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ**». مُتَّفَقٌ عليه. ولم يُبطل صلاتَه.

المرحلةُ الثَّالثة من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ للتَّنبيه، وخصَّ المؤمنين لأنَّ إيمانهم يقتضي الامتثال والطَّاعة، ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ جمع نَصَبٍ وهي: الأوثان ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ وهي ما يُستَقسَمُ به، ﴿رِجْسٌ﴾ أي: نجسةٌ نجاسةً معنويَّةً ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، قدَّم العلَّة قبل بيان الحكم؛ ليجعل النَّفس تُقبِلُ علىٰ الحكم عن اقتناعٍ وعقل، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ هذا هو الحكم، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ للتَّعليل، ﴿تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ هذه هي ثمرة امتثال الحكم، والفلاحُ هو: (حصولُ المَطلوب، والنَّجاةُ من المَرهوب).

الأنصابُ والأزلامُ والخمر والـميسر:

[١] من حيثُ أصلُ الحكم:
تشتركُ في كونِها تُنافي كمال التَّوحيدِ.

[٢] من حيثُ الحكمُ التَّفصيليُّ:
الأنصابُ أشدُّها تحريمًا؛ لأنَّها شركٌ أكبر، ثمَّ الأزلام دونها في التَّحريم، ثمَّ الخمر والميسر دونهما.

النَّجاسة (الرِّجس) نوعان:

[١] حسِّيَّةٌ:
ومن ذلك أنَّه ﷺ أمر مُناديًا يُنادي: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا رِجْسٌ**». مُتَّفقٌ عليه.

[٢] معنويَّةٌ:
ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾[الحج].
وكذلك في آية المائدة نجاسةٌ حسِّيَّةٌ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أطلق علىٰ الأربعة أنَّها رجسٌ، وليس كلُّها يصحُّ أن يكون نجاسةً معنويَّةً، كما أنَّه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فهي نجاسةٌ عمليَّةٌ.

هل الخمر نجسةٌ نجاسةً حسِّيَّةً؟

الخمر طاهرةٌ طهارةً حسِّيَّةً، ونجسةٌ نجاسةً معنويَّةً، وليست نجسةً نجاسةً حسِّيَّةً، ولا يلزم من كونها حرامًا كونُها نجسةً، ولا يلزم من كونه ﷺ وصفها بأنَّها أمُّ الخبائث أن تكون نجسةً، بل المقصود الخبائث المعنويَّة، وممَّا يدلُّ علىٰ عدم نجاسة الخمر أنَّ الأصل الطَّهارة، ولمَّا لم يقم دليلٌ علىٰ كونها نجسةً نجاسةً حسِّيَّةً بقينا علىٰ الأصل، كما أنَّ لخمر لمَّا حُرِّمت أرقاها الصَّحابة من أوانيهم، ولم يُؤمَروا بغسل الأواني.

ما هي عقوبةُ شاربِ الخمرِ؟

عقوبة شارب الخمر الرَّدع والتَّعزير بما لا يقلُّ عن أربعين جلدةً، وليست حدًّا، وقد كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ يُضرب نحوًا من أربعين جلدةً، ثمَّ تقرَّرت الأربعون في عهد أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثمَّ لمَّا كثر شرب الخمر من حديثي العهد بالإسلام في عهد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشار عليه عبد الرَّحمن بن عوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يجعلها ثمانين جلدةً، ووافقه الصَّحابة علىٰ ذلك.

تتمَّة آيات المائدة:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، فكلُّ عمل يوجب العداوة والبَغضاء فهو من وحي الشَّيطان، ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: بسببهما، ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ باللِّسان، وبالجَنان وهو القلب، وهذا هو البلاءُ! ومن شرب الخمر غفل عن ذكر الله، ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والصَّلاةُ أفضل ذكر الله، نصَّ علىٰ الخاصِّ بعد العامِّ لشرفه، وصدُّ الشَّيطان عنها يكون بالإشغال عنها، أو بالوسوسة فيها، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ استفهامٌ بمعنىٰ الأمر، أي: فانتهوا، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ولا فرق بينهما، لكن كلَّما كان الأمر أهمَّ احتيج إلىٰ التَّنصيص علىٰ وجوب طاعة النَّبيِّ ﷺ، ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ مُخالفتهما، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ ولم تحذروا مُخالفتهما، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا﴾ للحصر، ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ البيِّن في نفسه، والمُبيِّن لمن يسمعه، فالرَّسول لا ينفعهم، وليس مسؤولًا عنهم، فهو عليه البلاغ فقط، فإذا بلَّغ برئت ذمَّته، وكذا ورثتُه العلماء ليس عليهم إلَّا البلاغ.

مسألةٌ مهمَّةٌ:

ما كان فيه نسبةٌ قليلةٌ من الخمر (المُسكِر) لا تُؤثِّر فيه، مثل جزءٍ من مائة جزءٍ، حيث إنَّ من شربه لم يسكر به فهل يحرُم؟

الجواب: لا يحرم، ولا يصحُّ أن يُستدلَّ لتحريمه بما أخرجه أصحاب «السُّنن»: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**»؛ لأنَّ مُراده ﷺ الَّذي لا يحتمل سواه أنَّ: الشَّيء الَّذي إذا شربت منه كثيرًا سكرت فالقليل منه حرامٌ، وهذا الَّذي خالطته نسبةٌ قليلةٌ من الخمر لا يُسكِر الكثيرُ منه، فهو ليس بحرام.

ومن ذلك: بعض الأدوية الَّتي فيها القليل من المُسكِر، وكذا بعض الأطياب، بشرط أن يكون المُسكِر فيها قليلًا جدًّا لا أثر له، ويجوز التَّطيُّب بها بلا إشكالٍ.

وأمَّا إذا كان المُسكِر فيها كثيرًا فالأحوط أن نجتنب التَّطيُّبَ، وكذلك بيعَها، وشراءَها، وغيرَ ذلك، فإذا دعت الحاجة لاستعمال المُسكِر في غير الشُّرب كتعقيم الجروح ونحوِها فلا بأس.

من مسائل السَّكران:

[١] الطَّلاق:

لا يقع طلاقُه؛ لأنَّه لا يعلم ما يقولُ، وعند أحمد في «المُسند»: «**لَا طَلَاقَ وَلَا عِتَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»، والسَّكران مُغلقٌ عليه.

[٢] القتل العمد:

لمَّا كان القتل العمد يتعلَّق بحقوق الآدميِّين قلنا: يُقتل قصاصًا، وقيل: لا يُقتل إلَّا إذا شرب الخمر ليقتُل؛ لأنَّ الحيل لا تُبطل الأحكام الشَّرعيَّة.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

(تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ:

تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ: تِلَاوَتُهُ تَالِيًا بَعْضُهُ بَعْضًا، حَسَبَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، وَمَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ كَلِمَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْآيَةِ، وَهٰذَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَلَا نَعْلَمُ مُخَالِفًا فِي وُجُوبِهِ، وَتَحْرِيمِ مُخَالَفَتِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ: (للهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بَدَلًا مِنْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

النَّوْعُ الثَّانِي: تَرْتِيبُ الْآيَاتِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ آيَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ السُّورَةِ، وَهٰذَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ، وَتَحْرُمُ مُخَالَفَتُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) بَدَلًا مِنْ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة].

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وَقَدْ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى، يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وَهٰذِهِ قَبْلَهَا فِي التِّلَاوَةِ، قَالَ: فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّورُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ، دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ، فَيَقُولُ: «ضَعُوا هٰذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا».

النَّوْعُ الثَّالِثُ: تَرْتِيبُ السُّوَرِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ سُورَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْمُصْحَفِ، وَهٰذَا ثَابِتٌ بِالِاجْتِهَادِ، فَلَا يَكُونُ وَاجِبًا، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ الْبَقَرَةَ، ثُمَّ النِّسَاءَ، ثُمَّ آلَ عِمْرَانَ، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ تَعْلِيقًا عَنِ الْأَحْنَفِ: أَنَّهُ قَرَأَ فِي الْأُولَى بِالْكَهْفِ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِيُوسُفَ، أَوْ يُونُسَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصُّبْحَ بِهِمَا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: تَجُوزُ قِرَاءَةُ هٰذِهِ قَبْلَ هٰذِهِ، وَكَذَا فِي الْكِتَابَةِ، وَلِهٰذَا

تَنَوَّعَتْ مَصَاحِفُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي كِتَابَتِهَا، لَكِنْ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَىٰ الْمُصْحَفِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَارَ هٰذَا مِمَّا سَنَّهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَقَدْ دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُمْ سُنَّةً يَجِبُ اتِّبَاعُهَا).

التَّرتيبُ أربعةُ أنواعٍ:

- [١] ترتيبُ الحروف في الكلمة، وهذا واجبٌ بإجماعٍ.
- [٢] (**تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ**) بعضِها مع بعضٍ، وهو كذلك واجبٌ بإجماعٍ.
- [٣] (**تَرْتِيبُ الْآيَاتِ**) بعضِها مع بعضٍ، وهو واجبٌ علىٰ القول الرَّاجح.
- [٤] (**تَرْتِيبُ السُّوَرِ**) بعضِها مع بعضٍ، وهو غير واجبٍ؛ لأنَّ التَّرتيب ثبت بالاجتهاد.

لم يذكر المُصنِّف في المتن النَّوع الأوَّل؛ لأنَّه لا أحد يتجرَّأ عليه، ولا شكَّ في تحريمه، فإنَّه غير جائزٍ بالنَّصِّ والإجماع؛ لأنَّه من تحريف الكلم عن مواضعه.

النَّوع الثَّاني: ترتيبُ الكلمات

ترتيبُ الكلمات واجبٌ باتِّفاقٍ، فلا يجوز أن يقرأ (للهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بدل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة].

هل تبطل الصَّلاة بتقديم كلمةٍ عن محلِّها:

- [١] **في العمد**: تبطُل.
- [٢] **في السَّهو**: لا تبطُل.

النَّوع الثَّالث: ترتيبُ الآيات

اختلف العلماء هل ترتيب الآيات توقيفيٌّ أو اجتهاديٌّ، والصَّحيح أنَّه قد دلَّ النَّصُّ علىٰ أنَّ ترتيب الآيات توقيفيٌّ، من ذلك ما أخرجه أحمد في «المُسند»: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ...**»، وحكىٰ غير واحدٍ الإجماع عليه. وعلىٰ هذا فالرَّاجح أنَّ ترتيب الآيات واجبٌ تحرُم مُخالفتُه، فلا يجوز أن يقرأ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بدل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة]، والمُخالفة في هذا أخفُّ من المُخالفة في ترتيب الكلمات.

النَّوع الرَّابع: ترتيبُ السُّور منه:

[١] الاجتهاديُّ:

وهو الأكثر، ففي «صحيح مسلم» من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه صلَّىٰ مع النَّبيِّ ﷺ ليلةً فقرأ في ركعةٍ البقرة ثمَّ النِّساء ثمَّ آل عمران.

[٢] التَّوقيفيُّ:

ومن ذلك قراءته ﷺ سبِّح والغاشية في الجمعة كما في «صحيح مسلمٍ» من حديث النُّعمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ولهذا فإنَّ ترتيب السُّور غير واجبٍ.

لماذا قدَّم الصَّحابة آل عمران على النِّساء في ترتيب المصحف؟

[١] لأنَّ النَّبيَّ ﷺ جمع بين البقرة وآل عمران في الفضل، قال ﷺ: «اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرجه مسلمٌ.

[٢] لعلَّ التَّرتيب اختلف بعد العرضة الأخيرة الَّتي عرضها النَّبيُّ ﷺ علىٰ جبريل، بعد أن سمعه حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فيزول الإشكال حينئذٍ.

حكم مُخالفة ترتيب السُّور:

[١] أمام عوامِّ النَّاس:
لا ينبغي؛ لما فيه من التَّشويش وإثارة الفتنة.

[٢] في مجال التَّعليم:
لا بأس به، وجرت العادة بتعليم الصِّبيان بدءًا من سورة النَّاس.

ما علاقة القراءات المُتواترة بمصحف عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمع النَّاس علىٰ مُصحفٍ واحدٍ، بعثه إلىٰ كلِّ أُفقٍ من الآفاق الإسلاميَّة، وكلُّ القراءات المُتواترة لا تخرج عن هذا المُصحف.

سادسًا: المَكِّيُّ والمَدَنِيُّ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (لِكِتَابَةِ الْقُرْآنِ وَجَمْعِهِ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ:

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى: فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ الِاعْتِمَادُ فِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ عَلَى الْحِفْظِ أَكْثَرَ مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَى الْكِتَابَةِ؛ لِقُوَّةِ الذَّاكِرَةِ، وَسُرْعَةِ الْحِفْظِ، وَقِلَّةِ الْكَاتِبِينَ، وَوَسَائِلِ الْكِتَابَةِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُجْمَعْ فِي مُصْحَفٍ، بَلْ كَانَ مَنْ سَمِعَ آيَةً حَفِظَهَا، أَوْ كَتَبَهَا فِيمَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ عُسُبِ النَّخْلِ، وَرِقَاعِ الْجُلُودِ، وَلِخَافِ الْحِجَارَةِ، وَكِسَرِ الْأَكْتَافِ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ عَدَدًا كَبِيرًا. فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ سَبْعِينَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فَعَرَضَ لَهُمْ حَيَّانِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ -رَعْلٌ وَذَكْوَانُ- عِنْدَ بِئْرٍ مَعُونَةٍ، فَقَتَلُوهُمْ، وَفِي الصَّحَابَةِ غَيْرُهُمْ كَثِيرٌ؛ كَالْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ).

فائدةٌ:

أوَّلُ مَن حفِظَ القرآنَ جِبريلُ عليه السلام، ثمَّ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، ثمَّ الصَّحابةُ رضي الله عنهم، وجمَعَه مِنهم في حياةِ النَّبيِّ ﷺ أربعةٌ: «**أُبَيٌّ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ**». مُتَّفقٌ عليه.

مراحلُ كتابة القرآن ثلاثةٌ:

- [١] **في عهد النَّبيِّ ﷺ:** كان الاعتماد علىٰ الحفظ أكثر من الكتابة، وكتب الصَّحابة أجزاءً مُتفرِّقةً من القرآن.
- [٢] **في عهد أبي بكر** رضي الله عنه: بمشورة عمر أمر أبو بكرٍ زيد بن ثابتٍ رضي الله عنهما أن يجمع القرآن في مُصحفٍ واحدٍ لئلَّا يضيع، ولم يحمل النَّاس عليه.
- [٣] **في عهد عثمان** رضي الله عنه: خشي أن يفتتن النَّاس باختلاف القراءات، فأمر زيد بن ثابتٍ رضي الله عنه أن يجمع مُصحفًا واحدًا وحمل النَّاس عليه، وحرَّق ما سواه.

من أسباب الاعتماد على الحفظ في العهد النَّبويِّ:

[١] **قوّة الذَّاكرة:** كان الواحد من الصَّحابة لا يكاد ينسىٰ شيئًا حفظه، وكلَّما أراد شيئًا استحضره بسرعةٍ.

[٢] **سرعة الحفظ:** فتجد الواحد منهم يسمع الحديث الَّذي يبلغ الصَّفحة والصَّفحتين فيحفظه من مرَّةٍ واحدةٍ.

[٣] **قلَّة الكتبة:** قال ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ**». مُتَّفقٌ عليه. ولمَّا جاء الإسلام صاروا علماء العالم كلِّه!

[٤] **قلَّة وسائل الكتابة:** فلم يكن يوجد عندهم ورقٌ، ولا حبرٌ، ولا أقلامٌ...

ممَّا كانوا يكتبون عليه:

[١] **عُسُبُ النَّخل:** والعسيب هو الجريد إذا نُحِّي عنه خوصُه، أي: منبت الورق.

[٢] **رِقاع الْجُلود:** يكتبون علىٰ رُقعة الجلد المَدبوغة.

[٣] **لِخافُ الْحِجارة:** وهي حجارةٌ مَلساء تشبه العظم.

[٤] **كِسَرُ الأكتاف:** وهي أكتاف البعير، والشَّاة، والبقر وغيرها من الحيوان.

إشكالٌ والرَّدُّ عليه:

قال أنسٌ رضي الله عنه: «**مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ**». مُتَّفقٌ عليه. فهل معنىٰ هذا أنَّ القرآن منقولٌ بطريق الآحاد؟

[١] خبر الآحاد مقبولٌ؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**». أخرجه أحمد.

[٢] القرآن خبرٌ دينيٌّ، وجاءت السُّنَّة مُطَّردةً بقبول خبر الواحد فيها؛ كما في رؤية هلال رمضان.

[٣] حصل الإجماع بعد ذلك من الصَّحابة علىٰ هذا القرآن الَّذي بين أيدينا وقبولِه.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَسَبَبُهُ أَنَّهُ قُتِلَ فِي وَقْعَةِ الْيَمَامَةِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ، مِنْهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، أَحَدُ مَنْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَخْذِ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ.

فَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِجَمْعِهِ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَشَارَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِجَمْعِ الْقُرْآنِ بَعْدَ وَقْعَةِ الْيَمَامَةِ، فَتَوَقَّفَ تَوَرُّعًا، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَأَتَاهُ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لَا نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، قَالَ: فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُطَوَّلًا.

وَقَدْ وَافَقَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى ذَلِكَ، وَعَدُّوهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، حَتَّى قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَعْظَمُ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَجْرًا أَبُو بَكْرٍ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ كِتَابَ اللهِ).

فائدةٌ: يُستَفادُ من كلامِ المُؤلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ أوَّل من أشارَ بجَمعِ القرآنِ هو عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لماذا توقَّف أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أوَّل الأمر؟

تورُّعًا منه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأنَّ هذا لم يكن على عهد النَّبيِّ ﷺ، فخاف أن يكون إذا جمعه تصرَّف في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بما لم يفعله النَّبيُّ ﷺ.

لماذا جُعلت المصاحف عند حفصة بعد موت عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؟

لأنَّها أمُّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وكانت ذات ديانةٍ، وأمانةٍ، وعقلٍ، وحسن تصرُّفٍ.
ولهذا لمَّا وقف عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أرضه الَّتي في خيبر جعل النَّاظر عليه حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. أخرجه أبو داود. وقدَّمها على ابنه عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فائدةٌ في الرَّدِّ على الرَّافضة:

أثنىٰ عليٌّ علىٰ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: (أَعْظَمُ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَجْرًا أَبُو بَكْرٍ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ كِتَابَ اللهِ)، وفي هذا وخزةٌ وطعنةٌ في صدور الرَّافضة الَّذين يُبغضون أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وربَّما كان بعضُهم يلعنُه -والعياذُ بالله-، فها هو عليُّ بن أبي طالبٍ -الَّذي يرون أنَّه إمام الأئمَّة- يقول فيه هذا القول!

مسائلُ أخرى خالف فيها الرَّافضة عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

[١] **المُتعة**: فقد روىٰ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحريمها كما في «الصَّحيحين».

[٢] **المسح على الخفَّين**: فقد رواه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ كما في «سنن أبي داود».

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: فِي عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ، وَسَبَبُهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْقِرَاءَةِ، بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَخِيفَتِ الْفِتْنَةُ، فَأَمَرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ تُجْمَعَ هٰذِهِ الصُّحُفُ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ؛ لِئَلَّا يَخْتَلِفَ النَّاسُ فَيَتَنَازَعُوا فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ وَيَتَفَرَّقُوا.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَىٰ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ فَتْحِ أَرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِيجَانَ، وَقَدْ أَفْزَعَهُ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَدْرِكْ هٰذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَىٰ حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخْهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدَّهَا إِلَيْكِ، فَفَعَلَتْ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمُصْحَفِ، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ أَنْصَارِيًّا، وَالثَّلَاثَةُ قُرَشِيِّينَ.

وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الثَّلَاثَةِ الْقُرَشِيِّينَ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ

فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَىٰ حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ، وَقَدْ فَعَلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هٰذَا بَعْدَ أَنِ اسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ لِمَا رَوَىٰ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَاللهِ مَا فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ فِي الْمَصَاحِفِ إِلَّا عَنْ مَلَإٍ مِنَّا، قَالَ: أَرَىٰ أَنْ نَجْمَعَ النَّاسَ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، فَلَا تَكُونَ فُرْقَةٌ وَلَا اخْتِلَافٌ، قُلْنَا: فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ.

وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ مُتَوَافِرِينَ حِينَ حَرَّقَ عُثْمَانُ الْمَصَاحِفَ، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ، أَوْ قَالَ: لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَهُوَ مِنْ حَسَنَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّتِي وَافَقَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ مُكَمِّلَةً لِجَمْعِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ جَمْعِهِ وَجَمْعِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ جَمْعِهِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَقْيِيدُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ مَجْمُوعًا فِي مُصْحَفٍ؛ حَتَّىٰ لَا يَضِيعَ مِنْهُ شَيْءٌ، دُونَ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ الِاخْتِلَافِ فِي قِرَاءَاتِهِمْ مَا يَدْعُو إِلَىٰ حَمْلِهِمْ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ.

وَأَمَّا الْغَرَضُ مِنْ جَمْعِهِ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَهُوَ تَقْيِيدُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ مَجْمُوعًا فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، يُحمَلُ النَّاسُ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ؛ لِظُهُورِ الْأَثَرِ الْمُخِيفِ، اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ نَتَائِجُ هٰذَا الْجَمْعِ، حَيْثُ حَصَلَتْ بِهِ الْمَصْلَحَةُ الْعُظْمَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ مِنِ: اجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ، وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ، وَحُلُولِ الْأُلْفَةِ، وَانْدَفَعَتْ بِهِ مَفْسَدَةٌ كُبْرَىٰ مِنْ: تَفَرُّقِ الْأُمَّةِ، وَاخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ، وَفُشُوِّ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ.

وَقَدْ بَقِيَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ الْآنَ، مُتَّفَقًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، مُتَوَاتِرًا بَيْنَهُمْ، يَتَلَقَّاهُ الصَّغِيرُ عَنِ الْكَبِيرِ، لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ، وَلَمْ تَطْمِسْهُ أَهْوَاءُ الزَّائِغِينَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ).

سببُ جَمعِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ على مُصحفٍ واحدٍ:

قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث المُتَّفق عليه: «**إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَؤُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ**»، فكان كلٌّ من الصَّحابة يقرأ بما سمع من النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ في عهد عثمان خاف المسلمون من هذا الاختلاف أن يؤدِّي إلىٰ اختلاف القلوب والآراء، وأن يؤدِّي إلىٰ القتال، فرأوا أن يُجمع علىٰ حرفٍ واحدٍ، فجمعوه علىٰ حرف قريشٍ؛ لأنَّه نزل بلغتهم، وأمَّا القراءاتُ المُتواترةُ فلاختلاف القرَّاء حسب الرِّواية، وحسب الكتابة.

قاعدةٌ عامَّةٌ: (**تغييرُ ما كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ من وسائل حفظ القرآن لا بأس به**).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مجموع الفتاوى» (٣٩١/١٣):
وَلَا نِزَاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْحُرُوفَ السَّبْعَةَ الَّتِي أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا:

(١) لَا تَتَضَمَّنُ تَنَاقُضَ الْمَعْنَىٰ وَتَضَادَّهُ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ مَعْنَاهَا مُتَّفِقًا أَوْ مُتَقَارِبًا كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ أَقْبِلْ وَهَلُمَّ وَتَعَالَ.

(٢) وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَىٰ أَحَدِهِمَا لَيْسَ هُوَ مَعْنَىٰ الْآخَرِ؛ لَكِنْ كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ حَقٌّ، وَهَذَا اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ وَتَغَايُرٍ لَا اخْتِلَافُ تَضَادٍّ وَتَنَاقُضٍ، وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا حَدِيثِ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، إِنْ قُلْت: غَفُورًا رَحِيمًا، أَوْ قُلْت: عَزِيزًا حَكِيمًا؛ فَاللهُ كَذَلِكَ، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِآيَةِ عَذَابٍ أَوْ آيَةَ عَذَابٍ بِآيَةِ رَحْمَةٍ**».

(٣) وَمِنْ الْقِرَاءَاتِ مَا يَكُونُ الْمَعْنَىٰ فِيهَا مُتَّفِقًا مِنْ وَجْهٍ مُتَبَايِنًا مِنْ وَجْهٍ؛ كَقَوْلِهِ: (يَخْدَعُونَ) وَ(يُخَادِعُونَ)، وَ(يَكْذِبُونَ) وَ(يُكَذِّبُونَ)، وَ(لَمَسْتُمْ) وَ(لَامَسْتُمْ)، و(حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ) و(وَيَطَّهَّرْنَ)، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ الَّتِي يَتَغَايَرُ فِيهَا الْمَعْنَىٰ كُلُّهَا حَقٌّ.

(٤) وَكُلُّ قِرَاءَةٍ مِنْهَا مَعَ الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ بِمَنْزِلَةِ الْآيَةِ مَعَ الْآيَةِ، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا كُلِّهَا، وَاتِّبَاعُ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ الْمَعْنَىٰ عِلْمًا وَعَمَلًا، لَا يَجُوزُ تَرْكُ مُوجِبِ إِحْدَاهُمَا لِأَجْلِ الْأُخْرَىٰ ظَنًّا أَنَّ ذَلِكَ تَعَارُضٌ؛ بَلْ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ**».

(٥) وَأَمَّا مَا اتَّحَدَ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ وَإِنَّمَا يَتَنَوَّعُ صِفَةُ النُّطْقِ بِهِ؛ كَالْهَمَزَاتِ، وَالْمَدَّاتِ، وَالْإِمَالَاتِ، وَنَقْلِ الْحَرَكَاتِ، وَالْإِظْهَارِ، وَالْإِدْغَامِ، وَالِاخْتِلَاسِ، وَتَرْقِيقِ اللَّامَاتِ وَالرَّاءَاتِ أَوْ تَغْلِيظِهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُسَمَّىٰ الْقِرَاءَاتِ الْأُصُولَ = فَهَذَا أَظْهَرُ وَأَبْيَنُ فِي أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا

تَضَادٌّ مِمَّا تَنَوَّعَ فِيهِ اللَّفْظُ أَوْ الْمَعْنَىٰ؛ إِذْ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْمُتَنَوِّعَةُ فِي أَدَاءِ اللَّفْظِ لَا تُخْرِجُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَفْظًا وَاحِدًا، وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ فِيمَا اخْتَلَفَ لَفْظُهُ وَاتَّحَدَ مَعْنَاهُ أَوْ اخْتَلَفَ مَعْنَاهُ مِنَ الْمُتَرَادِفِ وَنَحْوِهِ، وَلِهَذَا كَانَ دُخُولُ هَذَا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ الَّتِي أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا مِنْ أَوْلَىٰ مَا يَتَنَوَّعُ فِيهِ اللَّفْظُ أَوْ الْمَعْنَىٰ، وَإِنْ وَافَقَ رَسْمَ الْمُصْحَفِ، وَهُوَ مَا يَخْتَلِفُ فِيهِ النَّقْطُ أَوْ الشَّكْلُ.

لماذا يوجدُ في القرآنِ آياتٌ كثيرةٌ ليست بلغة قريشٍ؟

[١] لأنَّ الحكم أغلبيٌّ.

[٢] لأنَّ هذه الكلمات أصلها ليست عربيَّةً، ولكنَّ قريشًا تكلَّموا بها.

أمثلةٌ أخرى عن الوسائل الَّتي استجدَّت بعد النَّبيِّ ﷺ:

[١] **الخطُّ في المسجد**: جُعلت الخُطوط في المساجد لتسوية الصُّفوف، وجُعلت في المسجد الحرام ليُستدلَّ بها علىٰ القبلة، وأنكرها بعض النَّاس، وإنكارُهم بعيدٌ عن الفقه، فهي وسائلُ لا غاياتٌ؛ لأنَّنا لا نتعبَّد الله عَزَّوَجَلَّ بها، ولكنَّنا اتَّخذناها وسيلةً، كما جمع الصَّحابة القرآن علىٰ حرفٍ واحدٍ وقد كان علىٰ عهده ﷺ علىٰ سبعةٍ.

[٢] **مُكبِّر الصَّوت**: رفع الصَّوت مقصودٌ؛ كما في غزوة حنينٍ لمَّا فرَّ النَّاس أمر النَّبيُّ ﷺ العبَّاس -وكان جهوريَّ الصَّوت- أن ينادي: «**أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟**». أخرجه مسلمٌ. والحاصل أنَّ المُكبِّر وسيلةٌ لتحصيل المقصود المَشروع.

قاعدةٌ:

(الوسيلةُ المُباحة إذا أدَّت إلىٰ الغرض المَقصود شرعًا؛ فالأصل أنَّها مَطلوبةٌ).

شُبهةٌ والرَّدُّ عليها:

استدلَّ بعضُ النَّاس علىٰ تحسين البدعة بفعل أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جمع القرآن؛ لأنَّه فعل شيئًا لم يفعله النَّبيُّ ﷺ.

ويُجابُ: بأنَّ هناك فرقًا بين ما كان مَشروعًا وما لم يكن مَشروعًا، فما كان وسيلةً لمَشروعٍ فهو مَشروعٌ، أمَّا أن يشرع الإنسان شيئًا ابتداءً فهذا بدعةٌ لا يجوز.

ويُشترطُ في الوسيلة أن تكون مُباحةً.

فإذا قال الدَّاعي: عندي أناسٌ لا يتَّجهون إليَّ إلَّا إذا ضربتُ الموسيقىٰ؛ قيل له: هذه وسيلةٌ مُحرَّمةٌ، فلا يجوز استعمالُها.

هل لأهل الـمَغرب أن يقرؤوا بقراءتهم عند أهل الـمَشرق، والعكس؟

مَعلومٌ أنَّ أهل المَشرق لهم قراءةٌ غلبت عليهم، وأهل المَغرب لهم قراءةٌ غلبت عليهم، وكلُّ ذلك علىٰ حرف قريشٍ، وقد يحصُل فتنةٌ للنَّاس عند قراءة أحدهما بقراءته عند الآخر، ولهذا فإنَّنا نمنع ذلك، ونقول: أنت يا صاحب المَغرب؛ لا تقرأ بقراءتك إلَّا في مكانك، وكذلك صاحبُ المَشرق.

الاِخْتِبَارُ الأَوَّل

[١] اختر الإجابة الصَّحيحة:

۞ مِنْ أَجَلِّ فُنُونِ الْعِلْمِ؛ بَلْ هُوَ أَجَلُّهَا وَأَشْرَفُهَا، عِلْمُ: ○ الحديثِ. ○ التَّفسيرِ. ○ الفقهِ.

۞ السَّبع المَثاني هي: ○ أوَّلُ سبعِ سُورٍ مِن القُرآنِ. ○ الفاتِحة.

۞ أسباب النزول تتوقف على: ○ النَّقلِ والسَّماع. ○ الاجتهادِ. ○ معرفة المكِّيِّ والمدنيِّ.

۞ غايةُ أصول التَّفسيرِ هي: ○ استنباطُ الأحكام الفقهيَّة. ○ معرفةُ علوم القرآن. ○ جعلُ قواعد لفهم القرآن.

۞ جاء بيانُ تفسير الصَّلاة في: ○ القرآنِ. ○ أقوالِ الصَّحابة. ○ السُّنَّة.

۞ التَّفسيرُ هو: ○ بيانُ القصص القُرآنيِّ. ○ معرفةُ أحكام القرآن. ○ معرفةُ مَعاني القرآن.

۞ التَّأويل والتَّفسير معناهما: ○ متَّفقٌ. ○ متضادٌّ. ○ متقاربٌ.

۞ القائلُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ فسَّر القرآن كلَّه: ○ ابنُ الجوزيِّ. ○ ابن تيميَّة. ○ الرَّازيُّ.

۞ أصولُ التَّفسير هي: ○ علومُ القرآن. ○ الأُسسُ الَّتي يقوم عليها التَّفسير. ○ بيانُ معاني القرآن.

۞ قواعدُ التَّفسير: ○ أخصُّ من قواعد التَّرجيح. ○ أعمُّ من قواعد التَّرجيح. ○ ليس بينهما فرقٌ.

۞ الأخصُّ من قواعد التَّفسير يُسمَّى: ○ أصولَ التَّفسير. ○ قواعدَ التَّرجيح. ○ أصولَ الفقه.

۞ الرَّاجحُ أنَّ عدد آيات الأحكام: ○ ٢٠٠. ○ ٥٠٠. ○ ١٥٠. ○ ليست مَحصورةً في عددٍ مُعيَّنٍ.

۞ القواعدُ والأُسس الَّتي يقوم عليها التَّفسيرُ تُسمَّى: ○ أصول التَّفسير. ○ علومَ القرآنِ. ○ مناهجَ التَّفسير. ○ جميعَ ما ذُكر.

۞ التَّفسيرُ يأتي في الغالب بمعنىٰ: ○ التَّأويلِ. ○ صرفِ اللَّفظ عن ظاهره. ○ المجازِ. ○ جميعِ ما ذُكر.

۞ مدرسةُ المدينة قامت علىٰ: ○ أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ○ عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ○ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ○ أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ مَن هو الصَّحابيُّ الَّذي قال فيه النَّبيُّ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»؟ ○ ابن عبَّاسٍ. ○ أبيُّ بن كعبٍ. ○ عثمان بن عفَّان. ○ ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

۞ مَعنىٰ «يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»: ○ يُصلِّي به. ○ يقرأُه. ○ يتلوه. ○ يفعل ما أُمِر به.

۞ مِن مَزايا هذا النَّوع مِن التَّفسير أنَّه يغلب عليه الاختصارُ في القول مع الوفاء بالمَعنىٰ؟ ○ تفسيرُ أتباع التَّابعين. ○ التَّفسيرُ الفقهيُّ. ○ تفسيرُ المُتأخِّرين. ○ التَّفسيرُ النَّبويُّ

۞ تدوينُ التَّفسيرِ وحذف أسانيد الأحاديث والآثار كان في المرحلة: ○ الأولىٰ. ○ الثَّانيةِ. ○ الثَّالثةِ.

۞ ذِكرُ بعض أفراد العامِّ علىٰ سبيل المثال من أسباب اختلاف؟ ○ التَّنوُّع. ○ التَّضادِّ. ○ كلاهما.

۞ (صرفُ اللَّفظ عن الاحتمال الرَّاجح إلىٰ الاحتمال المَرجوح لدليلٍ يقترنُ) يُسمَّىٰ: ○ التَّفسيرَ. ○ التَّأويلَ. ○ المجازَ. ○ الجميع.

۞ أقوالُهم في التَّفسير حجَّةٌ إذا اتَّفقوا، من هم؟ ○ الصَّحابةُ. ○ التَّابعون. ○ كلاهما. ○ لا شيء ممَّا ذُكِر.

۞ روايةُ القليل من الإسرائيليَّات تميَّز به منهجُ؟ ○ التَّابعينَ. ○ الصَّحابةِ. ○ المدرسةِ العقليَّةِ. ○ لا شيء ممَّا ذُكِر.

۞ اعتنىٰ السُّيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» بالتَّفسير: ○ اللُّغويِّ. ○ الفقهيِّ. ○ بالمأثورِ.

۞ أسبابُ النُّزول المرويَّة عن الصَّحابيِّ لها حكم المَرفوع دائمًا: ○ صح. ○ خطأٌ.

۞ قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْآيَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ نُبُوَّةِ

مُحَمَّدٍ ﷺ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَهِيَ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ آيَاتِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُسَمِّيهَا مَنْ يُسَمِّيهَا مِنَ النُّظَّارِ (○ مُعْجِزَاتٍ، ○ آيَاتٍ)، وَتُسَمَّىٰ (○ دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ، ○ أَعْلَامَ النُّبُوَّةِ، ○ الجميع)، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِذَا سُمِّيَتْ بِهَا آيَاتُ الْأَنْبِيَاءِ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ لَفْظِ (○ الْمُعْجِزَاتِ، ○ الآيَاتِ)، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَفْظُ (○ الْمُعْجِزَاتِ، ○ الآيَاتِ) مَوْجُودًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا فِيهِ لَفْظُ (○ الْآيَةِ، ○ الْبَيِّنَةِ ○ الْبُرْهَانِ، ○ الجميع) ».

❁ إذا فُسِّرَ القرآنُ الكريمُ أو تُرجِمَ فإنَّه تَفسيرَه وترجمَتَه: ○ يُسَمَّيان قرآنًا. ○ لا يُسَمَّيان قرآنًا.

❁ مِن صفاتِ القرآنِ الكريم: ○ النُّور. ○ العزيز. ○ المُبارك. ○ المجيد. ○ المَوعظة. ○ الكريم. ○ المُبين. ○ المُهيمن. ○ البلاغُ. ○ الحكيم.

❁ ترتيب المُصحَفِ: ○ توقيفيٌّ. ○ اجتِهاديٌّ.

❁ لا يجوزُ للقُرَّاءِ الاجتِهادُ في القِراءاتِ. ○ صح. ○ خطأ.

❁ أوَّلُ من أشارَ بجَمعِ القرآنِ الكريمِ هو: ○ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ○ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ○ عثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❁ من طُرُق مَعرفة النَّاسخ والمَنسوخ: تصريح الرَّاوي بتاريخ سَماعِه لهما: ○ صح. ○ خطأ.

❁ يَستدلُّ بخُطبة عُمر وتلاوتِه آية الرَّجم القائلون بجواز نسخ التِّلاوة دون الحكم: ○ صح. ○ خطأ

❁ يصحُّ نسخ المُتواتر بالآحاد: ○ صح. ○ خطأ.

[٢] أجب عن كلٍّ ممَّا يلي:

❁ مَتَىٰ نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؟ .....

❁ وَمَنْ نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ .....

❁ ما هو أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ .....

❁ اذكُر سببي نزولِ القرآنِ:

[١] ..... [٢] .....

- ينقسِمُ القرآنُ باعتبارِ زمانِ نزولِه إلىٰ قسمين:
[١] ..... [٢] .....
- بيِّن الحكمةَ مِن نزولِ القرآنِ مُفرَّقًا: .....
.....
- كيفُ كانت كتابةُ القرآن وجمعُه علىٰ عهدِ النَّبيِّ ﷺ: .....
.....
- جُمِع القرآنُ ثلاثَ مرَّاتٍ: في عهدِ : .....
ثمَّ في خلافةِ: ..... ثمَّ .....
- اذكُر معنىٰ التَّفسيرِ:
لغةً: .....
اصطلاحًا: .....
- الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ هو: .....
.....
.....
- الْمَرْجِعُ فِي التَّفْسِيرِ إِلَىٰ:
[١] ..... [٢] .....
[٣] ..... [٤] .....
[٥] .....
- اذكُرْ أَنْوَاعَ الاخْتِلَافِ الْوَارِدِ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ:
[١] ..... [٢] .....
[٣] .....
- المَقصودُ بترجمة القرآنِ:
لغةً: .....
اصطلاحًا: .....
- رتِّب العلوم الشَّرعيَّةَ التَّاليةَ:
( ) القراءات ( ) التَّفسير ( ) الفقه ( ) علوم القرآن ( ) الحديث ( ) الفرائض

❁ ترجمةُ القرآن علىٰ نوعين:

[١] ..... وحكمه: .....

[٢] ..... وحكمه: .....

[٣] أكمل ما يلي:

النَّسخ:	لغةً: ..... اصطلاحًا: ..... شرح التَّعريف: ....
حكم النَّسخ:	[١] ..... [٢] .....
ما يمتنع نسخه:	[١] ..... [٢] .....
شروط النَّسخ:	[١] ..... [٢] ..... [٣] .....
يكون العلم بتأخُّر النَّاسخ بـ:	[١] ..... [٢] ..... [٣] .....
حكمة نسخ اللَّفظ لا الحكم:	[١] ..... [٢] .....
حكمة نسخ الحكم لا اللَّفظ:	[١] ..... [٢] .....
أقسام النَّسخ باعتبار النَّصِّ:	[١] ..... [٢] ..... [٣] .....

أقسام النَّسخ باعتبار النَّاسخ:	[١] ..... [٢] ..... [٣] ..... [٤] .....
الحكمة من النَّسخ:	[١] ..... [٢] ..... [٣] ..... [٤] .....

[٤] صِل فوائدَ النُّزولِ من الحقلِ (أ) بأمثلتِها من الحقلِ (ب):

(أ) فوائدُ أسبابِ النُّزولِ:	(ب) الأمثلةُ:
فهم الآية على الوجه الصحيح:	آية التَّيمُّم.
بيان عناية الله برسوله والدفاع عنه:	﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾[الفرقان:٣٢].
بيان عناية الله بعباده في تفريج كُربهم:	﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾[البقرة:١٥٨].

[٥] أعطِ مثالاً لكلٍّ ممَّا يلي:

الموضوع:	مثاله:
نسخ الكتاب بالإجماع:	.....
نسخٌ بمَعنىٰ النَّقل:	.....
حكمٌ صالحٌ لكلِّ زمانٍ:	.....
حكمٌ عُلِم تأخُّره بخبر صحابيٍّ:	.....
نسخٌ إلىٰ أخفَّ:	.....

الموضوع:	مثاله:
نسخٌ بمعنىٰ الإزالة:	.....
خبرٌ لا يُمكن نسخُه:	.....
حكمٌ عُلِم تأخُّره بالنَّصِّ:	.....
نسخٌ إلىٰ أثقلَ:	.....
حكمٌ عُلِم تأخُّره بالتَّاريخ:	.....
نسخٌ إلىٰ مُساوٍ:	.....

[٦] أكمل ما يلي فيما يتعلَّق بالمجاز:

- المجاز هو: ..... ومثاله: .....
- أقسام النَّاس فيه: [١] .....
  [٢] ..... [٣] .....

❁ الرَّاجح: ..... لأمورٍ: [١] .....
[٢] ..... [٣] .....
[٤] ..... [٥] .....
[٦] .....
❁ لماذا ذُكِرَ في أصول الفقه؟ .....

الْفَصْلُ الثَّانِي: التَّفْسِيرُ

أوَّلاً: تَعْرِيفُ التَّفْسِيرِ وَحُكْمُهُ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّفْسِيرُ لُغَةً مِنَ الفَسْرِ، وَهُوَ: الْكَشْفُ عَنِ الْمُغَطَّىٰ، وَفِي الِاصْطِلَاحِ: بَيَانُ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَعَلُّمُ التَّفْسِيرِ وَاجِبٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمَّد].

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ إِنْزَالِ هٰذَا الْقُرْآنِ الْمُبَارَكِ أَنْ يَتَدَبَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ، وَيَتَّعِظُوا بِمَا فِيهَا، وَالتَّدَبُّرُ هُوَ التَّأَمُّلُ فِي الْأَلْفَاظِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَعَانِيهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَاتَتِ الْحِكْمَةُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ، وَصَارَ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ لَا تَأْثِيرَ لَهَا، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الِاتِّعَاظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَبَّخَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْإِقْفَالِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَعَدَمِ وُصُولِ الْخَيْرِ إِلَيْهَا).

مَعنى التَّفسير:

[١] **لغةً**: (مِنَ الفَسْرِ، وَهُوَ: الْكَشْفُ عَنِ الْمُغَطَّىٰ)، ومن ذلك فَسْرُ. القِشر عن الثَّمرة حتَّىٰ يتبيَّن ما بداخل القشر.

[٢] **اصطلاحًا**: (بَيَانُ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ)، وأمَّا ما سوىٰ القرآن فيُسمَّىٰ في الواقع شرحًا، والفرق بينهما عُرفيٌّ.

حكم تفسير القرآن:

تفسير القرآن واجبٌ يأثم الإنسانُ بتركه؛ لأنَّ المقصود من إنزاله هو فهم مَعناه، والعملُ به، وإذا كنَّا لا نفهم المَعنىٰ صار القرآن كأنَّه عربيٌّ بين أعاجم.

هل فهمُ مَعنى القرآن صعبٌ؟

فهمُه ليس صعبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر]، أي: هل من مُتذكِّرٍ؟ والاستفهام للتَّشويق؛ لأنَّه لمَّا أخبر وأكَّد أنَّ الله يسَّره للذِّكر شوَّق إلىٰ ادِّكاره وفهمه، فإذا أقبلت بصدقٍ لتفهم معنىٰ كلامه ﷻ فإنَّه لابدَّ أن يُيسَّر لك، إمَّا بفتحٍ يفتحُه الله عليك، وإمَّا بجلب عالمٍ يُبيِّن معناه، وإمَّا بكُتب تفسيرٍ تُوضِّح المَعنىٰ.

تنبيهٌ: أتكرَّر قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ ثلاثَ مرَّاتٍ في سورة القمر، وجاءَ في كلِّ مرَّةٍ عقِبَ قصَّةٍ من قصَصِ الأمم الغابرَةِ، وقُصِدَ بالاستِفهامِ الأمرُ بالتَّذكُّرِ لا حَقيقةُ الاستفهام، والحِكمَةُ مِن التَّكرارِ التَّنبيهُ والتَّأكيدُ علىٰ ضرورة التَّدبُّر في أنباءِ الغابرين من الأمَم، والاعتبارِ بمَصيرِ العاصين المُكذِّبين منهم.

ذكرَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ أنَّ تَيسيرَ اللهِ القرآنَ للذِّكرِ يتضمَّنُ:

- [١] تيسيرَ ألفاظِه للحِفظِ.
- [٢] تيسيرَ مَعانيه للفَهمِ.
- [٣] تيسيرَ أوامِرِه ونَواهيه للامتِثالِ.

تعلُّم التَّفسير منه:

- [١] **واجبٌ عينيٌّ**: وهو ما لا يسوغ جهلُه، يجب علىٰ كلِّ إنسانٍ أن يعرف ما أُمر به في القرآن الكريم؛ مثل قولِه تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣] فيجب أن يعرف كيفيَّة إقامة الصَّلاة، وكيف يزكِّي إذا كان عنده مالٌ.
- [٢] **واجبٌ كفائيٌّ**: وهو ما زاد علىٰ ذلك، فيجب علىٰ المسلمين عمومًا أن يقوموا به، فإن قام به أحدٌ يُكتفىٰ به لكونِه مَأمونًا مَوثوقًا مَرجعًا للمسلمين في التَّفسير حصل الواجبُ، ولا يُمكن للمسلمين أن يدعوا كتاب ربِّهم دون أن يفهموا مَعانيَه.

الحكمة من إنزال القرآن:

[١] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: اللَّام للتَّعليل، فيجب تدبُّر -أي: التَّأمُّل في- كلِّ الآيات:

- [أ] **الطَّويلة**: مثل آية الدَّين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ...﴾[البقرة:٢٨٢].
- [ب] **القصيرة**: مثل: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾[المُدَّثِّر]، من الَّذي نظر؟ وهل بفكره أم بعينه؟...

[٢] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: ليتَّعظ أولو العقول، والعقل هو اللُّبُّ، ورجلٌ بلا عقلٍ ليس برجلٍ في الواقع.

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**لَا يُمْكِنُ الِاتِّعَاظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ**).

مَعنى الـمَوعظة والاتِّعاظ:

ليس هو لين القلب وخشوعُه وما أشبه ذلك فقط، وإنَّما الاتِّعاظ هو (التزامُ الأحكام)؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾[النِّساء:٥٨].

دليلٌ آخر:

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ استفهامٌ يُرادُ به التَّوبيخ، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمَّد]، (أم) هنا بمَعنىٰ (بل)؛ فهي مُنقطعةٌ، والمَعنىٰ: بل قلوبُهم مُقفلةٌ عن تدبُّر القرآن، والأقفال جمع قُفل، وهو ما تُغلق به الأشياء، فلمَّا وبَّخ الله عَزَّوَجَلَّ الَّذين لا يتدبَّرون القرآن، ووصَّفهم بأنَّ قلوبَهم مُغلقةٌ؛ دلَّ علىٰ أنَّ تدبُّر القرآن واجبٌ كما سبق.

فائدةٌ: أوَّلُ علمٍ عُلِّمَه النَّبيُّ ﷺ هو علمُ التَّفسيرُ.

نزَلَ القرآنُ العَظيمُ:

[١] **جملَةً واحِدَةً**: مِن اللَّوحِ المَحفوظِ إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا في ليلَةِ القَدرِ، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾[القدر].

[٢] **مُنجَّمًا**: من السَّماءِ الدُّنيا علىٰ النَّبيِّ ﷺ، حسَبَ الحاجَةِ والمُناسبَةِ، ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[الإسراء:١٠٦].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَكَانَ سَلَفُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ الْوَاجِبَةِ، يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ؛ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ بِهِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ بِمَا لَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ، وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمٰنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِؤُونَنَا الْقُرْآنَ كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا).

أثر أبي عبد الرَّحمن السُّلميِّ أخرجه أحمد في «المُسند» وابن أبي شيبة في «المُصنَّف»، وهو من رواية عطاء بن السَّائب، وقد اختلط في آخر عمره، ففي صحَّة الخبر خلافٌ.
وهذا الَّذي كان عليه الصَّحابة هو الَّذي ينبغي أن نكون عليه؛ نتعلَّم المعنىٰ ثمَّ نعمل به.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: وَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يَسْتَشْرِحُونَهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ، وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ، وَدُنْيَاهُمْ؟
وَيَجِبُ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الْكِتَابَةِ أَوِ الْمُشَافَهَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وَتَبْيِينُ الْكِتَابِ لِلنَّاسِ شَامِلٌ لِتَبْيِينِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَيَكُونُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ مِمَّا أَخَذَ اللهُ الْعَهْدَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ بِبَيَانِهِ، وَالْغَرَضُ مِنْ تَعَلُّمِ التَّفْسِيرِ هُوَ الْوُصُولُ إِلَىٰ الْغَايَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالثَّمَرَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ بِأَخْبَارِهِ، وَالِانْتِفَاعُ بِهَا، وَتَطْبِيقُ أَحْكَامِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ؛ لِيُعْبَدَ اللهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ).

كان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يمتثلون ما أُمروا به في القرآن، رجالُهم ونساؤُهم، فإذا نزلت آياتٌ في البيع تعلَّموها وعملوا بها، وامتثلوا أمره الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ امتثالًا تامًّا؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾[الجمعة:٩].

هل يجبُ على العلماءِ أن يُبيِّنوا للنَّاسِ مَعنى القرآن ولو لم يسألوهم؟

نعم، يجب عليهم البيان سواءٌ سألوهم بلسان المَقال، أو بلسان الحال، فإذا سمع أنَّ النَّاس يُفسِّرون بعض الآيات علىٰ غير ما أراده الله؛ فالواجب عليه أن يُبيِّن المَعنىٰ الَّذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ، والعوامُّ قد يُفسِّرون القرآن علىٰ غير مُراد الله عَزَّوَجَلَّ، بل قد يصنعون آياتٍ من عندِهم! وينبغي للعالم وطالب العلم أن يجعل للعامَّة مجلسًا لتفسير القرآن.

الغرض من تعلُّم التَّفسير:

[١] **تصديقُ الأخبار والانتفاعُ بها**: فإذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾[النِّساء]؛ فهذا خبرٌ تصدِّقه، وتنتفع بخشية الله فلا تقول ما يسمع الله عَزَّوَجَلَّ منك ممَّا لا يرضاه، ولا تفعل ما يبصره منك ممَّا لا يرضاه، قال تعالىٰ عن قصص الأنبياء السَّابقين: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾[يوسف:١١١].

[٢] **تطبيق الأحكام على مُراد اللَّه**: فتعبد الله علىٰ بصيرةٍ، وتعرف كيف تعبد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما أراده منك.

هل فسَّرَ النَّبيُّ ﷺ القرآنَ كاملاً؟

قالَ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لِأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النَّحل:٤٤] يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا».

ثَانِيًا: الْوَاجِبُ عَلَى الْـمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

قَـالَ الْمُصنِّـف رَحِمَهُ اللهُ: (الْوَاجِـبُ عَلَـىٰ الْمُسْـلِمِ فِـي تَفْسِيرِ الْقُـرْآنِ أَنْ يُشْـعِرَ نَفْسَـهُ حِينَ يُفَسِّـرُ الْقُـرْآنَ بِأَنَّـهُ مُتَرْجِمٌ عَـنِ اللهِ تَعَالَىٰ، شَـاهِدٌ عَلَيْهِ بِمَـا أَرَادَ مِنْ كَلَامِهِ، فَيَكُـونُ مُعَظِّمًا لِهَـذِهِ الشَّـهَادَةِ، خَائِفًـا مِـنْ أَنْ يَقُولَ عَلَىٰ اللهِ بِـلَا عِلْمٍ، فَيَقَـعَ فِيمَا حَـرَّمَ اللهُ، فَيَخْزَىٰ بِذَلِكَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ، قَـالَ اللهُ تَعَالَـىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأعراف]، وَقَالَ تَعَالَـىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[الزُّمر]).

الـمُفسِّر لكلام اللَّه عَزَّوَجَلَّ بمثابة:

[١] **الـمُترجم عنه**: فليحذر أن يقول: (أراد الله كذا) كاذبًا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وهو لم يُرده.

[٢] **الشَّاهد عليه**: أنَّه أراد بكلامه كذا وكذا.

من أمثلة التَّفسير الخاطئ:

[١] ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ **[النَّمل:٨٨]**: فسَّرها بعض المُتأخِّرين بأنَّ المُراد بها في الدُّنيا، وأنَّ هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الأرض تدور، فنسألهم:
هل التَّرجمة مُطابقةٌ للمُترجَم؟
وهل تشهدون علىٰ الله بأنَّه أراد هذا المَعنىٰ شهادةً تُسألون عنها؟

[٢] ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ﴾ **[الرَّحمن:٣٤]**:
فسَّرها بعض المُتأخِّرين بالأقمار الصِّناعيَّة، ووصول النَّاس إلىٰ الفضاء الخارجيِّ، وأنَّهم بذلك نفذوا من أقطار السَّموات والأرض، وهذا لا شكَّ أنَّه تحريفٌ.

دليل تحريم القول على الله عَزَّوَجَلَّ بغير علمٍ في التَّفسير وغيره:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ فيها حصرٌ، بمعنىٰ: لم يحرِّم إلَّا ما ذكر هنا، ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشةٍ، وهي: (كلُّ ما يُستَفحش شرعًا أو عقلًا)، ولا يُقال: عادةً؛ لأنَّ عادة النَّاس قد تجيز المُنكر شرعًا، والغالب أنَّ الشَّرع والعقل مُتلازمان، فكلُّ ما يستفشحه الشَّرع يستفحشه العقل، لكن قد يستفحش العقل شيئًا لا يستفحشه الشَّرع.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ تحتمل معنيين:

الأوَّل: ما ظهر للنَّاس وما خفي عليهم، والثَّاني: ما ظهر فُحشُه، وما خفي فُحشُه.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ كلُّ ما يأثم به الإنسان، ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ أي: العدوان علىٰ النَّاس، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، فكلُّ بغيٍ هو بغير حقٍّ، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في ذاته عَزَّوَجَلَّ، وفي رُبوبيَّته، وفي ألوهيَّته، وفي أسمائه وصفاته، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأعراف] سواءٌ في تفسير كلامه، أو إثبات أحكامه، أو نفيها، أو غير ذلك.

وهذه الآية جاءت علىٰ وجه التَّرقِّي، فأشدُّ المُحرَّمات المَذكورة أن يقول الإنسان علىٰ الله ما لا يعلم؛ وهو أشدُّ من الشِّرك في أنَّ إفساده يتعدَّاه إلىٰ غيره، بخلاف الشِّرك.

جزاء الكاذب على اللَّه عَزَّوَجَلَّ في التَّفسير:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[الزُّمر]، فالَّذي يُفسِّر القرآن بغير ما أراد الله كاذبًا علىٰ الله يكون وجهه -بلا شكٍّ- ممَّن قال الله فيهم: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾.

فالتَّفسير خطيرٌ، لكن مع ذلك هو مع النِّيَّة الصَّادقة يسيرٌ، ييسِّره الله ويسهِّله ويوفِّق الإنسان للصَّواب فيه.

ثَالِثًا: الْـمَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (يُرْجَعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مَا يَأْتِي:

أ. كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ: فَيُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ بِهِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس]، فَقَدْ فَسَّرَ أَوْلِيَاءَ اللهِ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ [الطَّارق]، فَقَدْ فَسَّرَ الطَّارِقَ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطَّارق].

ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النَّازعات]، فَقَدْ فَسَّرَ ﴿دَحَىٰهَا﴾ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النَّازعات]).

مَراجع تفسير القرآن خمسةٌ:

[١] **القرآن**:	[٢] **السُّنَّة**:	[٣] **كلام الصَّحابة**:	[٤] **كلام التَّابعين**:	[٥] **ما تقتضيه الكلمات من المَعاني الشَّرعيَّة واللُّغويَّة**:
أولىٰ ما يُفسَّر به القرآن هو القرآن؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أعلم بمُراده من غيره.	فالنَّبيُّ ﷺ مُبلِّغٌ عن ربِّه، وهو أعلم النَّاس بمُراد الله عَزَّوَجَلَّ.	فالقرآن نزل في عصرهم، وبلغتهم، وهم أصدق النَّاس بعد الرُّسل.	فهم الَّذين أخذوا التَّفسير عن الصَّحابة ونقلوه لنا.	والأصل تقديم المَعنىٰ الشَّرعي علىٰ اللُّغويِّ إلَّا لدليل يدلُّ علىٰ إرادة اللُّغويِّ.

المثال الأوّل لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يُستقبَل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فيما مضىٰ؛ لأنَّه قد فات ما مضىٰ بالإيمان والتَّقوىٰ، والحزن يكون علىٰ فوات المَحبوب، وفسَّر ﷻ الأولياء فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[يونس]، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا».

حكم من ادَّعى الولاية:

من قال: (أنا وليٌّ لله)؛ قلنا: القرآن يكذِّبك، فالله ﷻ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[يونس]، وقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[النَّجم:٣٣]، وأنت زكَّيت نفسك، فلم تتَّقِ الله، فلست بوليٍّ.

ومن زاد علىٰ ذلك فقال مثلًا: (أنا وليٌّ لله، فيحلُّ لي أن أتزوَّج خمسين امرأةً) وغير ذلك، قلنا: أنت من أعداء الله.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد القادر الجيلانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: (كُنْت مَرَّةً فِي الْعِبَادَةِ فَرَأَيْت عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ نُورٌ فَقَالَ لِي: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنَا رَبُّك وَقَدْ حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَىٰ غَيْرِك، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ؟! اخْسَأْ يَا عَدُوَّ اللهِ، قَالَ: فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُّورُ وَصَارَ ظُلْمَةً، وَقَالَ: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ؛ نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِك فِي دِينِك، وَعِلْمِك وَبِمُنَازَلَاتِك فِي أَحْوَالِك).

المثال الثَّاني لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾، كونُ الواو في (وَٱلطَّارِقِ) للقسم أولىٰ من كونها عاطفةً؛ ليكون ما بعدها مُستقلًّا، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾، وفسَّر الله ﷻ الطَّارق بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾[الطَّارق] أي: الثَّاقب للظَّلام بنورِه، والثَّاقب للشَّياطين الَّذين يسترِقون السَّمع؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾[الصَّافَّات].

المثال الثَّالث لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[النَّازعات]، هذه الآية مُشكلةٌ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[فُصِّلت].

وفسَّر الله عَزَّوَجَلَّ الدَّحو بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النَّازعات].

أمثلةٌ أخرى لتفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ:

الآيةُ:	تفسيرُها:
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾[الطَّارق].	﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾[الطَّارق].
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢].	﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان].
﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١].	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ...﴾ [المائدة:٣].
﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[النَّازعات].	﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النَّازعات].
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾[آل عمران].	قُيِّدَت بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[النِّساء:١٨].
﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].	خُصِّصَت بقولِه تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطَّلاق:٤]، وقولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾[الأحزاب:٤٩].

الآيةُ:	تفسيرُها:
﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[هود].	﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾[الذَّاريات].
﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾[المعارج].	﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج].
﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[المُطفِّفين].	خُصِّصَت بقَولِه تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[القيامة].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ب. (كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ كَلَامِهِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ صَرِيحًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَرَوَاهُ جَرِيرٌ مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثٍ قَالَ فِيهِ: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْقُوَّةَ بِالرَّمْيِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

تنبيهٌ مُهمٌّ:

عند تفسير القرآن بالسُّنَّة أو بكلام الصَّحابة لابدَّ من مُلاحظة أنَّه قد يكون من باب ذكر بعض أنواع ما يدخل في الآية، لا أنَّ المُرادَ تفسيرُ كلِّ المَعنىٰ.

المثال الأوّل لتفسير القرآن بالسُّنَّة:

قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، أي: الدَّارُ الحُسنىٰ، وهي الجنَّة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، قال النَّبيُّ ﷺ -كما في «صحيح مسلم» من حديث صهيب رضي الله عنه-: «**فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عزوجل**»، وتلا الآية، وتلاوتُه ﷺ للآية تدلُّ علىٰ أنَّ رؤية الله عزوجل هي الزِّيادة المَذكورة.

المثال الثَّاني لتفسير القرآن بالسُّنَّة:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ أي: الكفَّار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فما المَقصود بالقوَّة هنا؟ أخرج مسلمٌ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا الآية علىٰ المنبر ثمَّ قال: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»، والرَّمي أكمل القوَّة، ولهذا أجاز الشَّرعُ المُسابقة بالرَّمي بعِوضٍ.

السِّلاح نوعان:

[١] **السِّلاح الأبيض**: كالسَّكاكين والسُّيوف وما أشبهها.

[٢] **الرَّمي**: وهو أقوىٰ؛ لأنَّه يكون من بعيدٍ، فهو أبلغ من المُلاقاة باليد.

والرَّمي يختلف من زمنٍ لآخر، كان في عهد النَّبيِّ ﷺ بالنِّبال وما أشبهها، ثمَّ صار بالبندقيَّة، ثمَّ صار في يومِنا بالصَّواريخ عابرة القارَّات.

أمثلةٌ أخرى لتفسيرِ القرآنِ بالسُّنَّةِ:	
الآيةُ:	**تفسيرُها:**
﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[البقرة:١٨٧].	قالَ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ». متَّفَقٌ عليه.
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].	قُيِّدَت بقَولِه ﷺ: «تُقْطَعُ الْيَدُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا». متَّفَقٌ عليه. وبقَولِه ﷺ: «اقْطَعُوا يَدَهَا». أخرَجَه أحمَدُ.
﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾[الكوثر].	«نَهَرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ». متَّفَقٌ عليه واللَّفظُ لمسلمٍ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ج. (كَلَامِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لَاسِيَمَا ذَوُو الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْعِنَايَةِ بِالتَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ، وَفِي عَصْرِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ أَصْدَقُ النَّاسِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ، وَأَسْلَمُهُمْ مِنَ الْأَهْوَاءِ، وَأَظْهَرُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ التَّوْفِيقِ لِلصَّوَابِ. وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النِّساء: ٤٣]، فَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ فَسَّرَ الْمُلَامَسَةَ بِالْجِمَاعِ).

هل الصَّحابة سواءٌ في تفسير القرآن؟

المَرجعُ في تفسير القرآن إلىٰ ذوي العلم من الصَّحابة، المُعتَنين بالتَّفسير، والصَّحابة درجاتٌ في العلم والفقه.

سبب تقديم الصَّحابة على غيرِهم في التَّفسير:

[١] أنَّ القرآن نزل بلغتهم وفي عصرِهم:
فكان ﷺ يخطبُهم بسورة ق، ولو خطبت بها الآن لم تكف؛ لأنَّ النَّاس لا يستفيدون منها إلَّا ما قد يحصُل من ترقيق قلوبهم.

[٢] أنَّهم أصدقُ النَّاس بعد الرُّسل:
في طلب الحقِّ، لا شكَّ في ذلك.

[٣] وأسلمُهم من الأهواء:
وإنَّما افترقت الأمَّة وكثرت الأهواء بعدَهم، أمَّا في عهدهم فقليلٌ إن لم نقل مَعدومٌ.

[٤] وأطهرُهم من مُخالفة أمر الله:
فمُخالفةُ أمر الله عَزَّوَجَلَّ ومَعصيتُه تحولان بين المرء وبين التَّوفيق للصَّواب.

القرآن نزل:

[١] بلُغةِ الصَّحابةِ:
فهم أولىٰ بمعرفة مَعناه من غيرهم.
مثالُه: في «صحيح البخاريِّ»: (كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: إِنَّ لَنَا أَبْنَاءَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾[النَّصر]، فَقَالَ: أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ).

[٢] في عصرِ الصَّحابةِ:
فيعرفون القرائن الَّتي يُراد بها المَعنىٰ.
مثالُه: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[البقرة:١٥٨]، فهم منها الصَّحابة وجوب السَّعي لا إباحتَه وعدمَ تحريمه، وذلك لأنَّهم كانوا يتحرَّجون من الطَّواف بينهما لظنِّهم أنَّه من أمر الجاهليَّة، فنزلت الآية ترفع عنهم الحرج.

تنبيهٌ مُهمٌّ:

الصَّحابة أعلم الخلق بعد النَّبيِّ ﷺ بتفسير كلام الله ﷻ، لا سيما فيما يتعلَّق بالأحكام، وما يتعلَّق بالفقه في الدِّين، وبالعقيدة، أمَّا ما يتعلَّق بالعلوم الفلكيَّة أو الأرضيَّة فقد يكون مَن بعدهم عنده علمٌ كثيرٌ؛ لأنَّهم أوتوا من وسائل الوصول إلىٰ هذه المَعلومة ما لم يُؤتَ الصَّحابةُ رضي الله عنهم.

مثال تفسير الصَّحابة للقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ لا تستطيعون الطَّهارة بالماء، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وليس عندكم ماءٌ، ﴿أَوْ﴾ بمعنىٰ الواو ﴿جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ إشارةٌ إلىٰ مُوجِب الوضوء، ﴿أَوْ﴾ للتَّقسيم ﴿لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النِّساء:٤٣] إشارةٌ إلىٰ مُوجِب الغسل، لا إلىٰ اللَّمس باليد؛ لأنَّه مُوجِبٌ للوضوء، وليس من البلاغة الإشارة إلىٰ مُوجِبين من مُوجِبات الوضوء وإغفال مُوجِبات الغُسل، وبهذا يتبيَّن كمال فقه ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ معنىٰ ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾: جامعتم، وجاء في قراءةٍ سبعيَّةٍ: (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ)، وهما بمعنًىٰ، لكن لمَّا كان الجماع قد يحصل به التَّلذُّذ من جانبٍ واحدٍ أو من الجانبين جاءت المُفاعلةُ: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾، وكلامُ الله يُفسِّر بعضُه بعضًا، فالآية بمعنىٰ الجماع علىٰ التَّقديرين، فلا نعدل إلىٰ غيرِه.

من بلاغة هذه الآية أنَّها تضمَّنت:

- [١] نوعين ممَّا يُتطهَّرُ به:
  - [أ] الماء: وهو الأصل.
  - [ب] التُّراب: عند عدم الماء.
- [٢] نوعين من الطَّهارة:
  - [أ] الوضوء.
  - [ب] الغسل.
- [٣] نوعين ممَّا يُتطهَّر منه:
  - [أ] الغائط: إشارةً إلىٰ موجبات الوضوء.
  - [ب] مُلامسة النِّساء: إشارةً إلىٰ موجبات الغُسل.

اختلف الفقهاء في نقض الوضوء بمسِّ المرأة على ثلاثة أقوالٍ:

[١] **الأوَّل**: أنَّه ينقض الوضوء مُطلقًا، فإذا قدم الرَّجل من سفرٍ وهو مُتوضِّئٌ فصافح ابنته وجب عليه الوضوءُ!

[٢] **الثَّاني**: أنَّه لا ينقض الوضوء مُطلقًا، ولو كان بشهوةٍ، وهو الصَّحيح، وفي «مُصنَّف عبد الرَّزَّاق» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَا أُبَالِي قَبَّلْتُهَا أَوْ شَمَمْتُ رَيْحَانًا)، وكذلك لا ينتقض الصَّوم به.

[٣] **الثَّالث**: أنَّه إذا كان بلذَّةٍ ينقض الوضوء، وإذا كان بغير لذَّةٍ لا ينقض الوضوء.

أمثلةٌ لتفسيرِ القرآنِ بالإجماعِ المُنعقِدِ بين الصَّحابَةِ ومَن بعدَهم:

الآيةُ:	تفسيرُها:
﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾[النِّساء:١٢].	أي: أخٌ أو أختٌ لأمٍّ، ولا يَدخُلُ فيها الإخوَةُ الأشقَّاءُ أو لأبٍ؛ لأنَّهم عصبةٌ.
﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[الطَّلاق:٢].	أي: إذا قارَبن أجلهنَّ، أمَّا إذا انقَضىٰ أجلُهنَّ فلا رجعَةَ.
﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].	أي: حتَّىٰ يأتِيَك المَوتُ، وأمَّا ما ذهَبَ إليه الصُّوفِيَّةُ من انقِطاعِ التَّكليفِ فمُخالِفٌ للإجماعِ، ولا عِبرَةَ به.
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠].	أي: سَجدوا تحيَّةً له، لا عِبادَةً له -عِياذًا باللهِ-، وكانَ سجودُ التَّحيَّةِ سائغًا في شَريعَتِهم، ثمَّ نُسِخَ في شَرعِنا.
﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤].	أي: فليَقتُل بعضُكم بعضًا، وأمَّا قَتلُ الإنسانِ نَفسَهُ فمُحرَّمٌ في كلِّ الشَّرائِعِ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

د. (كَلَامِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اعْتَنَوْا بِأَخْذِ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ التَّابِعِينَ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ، وَأَسْلَمُ مِنَ الْأَهْوَاءِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، وَلَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا فِي عَصْرِهِمْ، فَكَانُوا أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: إِذَا أَجْمَعُوا -يَعْنِي التَّابِعِينَ- عَلَى الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنِ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَى بَعْضٍ، وَلَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ، أَوِ السُّنَّةِ، أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ أَيْضًا: مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ؛ بَلْ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ، ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ، فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا).

من أسباب تقديم تفسير التَّابعين على تفسير مَن بعدهم:

[١] أنَّهم أفضل ممَّن بعدهم، قال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». مُتَّفَقٌ عليه. والمُراد بالتَّخيير الجنسُ، فجنسُ الصَّحابة هو الأَخْيَرُ، ثمَّ جنسُ التَّابعين، وقد يوجدُ في التَّابعين من هو خيرٌ من بعض الصَّحابة في العلم والدِّين، لا في الصُّحبة.

[٢] أنَّهم (**أَسْلَمُ مِنَ الْأَهْوَاءِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ**) لا مَن قبلهم، ولهذا تجد كلامَ بعض التَّابعين يكاد يكون مثل كلام الصَّحابة، حتَّى إنَّك أحيانًا لا تكاد تُميِّز بين أثر التَّابعيِّ وأثر الصَّحابيِّ.

[٣] (**لَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا فِي عَصْرِهِمْ**)، وإنَّما تغيَّرت كثيرًا لمَّا فتح المسلمون البلاد، وامتزجوا بأهلها، فأخذوا منهم كلماتٍ، وتأثَّروا بلغاتهم.

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أنَّ التَّابعين قد:

- [١] **يُجمعون على تفسيرٍ مُعيَّنٍ:** فإجماعُهم حجَّةٌ علىٰ مَن بعدهم، ليس لأحدٍ أن يخالفهم فيه.
- [٢] **يختلفون في التَّفسير:** فلا يكون قولُ بعضهم حجَّةً علىٰ بعضٍ، وإنَّما يُنظر إلىٰ ما يرجِّحه الدَّليل.

التَّرجيح بين تفاسير التَّابعين يكون بـ:

- [١] لغة القرآن: وهي الحقيقة الشَّرعيَّة.
- [٢] لغة السُّنَّة.
- [٣] أقوال الصَّحابة.
- [٤] عموم لغة العرب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

هـ- (مَا تَقْتَضِيهِ الْكَلِمَاتُ مِنَ الْمَعَانِي الشَّرْعِيَّةِ أَوِ اللُّغَوِيَّةِ حَسَبَ السِّيَاقِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[النِّساء: ١٠٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾[الزُّخرف]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤].

فَإِنِ اخْتَلَفَ الْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ أَخَذَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لِبَيَانِ الشَّرْعِ، لَا لِبَيَانِ اللُّغَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ دَلِيلٌ يَتَرَجَّحُ بِهِ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيُّ فَيُؤْخَذُ بِهِ.

مِثَالُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ وَقُدِّمَ الشَّرْعِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[التَّوبة:٨٤]، فَالصَّلَاةُ فِي اللُّغَةِ الدُّعَاءُ، وَفِي الشَّرْعِ هُنَا الْوُقُوفُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ لِلدُّعَاءِ لَهُ بِصِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، فَيُقَدَّمُ الْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ لِلْمُتَكَلِّمِ، الْمَعْهُودُ لِلْمُخَاطَبِ، وَأَمَّا مَنْعُ الدُّعَاءِ لَهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِطْلَاقِ فَمِنْ دَلِيلٍ آخَرَ.

وَمِثَالُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ وَقُدِّمَ فِيهِ اللُّغَوِيُّ بِالدَّلِيلِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[التَّوبة: ١٠٣]، فَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ هُنَا الدُّعَاءُ،

وَبِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِصَدَقَةِ قَوْمٍ صَلَّىٰ عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ».

وَأَمْثِلَةُ مَا اتَّفَقَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ كَثِيرَةٌ؛ كَالسَّمَاءِ، وَالْأَرْضِ، وَالصِّدْقِ، وَالْكَذِبِ، وَالْحِجْرِ، وَالْإِنْسَانِ).

من أدلَّة اعتبار المَعنى اللُّغويِّ في التَّفسير:

[١] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]:

قال بعض أهل العلم: إذا نزلت بك نازلةٌ فقدِّم بين يدي حلِّها الاستغفارَ؛ لأنَّ المَعاصيَ تَحولُ بين الإنسان والحقِّ والتَّوفيق للصَّواب.

[٢] ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزُّخرف]:

﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: صيَّرناه، لأنَّ الفعل (جعل) تعدَّىٰ إلىٰ مفعولين، وليس كما قالت الجهميَّة: خلقناه، وكذلك ليس معناه أنَّ القرآن كان بغير العربيَّة ثمَّ نُقل وصُيِّر إليها.

[٣] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]:

﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بلغتهم، ويُستفادُ منها جواز مُخاطبة مَن لا يفهم العربيَّة بلغته الَّتي يفهمها.

القاعدة:

المَعنىٰ اللُّغويُّ مُعتبرٌ في التَّفسير، لكنَّ الأصل أنَّ المَعنىٰ الشَّرعيَّ مُقدَّمٌ عليه إذا وُجد، إلَّا إذا دلَّ دليلٌ علىٰ تقديم المَعنىٰ اللُّغويِّ فيُعمَل به.

مثال ذلك: حكم:

[١] الصَّلاة على الـمُنافق والكافر:
حرامٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[التَّوبة:٨٤]، فنقدِّم المَعنىٰ الشَّرعيَّ للصَّلاة -أي: صلاة الجنازة المَعروفة- علىٰ المَعنىٰ اللُّغويِّ وهو الدُّعاء.

[٢] الدُّعاء للمُنافق والكافر بعد موته:
حرامٌ كذلك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾[التَّوبة:١١٣]، ولقوله ﷺ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي**». أخرجه مسلمٌ.

يُستثنىٰ من ذلك شفاعتُه ﷺ في عمِّه أبي طالبٍ، فقد أذن له الله ﷻ فيها، قال ﷺ: «**فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ**». مُتَّفقٌ عليه. وسبب إذن الله ﷻ له في أن يشفع في عمِّه دون أبيه وأمِّه أنَّ عمَّه نصره ودافع عنه، وذبَّ عن الإسلام.

مثال تقديم الـمَعنى اللُّغويِّ على الشَّرعيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[التَّوبة:١٠٣]، نحملُها علىٰ المَعنىٰ اللُّغويِّ للصَّلاة، أي: ادعُ لهم، وذلك لحديث ابن أبي أوفىٰ في «الصَّحيحين»: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**»، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ**».

مثال اتِّفاق الـمَعنى اللُّغويِّ مع الشَّرعيِّ:

لفظ (السَّماء) مَعناه في اللُّغة: العلوُّ، أو السَّقف المَرفوعُ، وكذا في الشَّرع، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[المُلك:١٦] أي: في العُلُوِّ، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ﴾ [الذَّاريات:٤٧] أي: السَّماء المَبنيَّةُ الَّتي هي السَّقف المَرفوع.

رَابِعًا: الاِخْتِلافُ الْوَارِدُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الِاخْتِلَافُ الْوَارِدُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:
الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: اخْتِلَافٌ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَىٰ، فَهَذَا لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ، مِثَالُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿قَضَىٰ﴾ أَمَرَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَصَّىٰ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَوْجَبَ، وَهَذِهِ التَّفْسِيرَاتُ مَعْنَاهَا وَاحِدٌ أَوْ مُتَقَارِبٌ، فَلَا تَأْثِيرَ لِهَذَا الِاخْتِلَافِ فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ).

أقسامُ الاختلافِ الواردِ في التَّفسيرِ بالـمَأثورِ:

[١] الاختلاف في اللَّفظ دون الـمَعنى:
فلا تأثير له علىٰ معنىٰ الآية.

[٢] الاختلافُ في اللَّفظ والمَعنى، والآية تحتملُ الـمَعنيين:
فتُحملُ الآية علىٰ المَعنيين معًا؛ لأنَّه لا تضادَّ بينهما.

[٣] الاختلافُ في اللَّفظ والمَعنى، والآية لا تحتملُ الـمَعنيين:
فيُرجَّحُ بينهما بما يقتضيه السِّياق، وغير ذلك من القرائن.

قاعدةٌ أولى: بابُ بَيانِ مَعاني القُرآنِ الكريمِ قد بيَّنه القرآنُ، والسُّنَّةُ، والصَّحابةُ، والتَّابعون، فإذا اختلف الصَّحابَةُ والتَّابعونَ علىٰ قَولين فلا يجوزُ إحداثُ قولٍ ثالثٍ، بخِلافِ بابِ الاستِدلالِ والاستِنباطِ من الآياتِ، فهو جائزٌ بشروطِه.
قاعدةٌ ثانيَةٌ: بابُ بيانِ المَعاني أضيَقُ من بابِ الاستدلالِ في تفسير القرآنِ الكريمِ.

مثالُ القسم الأوَّل:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ لفظ (قضىٰ) فُسِّر علىٰ ثلاثة معانٍ: (أَمَرَ)، و(وَصَّىٰ)، و(أَوْجَبَ)، وكلُّها مَعانيها مُتقاربةٌ، فلا تضادَّ بينها، ولهذا لا يُمكن أن يُقال بأنَّ في تفسير الآية ثلاثة أقوالٍ، فلا تأثير للاختلاف.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (القِسمُ الثَّاني: اخْتِلَافٌ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَىٰ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ؛ لِعَدَمِ التَّضَادِّ بَيْنَهُمَا؛ فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَيْهِمَا، وَتُفَسَّرُ بِهِمَا، وَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا الِاخْتِلَافِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ ذُكِرَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمْثِيلِ لِمَا تَعْنِيهِ الْآيَةُ، أَوِ التَّنْوِيعِ.

مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف]، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَقِيلَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَلْقَاءِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ: أَنْ تُحْمَلَ الْآيَةُ عَلَيْهَا كُلِّهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُهَا مِنْ غَيْرِ تَضَادٍّ، وَيَكُونُ كُلُّ قَوْلٍ ذُكِرَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمْثِيلِ.

وَمِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النَّبأ]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿دِهَاقًا﴾ مَمْلُوءَةً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُتَتَابِعَةً، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: صَافِيَةً، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُهَا، فَتُحْمَلُ عَلَيْهَا جَمِيعًا، وَيَكُونُ كُلُّ قَوْلٍ لِنَوْعٍ مِنَ الْمَعْنَىٰ).

المثال الأوّل للقسم الثّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: تخلَّىٰ عنها، كما ينسلخ جلد الشَّاة، ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: اتَّبعه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾[الأعراف] فالله عَزَّوَجَلَّ يرفع بالعلم أقوامًا في الدُّنيا والآخرة، أو في الآخرة دون الدُّنيا، ويضع به آخرين، فاختُلف في الرَّجل المَذكور في الآية، فقيل: من بني إسرائيل، وقيل: من اليمن، وقيل: من البلقاء، وهذا اختلافٌ في اللَّفظ والمَعنىٰ، إلَّا أنَّه يمكن حمل الآية علىٰ الأقوال جميعها لعدم التَّضادِّ بين المَعاني المُفسَّر بها، فتُحمل عليها كلِّها، ويكون المَذكورون من باب التَّمثيل.

لكنَّ لفظ ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ في الآية مُفردٌ، فكيف يحتمل أكثر من شخصٍ؟ الجواب: اسم الموصول وإن كان مُفردًا فإنَّه يدلُّ علىٰ العموم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الزُّمر].

المثال الثَّاني للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾[النَّبأ]، قيل: (مَمْلُوءَةً)، وقيل: (مُتَتَابِعَةً)، وقيل: (صَافِيَةً)، وهي مَعانٍ مُختلفةٌ، لكنَّها غير مُتضادَّةٍ، فتكون الكأس مُتصَّفةٍ بالصِّفات الثَّلاثة معًا.

مثالٌ ثالثٌ للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾[التَّكوير]، ولفظ ﴿عَسۡعَسَ﴾ يعني: (أقبل)، و(أدبر)، ولا تنافي بين المَعنيين، فتُحمل الآية عليهما معًا.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**القِسْمُ الثَّالِثُ: اخْتِلَافُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَىٰ، وَالْآيَةُ لَا تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ مَعًا؛ لِلتَّضَادِّ بَيْنَهُمَا، فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَىٰ الْأَرْجَحِ مِنْهُمَا بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ أَوْ غَيْرِهِ.**

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[البقرة]، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ، وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ، وَقِيلَ: غَيْرَ خَارِجٍ عَلَىٰ الْإِمَامِ وَلَا عَاصٍ بِسَفَرِهِ، وَالْأَرْجَحُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّهُ لَا دَلِيلَ فِي الْآيَةِ عَلَىٰ الثَّانِي، وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِحِلِّ مَا ذُكِرَ دَفْعُ الضَّرُورَةِ، وَهِيَ وَاقِعَةٌ فِي حَالِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ الْإِمَامِ، وَفِي حَالِ السَّفَرِ الْمُحَرَّمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.**

وَمِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾[البقرة: ٢٣٧]، **قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ: هُوَ الزَّوْجُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْوَلِيُّ، وَالرَّاجِحُ الْأَوَّلُ؛ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَىٰ عَلَيْهِ، وَلِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ فِيهِ حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).**

المثال الأوَّل للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي: ما مات حتف نفسه، ويُستثنىٰ منها السَّمكُ والجرادُ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالدَّمَ﴾ أي: المَسفوح، ويُستثنىٰ من الدَّم الكبدُ والطُّحالُ، وما يبقىٰ في اللَّحم والعروق بعد الذَّكاة الشَّرعيَّة، ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ وهو مَعروفٌ، ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: سُمِّي عليه غيرُ اسم الله، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضَّرورة إلىٰ أكل هذه المُحرَّمات، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[البقرة]:

[١] قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (**غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ**) أي: طالبٍ لها، (**وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ**) أي: أكل بقدر الضَّرورة فقط.

[٢] وقيل: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ (**غَيْرَ خَارِجٍ عَلَىٰ الْإِمَامِ**)، و﴿وَلَا عَادٍ﴾ (**وَلَا عَاصٍ بِسَفَرِهِ**).

هذا التَّفسيرُ أرجح؛ لأنَّه يؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾[المائدة]، ولأنَّه لا دليل في الآية علىٰ التَّفسير الثَّاني.

هل يُقدِّم المُضطرُّ الميتة أم ما ذُبح لغير اللَّه؟

لو أنَّ مُضطرًّا وجد ميتةً وذبيحةً ذُبحت لغير الله فإنَّه يأخذ بأقلِّهما ضررًا، والغالب أنَّ الَّتي ذُبحت لغير الله أقلُّ ضررًا من الميتة؛ لأنَّ الميتة قد تسرَّب إليها بعض الميكروبات.

المُسافر يكون:

[١] عاصيًا في سفره:
إذا ارتكب مُحرَّمًا في سفره.
ويجوز له القصر في سفره.

[٢] عاصيًا بسفره:
إذا أنشأ السَّفر لأجل ارتكاب المُحرَّم.
ولا يجوز له القصر في سفره.

المثال الثَّاني للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، الفاء واقعةٌ في جواب الشَّرط، و(نصف) مُبتدأٌ خبره مَحذوفٌ تقديره (فلهُنَّ) أو (فلكم)، ويجوز أن نجعل (نصف) خبر المُبتدأ المَحذوف، ويكون التَّقدير: (فالواجب نصف ما فرضتم)، ويحتمل أن يكون تقديره:

- [١] **واجبٌ لكم**: فيكون النِّصفُ والباقي للأزواج.
- [٢] **واجبٌ لهنَّ**: فيكون النِّصف للزَّوجات، وهذا أقرب إلىٰ المَعنىٰ.

استثنى الله عَزَّوَجَلَّ من وجوب النِّصف:

- [١] ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾: أي تعفو الزَّوجات عن النِّصف الَّذي لهنَّ، وهذا واضحٌ ولا إشكال فيه.
- [٢] ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحُۚ﴾: من هو الَّذي بيده عقدة النِّكاح؟
  - [أ] قال عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (**هُوَ الزَّوْجُ**)، وهو أرجح لأمورٍ.
    - ❖ لأنَّه جاء فيه حديثٌ عن النَّبيِّ ﷺ.
    - ❖ لدلالة التَّقسيم عليه، فـ: ﴿أَن يَعۡفُونَ﴾ للزَّوجات، و﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ﴾ للأزواج، فيكون العفو مُعتبرًا من الجانبين، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن يَعۡفُونَ﴾ يغني عن ذكر الوليِّ؛ لأنَّ كلاهما من جانب الزَّوجة.
    - ❖ لو قلنا: إنَّ الأب يملك أن يعفو عن النِّصف فإنَّ فيه نظرًا؛ لأنَّه يسقط حقَّها، فكيف إذا كان الوليُّ غير الأب؟!
  - [ب] قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (**هُوَ الْوَلِيُّ**).

مثالٌ ثالثٌ للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[البقرة:٢٢٨]، اختلف السَّلف في معنىٰ القروء علىٰ قولين:

[١] **الحِيَض**: وهذا هو الصَّواب؛ لدلالة السُّنَّة في المُستحاضة عليه.

[٢] **الأطهارُ**.

فائدةٌ:

الاختِلافُ في تفسير القرآنِ الكريمِ أقلُّ بكثيرٍ من الاختلافِ في الأحكامِ الفقهيَّةِ، وذلك لأنَّ تفسيرَ القرآنِ هو تبيينُ مَعاني ألفاظِه ومُرادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ منها، وهذا شيءٌ يقلُّ فيه الخِلافُ، بينما الأحكامُ الفقهيَّةُ مَبنيَّةٌ علىٰ الاجتهادِ والنَّظرِ والقياسِ، ولهذا صارَ الاختِلافُ فيها أكثَرَ.

فائدةٌ أخرى:

إنَّما فُسِّرَ القرآنُ الكريمُ من أجلِ الهدايَةِ لا من لمُجرَّدِ معرفةِ الألفاظِ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنزلَ القرآن هدايةً للنَّاسِ، ليُخرِجَهم به من الظُّلُماتِ إلىٰ النُّورِ، ويَهديَهم إلىٰ صراطِ العَزيزِ الحَميدِ، قالَ تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾[إبراهيم].

خَامِسًا: تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّرْجَمَةُ لُغَةً: تُطْلَقُ عَلَىٰ مَعَانٍ تَرْجِعُ إِلَىٰ الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ، وَفِي الِاصْطِلَاحِ: التَّعْبِيرُ عَنِ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ.

وَتَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ: التَّعْبِيرُ عَنْ مَعْنَاهُ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ.

وَالتَّرْجَمَةُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَرْجَمَةٌ حَرْفِيَّةٌ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُوضَعَ تَرْجَمَةُ كُلِّ كَلِمَةٍ بِإِزَائِهَا.

الثَّانِي: تَرْجَمَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، أَوْ تَفْسِيرِيَّةٌ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُعَبَّرَ عَنْ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ الْمُفْرَدَاتِ وَالتَّرْتِيبِ.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزُّخرف].

فَالتَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ: أَنْ يُتَرْجِمَ كَلِمَاتِ هَذِهِ الْآيَةِ كَلِمَةً كَلِمَةً، فَيُتَرْجِمَ (إِنَّا)، ثُمَّ (جَعَلْنَاهُ)، ثُمَّ (قُرْءَانًا)، ثُمَّ (عَرَبِيًّا)، وَهَكَذَا...

وَالتَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ: أَنْ يُتَرْجِمَ مَعْنَىٰ الْآيَةِ كُلِّهَا، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مَعْنَىٰ كُلِّ كَلِمَةٍ وَتَرْتِيبِهَا، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَعْنَىٰ التَّفْسِيرِ الْإِجْمَالِيِّ).

تعريف التَّرجمة:

[١] **لغةً:**

(تُطْلَقُ عَلَىٰ مَعَانٍ تَرْجِعُ إِلَىٰ الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ)، ولهذا إذا كلَّمك إنسانٌ لكلامٍ لا تعرف مَعناه تقول له: ترجم لي هذا، أي: بيِّنه، حتَّىٰ وإن كان بلغتك، فالتَّرجمة والتَّفسير مَعناهما واحدٌ.

[٢] **اصطلاحًا:**

(التَّعْبِيرُ عَنِ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ)، وهذا أصحُّ من قول بعضهم: (نقل اللام من لغةٍ إلىٰ أخرىٰ)؛ لأنَّ الكلام الأوَّل لم يُنقل، ولك عُبِّر عنه، وعليه فترجمة القرآن: (التَّعْبِيرُ عَنْ مَعْنَاهُ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ).

ترجمة القرآن نوعان:

[١] ترجمةٌ حرفيَّةٌ:
(أَنْ يُوضَعَ تَرْجَمَةُ كُلِّ كَلِمَةٍ بِإِزَائِهَا)، فنترجم كلَّ كلمةٍ على حدةٍ بنفس ترتيبها في اللُّغة العربيَّة.

[٢] ترجمةٌ مَعنويَّةٌ تفسيريَّةٌ:
(بِأَنْ يُعَبَّرَ عَنْ مَعْنَى الْكَلَامِ) بدون التَّقيُّد بمَعاني المُفردات، ولا بترتيبها، والتَّرجمة قد تكون أطول أو أقصر من الأصل.

مثَّل المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، و﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنىٰ: صيَّرناه، ﴿قُرْءَٰنًا﴾ مَقروءًا أو قارئًا، بمعنىٰ: جامع، ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾[الزُّخرف] أي: لأجل أن تعقلوه وتفهموه، يُخبر تعالىٰ أنَّه جعله بلغة العرب من أجل أن يعقله العرب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

(حُكْمُ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ:

التَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُسْتَحِيلَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّرْجَمَةِ شُرُوطٌ لَا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهَا مَعَهَا وَهِيَ:
أ. وُجُودُ مُفْرَدَاتٍ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا بِإِزَاءِ حُرُوفِ اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا.
ب. وُجُودُ أَدَوَاتٍ لِلْمَعَانِي فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا مُسَاوِيَةٌ أَوْ مُشَابِهَةٌ لِلْأَدَوَاتِ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا.
ج. تَمَاثُلُ اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا فِي تَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ حِينَ تَرْكِيبِهَا فِي الْجُمَلِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْإِضَافَاتِ.
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ التَّرْجَمَةَ الْحَرْفِيَّةَ يُمْكِنُ تَحَقُّقُهَا فِي بَعْضِ آيَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، وَلَكِنَّهَا -وَإِنْ أَمْكَنَ تَحَقُّقُهَا فِي نَحْوِ ذَلِكَ- مُحَرَّمَةٌ؛ لِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤَدِّيَ الْمَعْنَىٰ بِكَمَالِهِ، وَلَا أَنْ تُؤَثِّرَ فِي النُّفُوسِ تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَيْهَا؛ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا بِالتَّرْجَمَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

وَعَلَىٰ هَـٰذَا فَالتَّرْجَمَـةُ الْحَرْفِيَّـةُ إِنْ أَمْكَنَتْ حِسًّـا فِـي بَعْـضِ الْكَلِمَـاتِ فَهِـيَ مَمْنُوعَـةٌ شَـرْعًا، اللَّهُـمَّ إِلَّا أَنْ يُتَرْجِـمَ كَلِمَةً خَاصَّـةً بِلُغَةٍ مَـنْ يُخَاطِبُـهُ لِيَفْهَمَهَا، مِنْ غَيْـرِ أَنْ يُتَرْجِمَ التَّرْكِيـبَ كُلَّـهُ = فَـلَا بَأْسَ).

يُشترط في جواز التَّرجمة الحرفيَّة ثلاثة شروطٍ:

[١] (**وُجُودُ مُفْرَدَاتٍ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا بِإِزَاءِ حُرُوفِ اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا**)، وهذا قد يتعذَّر؛ لأنَّه يوجد في بعض اللُّغات حروفٌ ساقطةٌ.

[٢] (**وُجُودُ أَدَوَاتٍ لِلْمَعَانِي فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا مُسَاوِيَةً أَوْ مُشَابِهَةً لِلْأَدَوَاتِ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا**)، وهذه أيضًا قد تتعذَّر، وأدوات المَعاني هي: أداة الاستفهام، وأداة والنَّفي، وأداة التَّوكيد، وما أشبهها.

[٣] (**تَمَاثُلُ اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا فِي تَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ حِينَ تَرْكِيبِهَا فِي الْجُمَلِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْإِضَافَاتِ**)، فتجد مثلًا في العربيَّة أنَّ الخبر مُتأخِّرٌ عن المُبتدأ، وتجده في اللُّغات الأخرىٰ مُقدَّمًا عليه، وكذلك تجد الحركات تختلف...

حكم التَّرجمة الحرفيَّة:

[١] (**مُسْتَحِيلَةٌ**): وهو قول الأكثر؛ لعدم تحقُّق الشُّروط الثَّلاثة السَّابقة.

[٢] (**مُحَرَّمَةٌ**): إذا قلنا هي ممُكنةٌ في بعض الآيات أو جزئها، لأسبابٍ:

[أ] لأنَّها لا يمكن أن تُؤدِّي المَعنىٰ بكماله، لا من جهة التَّقديم والتَّأخير، ولا من جهة حروف المَعاني والتَّوكيد...

[ب] لأنَّها لا تؤثِّر في النُّفوس كتأثير القرآن العربيِّ.

[ج] لأنَّ التَّرجمة المَعنويَّة تُغني عنها.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا التَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ لِلْقُرْآنِ فَهِيَ جَائِزَةٌ فِي الْأَصْلِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَحْظُورَ فِيهَا، وَقَدْ تَجِبُ حِينَ تَكُونُ وَسِيلَةً إِلَىٰ إِبْلَاغِ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ لِغَيْرِ النَّاطِقِينَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّ إِبْلَاغَ ذَلِكَ وَاجِبٌ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

لَكِنْ يُشْتَرَطُ لِجَوَازِ ذَلِكَ شُرُوطٌ:

الْأَوَّلُ: أَلَّا تُجْعَلَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ بِحَيْثُ يُسْتَغْنَىٰ بِهَا عَنْهُ، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَابُدَّ أَنْ يُكْتَبَ الْقُرْآنُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ؛ لِتَكُونَ كَالتَّفْسِيرِ لَهُ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ عَالِمًا بِمَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا، وَمَا تَقْتَضِيهِ حَسَبَ السِّيَاقِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَعَانِي الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ.

وَلَا تُقْبَلُ التَّرْجَمَةُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا مِنْ مَأْمُونٍ عَلَيْهَا، بِحَيْثُ يَكُونُ مُسْلِمًا مُسْتَقِيمًا فِي دِينِهِ).

حكم التَّرجمة المَعنويَّة:

- [١] **جائزةٌ**: في الأصل؛ لأنَّه لا مَحذور فيها.
- [٢] **واجبةٌ**: إذا توقَّف عليها إبلاغُ الشَّرع؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فو واجبٌ، مثل ترجمة خطبة الجمعة، نقول: واجبةٌ؛ لأنَّ غير النَّاطقين بالعربيَّة لا يدرون ماذا يقول الخطيب.

شروط جواز التَّرجمة المَعنويَّة أربعةٌ:

ثلاثة شروطٍ تعود إلى حكم التَّرجمة:

- [١] (أَلَّا تُجْعَلَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ بِحَيْثُ يُسْتَغْنَىٰ بِهَا عَنْهُ).
- [٢] (أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ عَالِمًا بِمَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ).
- [٣] (أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَعَانِي الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ).

شرطٌ لا يعود إليها:

- [٤] أن يكون المُترجم مأمونًا: (مُسْلِمًا مُسْتَقِيمًا).

توضيح الشَّرط الأوَّل:

لا ينبغي أن يُكتب القرآن كلُّه بالتَّرجمة المَعنويَّة فقط، بحيث لا يُقرأ القرآن، فإنَّ هذا لا يجوز؛ لأنَّه لابدَّ أن يُقرأ القرآن، فأفضل سبيلٍ في ذلك أن نجعل القرآن باللُّغة العربيَّة في صفحةٍ، والتَّرجمة في صفحةٍ، أو في نصفِ صفحةٍ والتَّرجمة في نصف صفحةٍ.

توضيح الشَّرط الثَّاني:

لابدَّ أن يكون المُترجم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللُّغتين، وما تقتضيه الألفاظ حسب السِّياق، حتَّىٰ يتمكَّن من التَّعبير عن إحدىٰ اللُّغتين بالأخرىٰ، وأمَّا إذا لم يكن قويًّا فلا يحلُّ له أن يُترجم، ولا يُؤمر.

بيان الشَّرط الثَّالث:

لابدَّ أن يكون المُترجم عالمًا بمعاني الألفاظ الشَّرعيَّة في القرآن، فيعرف مَعنىٰ الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجِّ، والغيبة... فإن لم يكن عالمًا بها فلا يجوز؛ لأنَّه ربَّما يُفسِّرها بمُقتضىٰ اللُّغة العربيَّة دون الحقيقة الشَّرعيَّة.

بيان الشَّرط الرَّابع:

لابدَّ أن يكون المُترجم مَوثوقًا، ذا عقيدةٍ سليمةٍ، نأمن منه ألَّا يُحرِّف القرآن علىٰ عقيدته.

هل القرآنُ المُترجَمُ يأخذ حكم القرآن الأصل؟

القرآنُ المُترجَمُ لا يأخذ حكم القرآن غير المُترجَم، فيجوز مسُّه بغير وضوءٍ، ويجوز بيعُه وشراؤُه... إلخ، لكن إذا وُجد الأصلُ فيُنظر إلىٰ أيِّهما أكثر، فيكون الحكمُ للأكثر.

سَادِسًا: الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (اشْتَهَرَ بِالتَّفْسِيرِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ مِنْهُمُ: الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ؛ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ الرِّوَايَةَ عَنِ الثَّلَاثَةِ الْأَوَّلِينَ لَمْ تَكُنْ كَثِيرَةً لِانْشِغَالِهِمْ بِالْخِلَافَةِ، وَقِلَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ النَّقْلِ فِي ذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْعَالِمِينَ بِالتَّفْسِيرِ.

وَمِنَ الْمُشْتَهِرِينَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيْضًا: عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، فَلْنَتَرْجِمْ لِحَيَاةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَعَ هَذَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ

[١] **عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ**: هُوَ ابْنُ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ، وَزَوْجُ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ، اشْتَهَرَ بِهَذَا الِاسْمِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو الْحَسَنِ، وَأَبُو تُرَابٍ.

وُلِدَ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَشْرِ سِنِينَ، وَتَرَبَّى فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَهِدَ مَعَهُ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا، وَكَانَ صَاحِبَ اللِّوَاءِ فِي مُعْظَمِهَا، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، خَلَّفَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَهْلِهِ، وَقَالَ لَهُ: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي؟».

نُقِلَ لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَضَائِلِ مَا لَمْ يُنْقَلْ لِغَيْرِهِ، وَهَلَكَ بِهِ طَائِفَتَانِ:

- النَّوَاصِبُ: الَّذِينَ نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ، وَحَاوَلُوا إِخْفَاءَ مَنَاقِبِهِ.

- وَالرَّوَافِضُ: الَّذِينَ بَالَغُوا فِيمَا زَعَمُوهُ مِنْ حُبِّهِ، وَأَحْدَثُوا لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ الَّتِي وَضَعُوهَا مَا هُوَ فِي غِنًى عَنْهُ؛ بَلْ هُوَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ مِنَ الْمَثَالِبِ.

اشْتَهَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالذَّكَاءِ مَعَ الْعِلْمِ وَالزَّكَاءِ، حَتَّىٰ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَتَعَوَّذُ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو الْحَسَنِ، وَمِنْ أَمْثِلَةِ النَّحْوِيِّينَ: قَضِيَّةٌ وَلَا أَبَا حَسَنٍ لَهَا، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: سَلُونِي، سَلُونِي، وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَوَاللهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أُنْزِلَتْ بِلَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِذَا جَاءَنَا الثَّبْتُ عَنْ عَلِيٍّ لَمْ نَعْدِلْ بِهِ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَخَذْتُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

كَانَ أَحَدَ أَهْلِ الشُّورَىٰ الَّذِينَ رَشَّحَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِتَعْيِينِ الْخَلِيفَةِ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَأَبَى إِلَّا بِشُرُوطٍ لَمْ يَقْبَلْ بَعْضَهَا، ثُمَّ بَايَعَ عُثْمَانَ، فَبَايَعَهُ عَلِيٌّ وَالنَّاسُ، ثُمَّ بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ عُثْمَانَ حَتَّىٰ قُتِلَ شَهِيدًا فِي الْكُوفَةِ لَيْلَةَ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ أَرْبَعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).

عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ)، وأوَّل مَن آمن مِن الصَّحابة الرِّجال مُطلقًا فـ:

[١] **ورقة بن نوفلٍ**: هو أوَّل من آمن بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ، آمن قبل الرِّسالة، ومات قبلها، فإذا عرَّفنا الصَّحابيِّ بأنَّه من آمن بالنَّبيِّ ﷺ ولو قبل الرِّسالة، فإنَّه يكون صحابيًّا، وأسلم قبل أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولمَّا قصَّ عليه النَّبيُّ ﷺ ما حصل في الغار قال: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». مُتَّفَقٌ عليه.

[٢] **أبو بكرٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو أوَّل من آمن برسالة النَّبيِّ ﷺ، أقرَّ له بذلك عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كُنيةُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

[١] **أبو الحسن**: لأنَّ أكبر أولاده هو الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٢] **أبو ترابٍ**: كنَّاه بها النَّبيُّ ﷺ، رآه وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ». مُتَّفَقٌ عليه.

بيانُ كذبِ الرَّوافض في زعمِهم حبَّ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَالرَّوَافِضُ الَّذِينَ بَالَغُوا فِيمَا زَعَمُوهُ مِنْ حُبِّهِ**)؛ لأنَّ هذا الَّذي يُظهرونه، لكنَّ حقيقة الأمر أنَّهم يُخالفونه في أشياء؛ كإعلانه علىٰ المنبر أنَّ أبا بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هما خير الأمَّة، وروايته المسح علىٰ الخفَّين عن النَّبيِّ ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَأَحْدَثُوا لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ الَّتِي وَضَعُوهَا مَا هُوَ فِي غِنًى عَنْهُ؛ بَلْ هُوَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ مِنَ الْمَثَالِبِ**)، ومن ذلك زعمُهم أنَّه كان يصلِّي بين المَغرب والعشاء ألف ركعةٍ! وهذا إن صحَّ فإنَّه من أكبر المثالب؛ إذ كيف يكون ركوعه وسجوده؟! وقال النبيُّ ﷺ للأعرابيِّ الَّذي لم يطمئنَّ في صلاته: «**إِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**». مُتَّفَقٌ عليه.

مَعنى قوله ﷺ: «بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»:

موسىٰ عليه السلام قال لهارون عليه السلام: اخلُفني في قومي، واصبر، والنَّبيُّ ﷺ لمَّا خَرَجَ إِلَىٰ تَبُوكَ اسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: «**أَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ**»، فهو من النَّبيِّ ﷺ بمنزلة هارون من موسىٰ في هذه الخلافة المَخصوصة المَقصورة، وليس في الخلافة المُطلقة كما زعمت الرَّافضة.

قولُه رحمه الله: (يَتَعَوَّذُ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو الْحَسَنِ):

المُعضِلةُ هي المشكلة الَّتي تعضُلُ الإنسانَ وتقطع تفكيره، وقد كان عليٌّ مَعروفًا بالذَّكاء والعقل، فإذا كان أبو الحسن رحمه الله للمُعضلة فُرجت.

قَالَ المُصنِّف رحمه الله: (٢) **عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ**: هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ غَافِلٍ الْهُذَلِيُّ، وَأُمُّهُ أُمَّ عَبْدٍ، كَانَ يُنْسَبُ إِلَيْهَا أَحْيَانًا، وَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَهَاجَرَ الْهِجْرَتَيْنِ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ.

تَلَقَّىٰ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ: «إِنَّكَ لَغُلَامٌ مُعَلَّمٌ»، وَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَقَالَ: وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ.

وَكَانَ مِمَّنْ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَانَ صَاحِبَ نَعْلَيْهِ وَطَهُورِهِ وَوِسَادِهِ، حَتَّىٰ قَالَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ: قَدِمْتُ أَنَا وَأَخِي مِنَ الْيَمَنِ، فَمَكَثْنَا حِينًا مَا نَرَىٰ إِلَّا أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِمَا نَرَىٰ مِنْ دُخُولِهِ وَدُخُولِ أُمِّهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ أَجْلِ مُلَازَمَتِهِ النَّبِيَّ ﷺ تَأَثَّرَ بِهِ وَبِهَدْيِهِ، حَتَّىٰ قَالَ فِيهِ حُذَيْفَةُ: مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ هَدْيًا وَسَمْتًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ.

بَعَثَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَىٰ الْكُوفَةِ لِيُعَلِّمَهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَبَعَثَ عَمَّارًا أَمِيرًا، وَقَالَ:

إِنَّهُمَا مِنَ النُّجَبَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاقْتَدُوا بِهِمَا، ثُمَّ أَمَّرَهُ عُثْمَانُ عَلَى الْكُوفَةِ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَأَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتُوُفِّيَ فِيهَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، وَدُفِنَ بِالْبَقِيعِ وَهُوَ ابْنُ بِضْعٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً).

دفع شبهةٍ:

قال ابن مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ)، وقال: (وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ)، ولا شكَّ أنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يريد أن يزكِّي نفسه؛ لأنَّه أطهر من ذلك، لكنَّه أراد أن يحثَّ النَّاس علىٰ تلقِّي التَّفسير عنه؛ لأنَّ النَّاس إذا علموا أنَّه بهذه المَنزلة من العلم أكبُّوا عليه، وأخذوا منه، وهذا لا حرج فيه عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله تعالىٰ أعلم بالنِّيَّات.

خدمتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنَّبيِّ ﷺ:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَانَ صَاحِبَ نَعْلَيْهِ) أي: يحمل النَّعلين إن استغنىٰ عنهما النَّبيُّ ﷺ، (وَطَهُورِهِ) أي: الماء الَّذي يتطهَّر به النَّبيُّ ﷺ، (وَوِسَادِهِ) أي: الوسادة الَّتي يتَّكئ عليها.

قُربُ سَمتِه ودَلِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النَّبيِّ ﷺ:

قال حذيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ هَدْيًا وَسَمْتًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِن ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ). أخرجه البخاريُّ.

ولهذا كان كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُشبه كلام النَّبيِّ ﷺ، حتَّىٰ لكأنَّه يخرج من مِشكاة النُّبوَّة، ومن ذلك قولُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهِنَّ...). أخرجه مسلمٌ.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (٣] عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وُلِدَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، لَازَمَ النَّبِيَّ ﷺ لِأَنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ، وَخَالَتُهُ مَيْمُونَةُ تَحْتَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَضَمَّهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ صَدْرِهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «الْكِتَابِ»، وَقَالَ لَهُ حِينَ وَضَعَ لَهُ وَضُوءَهُ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، فَكَانَ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ حَبْرَ الْأُمَّةِ فِي نَشْرِ التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ، حَيْثُ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْحِرْصِ عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَالْجِدِّ فِي طَلَبِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ تَلَقِّيهِ وَبَذْلِهِ، فَنَالَ بِذَلِكَ مَكَانًا عَالِيًا، حَتَّىٰ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ مَجَالِسِهِ، وَيَأْخُذُ بِقَوْلِهِ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: أَلَا تَدْعُو أَبْنَاءَنَا كَمَا تَدْعُو ابْنَ عَبَّاسٍ؟! فَقَالَ لَهُمْ: ذَاكُمْ فَتَىٰ الْكُهُولِ، لَهُ لِسَانٌ سَؤُولٌ، وَقَلْبٌ عَقُولٌ، ثُمَّ دَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ لِيُرِيَهُمْ مِنْهُ مَا رَآهُ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ حَتَّىٰ خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا فُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَكَذَلِكَ تَقُولُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النَّصر]، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَنِعْمَ تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ، لَوْ أَدْرَكَ أَسْنَانَنَا مَا عَاشَرَهُ مِنَّا أَحَدٌ، أَيْ: مَا كَانَ نَظِيرًا لَهُ، هَذَا مَعَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ عَاشَ بَعْدَهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا اكْتَسَبَ بَعْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ؟!

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ لِسَائِلٍ سَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ: انْطَلِقْ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَاسْأَلْهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ مَنْ بَقِيَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ عَطَاءٌ: مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَكْرَمَ مِنْ مَجْلِسِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِقْهًا، وَأَعْظَمَ خَشْيَةً، إِنَّ أَصْحَابَ الْفِقْهِ عِنْدَهُ، وَأَصْحَابَ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ، وَأَصْحَابَ الشِّعْرِ عِنْدَهُ، يُصَدِّرُهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ وَادٍ وَاسِعٍ.

وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: خَطَبَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ عَلَىٰ الْمَوْسِمِ -أَيْ: وَالٍ عَلَىٰ مَوْسِمِ الْحَجِّ مِنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فَافْتَتَحَ سُورَةَ النُّورِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيُفَسِّرُ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: مَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ كَلَامَ رَجُلٍ مِثْلِهِ، وَلَوْ سَمِعَتْهُ فَارِسٌ وَالرُّومُ وَالتُّرْكُ لَأَسْلَمَتْ!

وَلَّاهُ عُثْمَانُ عَلَىٰ مَوْسِمِ الْحَجِّ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ، وَوَلَّاهُ عَلِيٌّ عَلَىٰ الْبَصْرَةِ، فَلَمَّا قُتِلَ مَضَىٰ إِلَىٰ الْحِجَازِ، فَأَقَامَ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا إِلَىٰ الطَّائِفِ فَمَاتَ فِيهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ عَنْ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ سَنَةً).

[٥] أُبَيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو أبو المُنذِرِ أُبَيُّ بنُ كَعبِ بنِ قَيسٍ الأنصاريُّ، من بني النَّجَّارِ مِن الخَزرَجِ، أسلَمَ قبلَ الهِجرَةِ، وشَهِدَ بيعةَ العقبَةِ الثَّانيةِ مع السَّبعين من الأنصارِ، وشَهِدَ مع النَّبيِّ ﷺ بدرًا، وأُحُدًا، والخندقَ، والمَشاهِدَ كلَّها، كان أحدَ الأربعَةِ الَّذين جمَعوا القرآنَ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ، وعرَضَه عليه ﷺ في حياتِه، وقالَ له ﷺ كما عند مسلمٍ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»، يشهَدُ له بالعلمِ، وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتُبُ الوَحيَ.

تفرَّغ للعِبادَةِ بعد وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ لمَّا رَأىٰ حاجَةَ النَّاسِ إليه جلَسَ للتَّعليمِ، فعُرِفَ بتَفسيرِ القرآنِ، ورِوايَةِ الحَديثِ، وأخَذَ عنه ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغَيرُه مِن صِغارِ الصَّحابَةِ.

اختُلِفَ في وفاتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والأكثَرُ علىٰ أنَّها في خِلافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قاعدةٌ: يُقبَلُ قَولُ الصَّحابِيِّ في المُغَيَّباتِ بشَرطَينِ:

[١] ألَّا يَكونَ في الخبرِ شُبهَةُ كَونِه من الإسرائيلِيَّاتِ.

[٢] ألَّا يكونَ الرَّاوي ممَّن عُرِفَ بالأخذِ عن بَني إسرائيلَ.

سَابِعًا: الْـمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (اشْتَهَرَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ كَثِيرُونَ، فَمِنْهُمْ:

أ. **أَهْلُ مَكَّةَ**: وَهُمْ أَتْبَاعُ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَمُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ.

ب. **أَهْلُ الْمَدِينَةِ**: وَهُمْ أَتْبَاعُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ كَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ.

ج. **أَهْلُ الْكُوفَةِ**: وَهُمْ أَتْبَاعُ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ كَقَتَادَةَ، وَعَلْقَمَةَ، وَالشَّعْبِيِّ.

فَلْنُتَرْجِمْ لِحَيَاةِ اثْنَيْنِ مِنْ هَؤُلَاءِ: مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ.

١. **مُجَاهِدٌ**: هُوَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرٍ الْمَكِّيُّ، مَوْلَى السَّائِبِ بْنِ أَبِي السَّائِبِ الْمَخْزُومِيِّ، وُلِدَ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَأَخَذَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ، وَاعْتَمَدَ تَفْسِيرَهُ الشَّافِعِيُّ، وَالْبُخَارِيُّ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُ عَنْهُ فِي «صَحِيحِهِ»، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي آخِرِ تَرْجَمَتِهِ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى إِمَامَةِ مُجَاهِدٍ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ، تُوُفِّيَ فِي مَكَّةَ وَهُوَ سَاجِدٌ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ عَنْ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً.

٢. **قَتَادَةُ**: هُوَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِيُّ الْبَصْرِيُّ، وُلِدَ أَكْمَهَ -أَيْ: أَعْمَى- سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّينَ، وَجَدَّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَكَانَ لَهُ حَافِظَةٌ قَوِيَّةٌ، حَتَّى قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: مَا قُلْتُ لِمُحَدِّثٍ قَطُّ أَعِدْ لِي، وَمَا سَمِعَتْ أُذُنَايَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا وَعَاهُ قَلْبِي، وَذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، فَجَعَلَ يَنْشُرُ مِنْ عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِالِاخْتِلَافِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَوَصَفَهُ بِالْحِفْظِ وَالْفِقْهِ، وَقَالَ: قَلَّمَا تَجِدُ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ، أَمَّا الْمِثْلُ فَلَعَلَّ، وَقَالَ: هُوَ أَحْفَظُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ، وَتُوُفِّيَ فِي وَاسِطٍ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ عَنْ سِتَّةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَلَّمَا تَجِدُ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ)، يعني: لم يكن شخصٌ أعظم منه، (أَمَّا الْمِثْلُ فَلَعَلَّ) ولم يجزم بأن يكون له مثيلٌ.

وقد رُمي قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ بالتَّدليس، لكنَّهم يقولون: إنَّ روايته عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ (عن) مُتَّصلةٌ، ولهذا يروي عنه البخاريُّ ومسلمٌ بهذه الصِّيغة عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُشتَهِرونَ بالتَّفسيرِ مِن التَّابعينَ:

[١] **مدرسةُ التَّفسيرِ بمكَّةَ**
(**ابن عبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا):
[أ] سعيدُ بن جُبيرٍ.
[ب] مُجاهد بن جبر.
[ج] عِكرمة بن عبد اللَّه مَولىٰ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
[د] طاوس بنُ كيسانَ.
[هـ] عطاء بن أبي رباحٍ.

[٢] **مدرسةُ التَّفسيرِ بالمدينةِ**
(**أبيُّ بن كعبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ):
[أ] أبو العالية رُفيعُ بن مِهرانَ الرِّياحيُّ.
[ب] محمَّد بن كعبٍ القرظيُّ.
[ج] زيدُ بن أسلَمَ.

[٣] **مدرسةُ التَّفسيرِ بالعراقِ**
(**ابن مسعودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ):
[أ] علقمة بن قيسٍ.
[ب] مَسروقُ بن الأجدَعِ.
[ج] الأسود بن يزيد.
[د] مُرَّةُ الهمدانيُّ.
[هـ] عامرُ الشَّعبيُّ.
[و] الحسن البصريُّ.
[ز] قتادةُ بن دِعامةَ.

الاِخْتِبَارُ الثَّاني

اختر الإجابة الصَّحيحة:

- تعلُّم التَّفسير: ○ واجبٌ. ○ مستحبٌّ. ○ جائزٌ.
- أكثرُ مَن رُوي عنه التَّفسير مِن هؤلاء: ○ أبو بكرٍ. ○ عمر. ○ ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.
- أقوالُ التَّابعين في التَّفسير: ○ حجَّةٌ. ○ ليست حجَّةً. ○ حجَّةٌ علىٰ مَن بعدهم.
- السَّلفُ هم: ○ الصَّحابةُ. ○ التَّابعون. ○ أهلُ القرون الثَّلاثة المُفضَّلةِ.
- مِن أشهر مَن عُنِيَ بتفسير القرآن بالقرآن: ○ الثَّعلبيُّ. ○ ابنُ كثيرٍ. ○ الألوسيُّ.
- تفسيرُ آيات الأحكام والاستنباطُ منها يُسمَّىٰ:
  ○ التَّفسيرَ بالمأثور. ○ التَّفسير الفقهيَّ. ○ التَّفسيرَ العلميَّ.
- صاحبُ «الدُّرِّ المَنثور في التَّفسير بالمَأثور» هو:
  ○ ابنُ الجوزيِّ. ○ النَّوويُّ. ○ ابنُ العربيِّ. ○ السُّيوطيُّ.
- اشتهر ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمعرفة:
  ○ النَّاسخ والمَنسوخ. ○ أسبابِ النُّزولِ. ○ لغاتِ العربِ.
- صاحبُ «البحر المُحيطِ» هو: ○ أبو حيَّانَ. ○ البيضاويُّ. ○ النَّسفيُّ.
- قامت المرحلة الأولىٰ من مراحل التَّفسير علىٰ:
  ○ الرِّوايةِ والحفظ. ○ اختِصارِ الأسانيدِ. ○ الكتابةِ.
- سمَّىٰ الشَّوكانيُّ تفسيرَه: ○ «روحَ المَعاني». ○ «الكشَّافَ». ○ «فتحَ القدير».
- الأقوالُ المتعارضةُ في التَّفسير تُسمَّىٰ اختلافَ: ○ تنوُّعٍ. ○ تضادٍّ. ○ الجميع.
- عند تعارض أقوال المُفسِّرين نلجأ إلىٰ:
  ○ الجمعِ بين الأقوالِ. ○ التَّرجيحِ. ○ التَّوقُّفِ.
- اعتنىٰ ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره بـ:
  ○ المَأثورِ. ○ المَأثورِ والنَّقد والتَّرجيح بين الأقوال. ○ الأحكامِ الفقهيَّة.
- توسيعُ دلالة بعضِ الآيات بما ثبت في الحقائق العلميَّة يُسمَّىٰ بالتَّفسيرِ:
  ○ العقليِّ. ○ البيانيِّ. ○ العلميِّ.
- أقلُّ المَذاهب تأليفًا في التَّفسير الفقهيِّ: ○ المالكيَّةُ. ○ الحَنابلةُ. ○ الشَّافعيَّةُ.

۞ الَّذي جمع «أحكام القرآن» للشَّافعيِّ: ○ العراقيُّ. ○ البيهقيُّ. ○ ابنُ حجرٍ.
۞ ظهرت بوادرُ التَّفسير العقليِّ في عصر: ○ السَّلف. ○ المُعتزلةِ. ○ الحديثِ.
۞ كُتب معاني القرآن مِن مَصادرِ التَّفسيرِ: ○ العلميِّ. ○ البيانيِّ. ○ اللُّغويِّ.
۞ اختصر البغويُّ تفسيره مِن تفسير: ○ ابن جريرٍ. ○ ابن كثيرٍ. ○ الثَّعلبيِّ.
۞ غلبت النَّاحية البلاغيَّة علىٰ تفسير: ○ الزَّمخشريِّ. ○ الواحديِّ. ○ ابن جُزيٍّ.
۞ نصر الزَّمخشريُّ في تفسيره مذهب: ○ الأشاعرةِ. ○ المُعتزلةِ. ○ أهل السُّنَّة.
۞ ممَّن اعتنىٰ بالتَّرجيح بين الأقوال: ○ ابنُ الجوزيِّ. ○ ابنُ عطيَّة. ○ الماَورديُّ.
۞ اشتملت «مقدِّمةٌ في أصول التَّفسير» لابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ: ○ تفسيرِ بعض سور القرآن. ○ نقدِ بعض كتب التَّفسير. ○ شرحِ بعض الاحاديث.
۞ جمع البيهقيُّ «أحكام القرآن» لـ: ○ الشَّافعيِّ. ○ ابنِ عطيَّة. ○ أبي حنيفة.
۞ تقديمُ العقل عند المُنازعة بينه وبين ظاهر الآيات يُسمَّىٰ التَّفسيرَ:
○ بالظَّاهرِ. ○ العلميَّ. ○ العقليَّ. ○ الإشاريَّ.
۞ من الأُسسِ الَّتي بُني عليها منهج المدرسة العقليَّة في التَّفسير الوِحدةُ المَوضوعيَّةُ في: ○ السُّورةِ القرآنيَّة. ○ القرآنِ الكريمِ. ○ الجميع.
۞ مِن مَصادرِ التَّفسير اللُّغويِّ كتب:
○ غريبِ القرآن. ○ أحكامِ القرآنِ. ○ التَّفسيرِ العلميِّ.
۞ ممَّن شنَّع علىٰ أهل السُّنَّةِ في تفسيره:
○ ابنُ جُزيٍّ. ○ ابنُ جريرٍ. ○ الزَّمخشريُّ. ○ السُّيوطيُّ.
۞ ذكرَ القُرطبيُّ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: ○ تفسيرَ آيات الأحكام فقط. ○ تفسيرَ القرآنِ كلِّه مع مَزيدِ عِنايةٍ بآيات الأحكام. ○ الفقهَ علىٰ مذهب الحنفيَّة.
۞ جمع كتابُ «القواعدِ الحِسان» للسِّعديِّ (○ ٤٠ ○ ٦٠ ○ ٥٠ ○ ٧١) قاعدةً.
۞ اشتمل كتابُ «التَّفسيرُ والمُفسِّرون» علىٰ: ○ تفسيرِ القرآن كلِّه. ○ تفسيرِ بعض سور القرآن. ○ التَّفسيرِ العلميِّ. ○ نشأةِ التَّفسير، وتطوُّرِه ومَناهجِ المُفسِّرين، وألوانِ التَّفسير.
۞ لم يثبُت وُقوعُ التَّأليفِ والجَمعِ في علم التَّفسير إلَّا بعد:
○ زمنِ الصَّحابةِ. ○ زمنِ التَّابعين. ○ القرنِ الخامسِ. ○ القرنِ السَّادسِ.

۞ مُجاهد بن جَبْرٍ من تلاميذ مدرسة التَّفسير في: ○ الكوفةِ. ○ المدينةِ. ○ مكَّةَ.
۞ ألَّف ابنُ عطيَّة تفسيرًا سُمِّيَ بـ: ○ «البحرِ المُحيطِ». ○ «السِّراجِ المُنيرِ».
○ «المِصباحِ المُنيرِ». ○ «المحرَّرِ الوَجيزِ».
۞ مِن أسبابِ اختلافِ التَّنوُّع: ○ الاختلافُ في اللَّفظِ مع الاتِّفاق في المعنىٰ.
○ ذِكرُ بعض أفراد العامِّ علىٰ سبيل المثال. ○ أن يكونَ اللَّفظُ مُحتملًا لأكثر من مَعنًىٰ. ○ جميعُ ما ذُكِر.
۞ من أسباب اختلافِ التَّضادِّ: ○ الاختلافُ في المعنىٰ اللُّغويِّ. ○ الاختلافُ بسبب المَذهب العقديِّ. ○ الاختلافُ بسبب المذهب الفقهيِّ. ○ جميعُ ما ذُكِر.
۞ الاختلافُ في تفسير السَّبع المَثاني لأجل:
○ الاختلافِ في الرِّوايةِ عن الرَّسول ﷺ. ○ الاختلافِ في عَود الضَّمير.
○ الاختلافِ في المُطلقِ والمُقيَّدِ. ○ الاختلافِ في العامِّ والخاصِّ.
۞ مُصطلحُ تفسير القرآن بالقرآن: ○ يلزم منه القطعُ بصحَّة ذلك التَّفسير.
○ لا يلزم منه القطعُ. ○ يلزمُ منه التَّوقُّفُ.
۞ اعتنىٰ ابنُ كثيرٍ في تفسيره بـ:
○ الإعرابِ. ○ تفسيرِ القرآن بالقرآن. ○ البلاغةِ. ○ الأوَّلِ والثَّالثِ.
۞ مُصطلحُ السُّنَّة النَّبويَّة: ○ أعمُّ من التَّفسير النَّبويِّ. ○ أخصُّ من التَّفسير النَّبويِّ. ○ ليس بينهما فرقٌ. ○ لا شيء ممَّا ذُكِرَ.
۞ التَّفسيرُ المَنقولُ عن الصَّحابة له حُكمُ:
○ المَرفوعِ. ○ المَوقوفِ. ○ المَقطوعِ. ○ يختلفُ؛ لأنَّ له أنواعًا مُختلفةً.
۞ اذا اختلف الصَّحابةُ في التَّفسير فأقوالُهم:
○ ليست بحجَّةٍ. ○ حُجَّةٌ. ○ يُرجَّح بينَها. ○ لا شيء ممَّا ذُكِرَ.
۞ علقمة بن قيسٍ النَّخعيُّ رَحِمَهُ اللهُ من تلاميذِ مدرسة التَّفسير في:
○ الكوفةِ. ○ المدينةِ. ○ مكَّةَ.
۞ أغلب الاختلاف بين الصَّحابة في التَّفسير من اختلافِ: ○ التَّنوُّعِ. ○ التَّضادِّ.
۞ توفِّي الإمامُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ سنة: ○ ٩١١هـ. ○ ٧٧٤هـ. ○ ٥١٦هـ. ○ ٣١٠هـ.
۞ معنىٰ «التَّفسير» في اللُّغة: ○ الرُّجوعُ. ○ الإبانةُ والكشفُ. ○ أساسُ الشَّيء.

۞ سلك الشَّيخُ عبد الرَّحمن ابنُ سعديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره أسلوب التَّفسير:
❍ التَّحليليِّ. ❍ الإجماليِّ. ❍ المَوضوعيِّ.

۞ كتابُ «أحكامِ القرآن» لأبي بكر ابن العربيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن المُؤلَّفات على المذهب:
❍ الشَّافعيِّ. ❍ الحنفيِّ. ❍ الحنبليِّ. ❍ المالكيِّ.

۞ يتميَّزُ تفسير «زاد المَسير» لابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بـ: ❍ ذِكر الرِّوايات بأسانيدها. ❍ جَمْع أقوالِ المُفسِّرين وترتيبها. ❍ التَّوسُّع في الإعراب والمَسائل النَّحويَّة.

۞ مُؤلِّفُ «الدُّرِّ المَنثور»: ❍ الطَّبريُّ. ❍ البيضاويُّ. ❍ السُّيوطيُّ. ❍ البغويُّ.

۞ اسمُ المُفسِّرِ ابنِ عطيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ هو: ❍ إسماعيلُ بن عمر. ❍ عبدُ الحقِّ بن غالبٍ. ❍ الحُسين بن مسعودٍ. ❍ محمَّدُ بنُ جريرٍ.

۞ تفسيرُ البغويِّ مُختصرٌ من: ❍ الطَّبريِّ. ❍ ابنِ كثيرٍ. ❍ ابنِ عطيَّةَ. ❍ الثَّعلبيِّ.

۞ مِن التَّفاسيرِ الَّتي سلكت التِّجاهَ الجتِماعيَّ في التَّفسيرِ:
❍ تفسيرُ الزَّمخشريِّ. ❍ تفسيرُ الرَّازيِّ. ❍ تفسيرُ المَنارِ.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ: الْقُرْآنُ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ

أَوَّلاً: وَصْفُ الْقُرْآنِ بِالإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ

قَالَ الْمُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (يَتَنَوَّعُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِاعْتِبَارِ الإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الأَوَّلُ: الإِحْكَامُ الْعَامُّ الَّذِي وُصِفَ بِهِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[هود]، وَقَوْلِهِ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[يونس]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾[الزُّخرف].

وَمَعْنَىٰ هَذَا الإِحْكَامِ: الإِتْقَانُ وَالْجَوْدَةُ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَهُوَ فِي غَايَةِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، أَخْبَارُهُ كُلُّهَا صِدْقٌ نَافِعَةٌ، لَيْسَ فِيهَا كَذِبٌ، وَلَا تَنَاقُضٌ، وَلَا لَغْوٌ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَأَحْكَامُهُ كُلُّهَا عَدْلٌ، وَحِكَمُهُ لَيْسَ فِيهَا جَوْرٌ، وَلَا تَعَارُضٌ، وَلَا حُكْمٌ سَفِيهٌ.

النَّوْعُ الثَّانِي: التَّشَابُهُ الْعَامُّ الَّذِي وُصِفَ بِهِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمر:٢٣].

وَمَعْنَىٰ هَذَا التَّشَابُهِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْكَمَالِ، وَالْجَوْدَةِ، وَالْغَايَاتِ الْحَمِيدَةِ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾[النِّساء].

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الإِحْكَامُ الْخَاصُّ بِبَعْضِهِ، وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ بِبَعْضِهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾[آل عمران].

وَمَعْنَىٰ هَذَا الإِحْكَامِ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ الآيَةِ وَاضِحًا جَلِيًّا، لَا خَفَاءَ فِيهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[الحجرات:١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾[البقرة] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾[البقرة: ٢٧٥] وَقَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[المائدة:٣]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمَعْنَىٰ هَـٰذَا التَّشَابُهِ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْآيَةِ مُشْتَبِهًا خَفِيًّا، بِحَيْثُ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ الْوَاهِمُ مَا لَا يَلِيقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ، أَوْ كِتَابِهِ، أَوْ رَسُولِهِ، وَيَفْهَمُ مِنْهُ الْعَالِمُ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ خِلَافَ ذَلِكَ).

وُصف القرآن بأنَّه:

[١] مُحكَمٌ كلُّه:
أي: مُتقَنٌ جيِّدٌ في ألفاظه ومَعانيه.

[٢] مُتشابهٌ كلُّه:
يُشبه بعضُه بعضًا في: الكمال، والجودة، والإحكام، والأحكام، والأخبار، وغيرها.

[٣] منه المُحكَم ومنه المُتشابه:
فالمُحكم منه هو الواضح الجليُّ الَّذي لا خفاء فيه، والمُتشابه منه هو الخفيُّ الَّذي يفهم حقيقتَه الرَّاسخ في العلم، ويتوهَّم المُتوهِّم منه غير مُراد الله عَزَّوَجَلَّ.

من أدلَّة الإحكام العامِّ للقرآن:

[١] قال تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس]، وهذا واضحٌ أنَّه عامٌّ لكلِّ القرآن.

[٢] قال تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: أُتقنت، وقيل: أُجملت؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾، ولا تنافي بينهما، ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[هود] هو الله عَزَّوَجَلَّ: ذو الحكمة، الخبير ببواطن الأمور وظواهرها.

[٣] قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزُّخرف]، فالقرآن كلُّه حكيمٌ بمعنىٰ مُحكَم، وبمعنىٰ حاكمٍ؛ لأنَّه أداة الحُكم.

القرآنُ كلُّه مُحكَمٌ مُتقَنٌ جيِّدٌ، فهل يتفاضلُ؟

[١] **من حيثُ المُتكلِّمُ به**: لا يتفاضل؛ لأنَّ المُتكلِّم به واحدٌ.

[٢] **من حيثُ الأسلوبُ والمَعنى**: يتفاضل؛ ولذلك أدلَّةٌ منها قوله ﷺ لأُبيٍّ رضي الله عنه: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قال: آية الكرسيِّ، فضرب على صدره وقال: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**». أخرجه مسلمٌ.

دليلُ التَّشابُه العامِّ للقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾، ولم يقل: بعضُه مُتشابهٌ، ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ بدلٌ من ﴿أَحۡسَنَ﴾، ﴿مَّثَانِيَ﴾ تُثنَّىٰ فيه المَعاني والأحكامُ والأوصافُ، ولهذا تجد الله عزوجل في كتابه العزيز إذا ذكر ثواب المؤمنين ذكر ثواب المُجرمين؛ كما ذكر كتاب الفجَّار وكتاب الأبرار في سورة المُطفِّفين، وأيضًا مثاني بالنِّسبة لصفات الخلق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾[التَّغابن:٢].

﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ﴾ خوفًا وتعظيمًا ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمر:٢٣].

دليلُ الإحكام والتَّشابُه الوجهيَّين للقرآن:

قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ﴾ للتَّبعيض، قسَّم الله القرآن إلىٰ قسمين: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا القسم الأوَّل، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ وهذا القسم الثَّاني، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾، يعني: يتَّبعون المُتشابه ويحصرونه، ويوردونه علىٰ النَّاس ليُلبِّسوا عليهم دينهم، ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾[آل عمران].

واختلف السَّلف هل الوقف عند ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۘ﴾ أم يوصل؟

اختلف السَّلفُ في الوقف في ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾:

[١] الوقفُ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾:

وهو قول أكثر السَّلف، فيكون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مُبتدأً وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبرَه، والتَّأويلُ عندهم بمعنىٰ علم حقائق هذه المُشتبِهات، ومآلِها في المُستقبل، وهذا لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

[٢] الوصلُ:

وهو قول بعض السَّلف، فتكون جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالًا من الرَّاسخين في العلم في موضع نصبٍ. والتَّأويل عندهم بمعنىٰ التَّفسير، فإنَّ الرَّاسخين في العلم يعلمونه؛ كما قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ».

وبناءً علىٰ هذا فإنَّنا في القراءة: إذا جعلنا التَّأويل بمعنىٰ التَّفسير فالوصل أولىٰ، وإذا جعلناه بمعنىٰ ما يؤول إليه الشَّيء فالفصل أولىٰ.

الحكمة من وجود التَّشابه الخاصِّ في القرآن:

الحكمة من ذلك هي الامتحان والابتلاء؛ ليعلم الله عَزَّوَجَلَّ مَن في قلبه زيغٌ، ومن ليس في قلبه زيغٌ؛ لأنَّ من في قلبه زيغٌ يتَّبع المُتشابه ليضرب كلام الله بعضَه ببعضٍ، وأمَّا الَّذي أعطاه الله الرُّسوخ في العلم فإنَّه يعرف حقيقة المُتشابه.

هل للحروف الهجائيَّة مَعنًى في ذاتِها؟

ليس لها مَعنًىٰ في ذاتها؛ لأنَّ القرآن بلسانٍ عربيٍّ، والعرب لا يرون للحروف مَعنًىٰ في ذاتها، لكنَّ لها مَغزًىٰ، وهو أنَّ هذا القرآن الَّذي أعجز العرب لم يأت بجديدٍ عليهم؛ بل أتىٰ ممَّا يُركِّبون منه كلامهم وهي الحروف، ومع هذا عجزوا أن يأتوا بمثله.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (مِثَالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤] أَنَّ للهِ يَدَيْنِ مُمَاثِلَتَيْنِ لِأَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ.

وَمِثَالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ تَنَاقُضَ الْقُرْآنِ وَتَكْذِيبَ بَعْضِهِ بَعْضًا حِينَ يَقُولُ: ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النِّساء: ٧٩] وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾[النِّساء].

وَمِثَالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِرَسُولِ اللهِ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾[يونس]، ظَاهِرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ شَاكًّا فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ).

ضربَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ أمثلةً للمُتشابه الخاصِّ:

[١] فيما يتعلَّق باللَّه:
قال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، قد يتوهَّم منها الواهم فيقول: إنَّ الله خاطبنا بما نعلم، ونحن لا نعلم يدًا إلَّا مثل أيدي المَخلوقين، وهذا يقتضي أن تكون يده عَزَّوَجَلَّ كأيدي المَخلوقين!

[٢] فيما يتعلَّق بالقرآن:
قال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [النِّساء:٧٩]، وقال عن الحسنة والسَّيِّئة: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء:٧٨]، قد يتوهَّم منها الواهم التَّناقض، وليس فيها تناقضٌ كما سيأتي.

[٣] فيما يتعلَّق بالنَّبيِّ ﷺ:
قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤]، قد يتوهَّم الواهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان شاكًّا، والنَّبيُّ ﷺ لم يشكَّ، وقد شهد له الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقد ألَّف الشَّيخ محمَّدٌ الأمين الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللهُ كتابًا سمَّاه: «**دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب**».

ثَانِيًا: مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ مَوْقِفَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَوْقِفَ الزَّائِغِينَ مِنْهُ بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، فَقَالَ فِي الزَّائِغِينَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وَقَالَ فِي الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فَالزَّائِغُونَ يَتَّخِذُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَسِيلَةً لِلطَّعْنِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَفِتْنَةِ النَّاسِ عَنْهُ، وَتَأْوِيلِهِ لِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ، وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَاقُضٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النِّساء].

وَمَا جَاءَ مُشْتَبِهًا رَدُّوهُ إِلَىٰ الْمُحْكَمِ؛ لِيَكُونَ الْجَمِيعُ مُحْكَمًا.

وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الْأَوَّلِ: إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ يَدَيْنِ حَقِيقِيَّتَيْنِ، عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا تُمَاثِلَانِ أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ، كَمَا أَنَّ لَهُ ذَاتًا لَا تُمَاثِلُ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورىٰ]).

الخلافُ في ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾:

[١] قولُ المُمثِّلة:
لله عَزَّوَجَلَّ يدان مُماثلتان لأيدي المَخلوقين، وعلَّتهم في ذلك أنَّ الله خاطبنا بما نعلم، ونحن لا نعلم إلَّا ما نشاهد.

[٢] قولُ أهل السُّنَّة:
نثبت لله عَزَّوَجَلَّ يدين حقيقيَّتين؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أثبتهما، لكنَّهما لا تماثلان أيدي المَخلوقين.

[٣] قولُ المُؤوِّلة:
اليد بمَعنىٰ: النِّعمة، أو القدرة؛ لأنَّ ظاهر الآية التَّمثيل، ولهذا يجب صرفُها عن ظاهرها إلىٰ أمرٍ مَعنويٍّ.

دليل أهل السُّنَّة في إثبات يدين حقيقيَّتين:

[١] **نقليٌّ**: وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورىٰ].

[٢] **عقليٌّ**: إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ ذاتٌ لا تشبه ذوات المَخلوقين؛ فليكن له صفاتٌ لا تشبه صفات المَخلوقين؛ لأنَّ الصِّفات تابعةٌ للذَّات، واليد المُضافة مثلًا إلىٰ الجمل ليست كالمُضافة إلىٰ الأرنب، فصفات كلِّ شيءٍ تناسبُه.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الثَّانِي: إِنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ كِلْتَاهُمَا بِتَقْدِيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّ الْحَسَنَةَ سَبَبُهَا التَّفَضُّلُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، أَمَّا السَّيِّئَةُ فَسَبَبُهَا فِعْلُ الْعَبْدِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[الشُّورىٰ]، فَإِضَافَةُ السَّيِّئَةِ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ سَبَبِهِ، لَا مِنْ إِضَافَتِهِ إِلَىٰ مُقَدِّرِهِ، أَمَّا إِضَافَةُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فَمِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ مُقَدِّرِهِ، وَبِهَذَا يَزُولُ مَا يُوهِمُ الِاخْتِلَافَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ، لِانْفِكَاكِ الْجِهَةِ).

السَّيِّئة تُضاف إلى:

[١] **الإنسان**: من باب إضافة الشَّيء إلىٰ سببه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النِّساء:٧٩].

[٢] **الله** عَزَّوَجَلَّ: من باب إضافة الشَّيء إلىٰ مُقدِّره، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النِّساء:٧٨].

وبينهما فرقٌ، وإذا انفكَّت الجهة زال التَّعارض، لكنَّ أهل الباطل يجعلون من هذا وسيلةً إلىٰ الطَّعن في القرآن، فهؤلاء لا يُفتح عليهم، ولا يُوفَّقون للجمع بين ما يُتوهَّم منه التَّعارض، وأمَّا الَّذي يحاول الجمع فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يوفِّقه إليه.

وتوهُّم التَّناقض يقع كثيرًا من الطُّلَّاب، ولو أعمل الواحد منهم ذهنه وتأمَّل في الدَّليلين زال التَّعارض المُتوهَّم وعرف أنَّه لا تناقض بينهما.

أمثلةٌ أخرى لـما يُتوهَّم منه التَّناقض:

[١] قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾[النِّساء]، فبيَّن أنَّ الكافرين لا يكتمون الله شيئًا يوم القيامة، وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنعام]، وفيها أنَّهم يكتمون الله، وقد يتوهَّم الواهم منهما التَّناقض، لكنَّ الرَّاسخين يعلمون أنَّ يوم القيامة خمسون ألف سنةٍ، وهذه المُدَّة تتغيَّر فيها الأحوال، فقد يكتمون مرَّةً ولا يكتمون أخرىٰ.

[٢] قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران:١٠٦]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾[طه]، فقد يتوهَّم الواهم منهما التَّناقض، والرَّاسخون في العلم يقولون كما في المثال الأوَّل: إنَّ يوم القيامة يومٌ طويلٌ جدًّا، وقد تتغيَّر فيه الأحوال، فتكون وجوههم تارةً سودًا وتارةً زرقًا، أو يقولون: إنَّ الأزرق شديد الزُّرقة يميل إلىٰ السَّواد، فيصحُّ أن يوصف بالسَّواد علىٰ هذا الاعتبار.

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الثَّالِثِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شَكٌّ فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي نَفْسِ السُّورَةِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٠٤]، الْمَعْنَىٰ: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ فَأَنَا عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْهُ، وَلِهَذَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؛ بَلْ أَكْفُرُ بِهِمْ، وَأَعْبُدُ اللهَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أَنْ يَكُونَ الشَّكُّ جَائِزًا عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ وَاقِعًا مِنْهُ، أَلَا تَرَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزُّخرف]، هَلْ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ جَائِزًا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أَوْ حَاصِلًا؟! كَلَّا، فَهَذَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا وَلَا جَائِزًا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم].

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أَنْ يَكُونَ الِامْتِرَاءُ وَاقِعًا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ يُوَجَّهُ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ، أَلَا تَرَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾[القصص]؟ ومِن المَعْلُوم أنَّهُمْ لَمْ يَصُدُّوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ آيَاتِ اللهِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شِرْكٌ، وَالْغَرَضُ مِنْ تَوْجِيهِ النَّهْيِ إِلَىٰ مَنْ لَا يَقَعُ مِنْهُ التَّنْدِيدُ بِمَنْ وَقَعَ مِنْهُ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مَنَاهِجِهِمْ، وَبِهَذَا يَزُولُ الِاشْتِبَاهُ، وَظَنُّ مَا لَا يَلِيقُ بِالرَّسُولِ ﷺ.

الدَّليل على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يشكَّ فيما أُنزل إليه:

[١] قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرَّسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾، والمَعنىٰ: إن كنتم في شكٍّ فأنا علىٰ يقينٍ، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾[يونس:١٠٤].

[٢] أنَّ هناك فرقًا بين (إنْ) و(إذا) الشَّرطيَّتين، فـ(إذا) تفيد الوقوع، و(إنْ) لا تفيده؛ بل قد تأتي في أمحل المُحال، ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزُّخرف]، ولا يلزم منها أنَّ الله يتَّخذ ولدًا؛ لأنَّه مُحالٌ في حقِّه ﷻ، وإنَّما مَعناها: إن فُرض أنَّ له ولدًا فأنا أوَّل العابدين لهذا الولد.

وقيل: ﴿إِن﴾ في الآية نافيةٌ، فيكون مَعناها: قل ما كان للرَّحمن ولدٌ، وعلىٰ هذا يلزم تأويل ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ علىٰ مَعنىٰ المؤمنين ليستقيم السِّياق، فتكون العبادة مُطلَقةً علىٰ الإيمان بجامع الذُّلِّ في كلٍّ منهما.

لكنَّ هذا التَّفسير يُنافي الظَّاهر من الآية مُنافاةً تامَّةً، والأوَّل أولىٰ.

وهذه الآية من أعوص الإيرادات في آيات القرآن الكريم.

هل يلزم من ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ وقوعُ الامتراء منه ﷺ أو جوازُه؟

لا يلزم وقوعُه منه ﷺ، وذلك لأنَّ النَّهي عن الشَّيء قد يُوجَّه إلىٰ من لم يقع منه: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾[القصص]، ومَعلومٌ أنَّهم لم يصُدُّوا النَّبيَّ ﷺ عن آيات الله، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقع منه شيءٌ.

وكذلك فإنَّ النَّهي عن الشَّيء لا يلزم منه جواز وقوعه، فالنَّبيُّ ﷺ مُثبَّتٌ من الله ﷻ، ولا يجوز أن يقع منه صدودٌ عن آيات الله، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[الإسراء].

ثمَّ إنَّ قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لا يلزم منه وقوع الشِّرك منه ﷺ، ولا جوازُ وقوعه.

الحِكمةُ من توجيه النَّهي إلى من لا يمكن أن يقع منه المَنهيِّ عنه:

الحكمة من ذلك التَّنديد بمن وقع منهم، والتَّحذير من مَناهجهم، علىٰ حدِّ قول القائل: (إيَّاكِ أعني، واسمعي يا جارة).

ثَالِثًا: أَنْوَاعُ التَّشَابُهِ فِي الْقُرْآنِ

قَالَ الْمُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (التَّشَابُهُ الْوَاقِعُ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ: مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْبَشَرُ؛ كَحَقَائِقِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّنَا وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ مَعَانِيَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَكِنَّنَا لَا نُدْرِكُ حَقَائِقَهَا وَكَيْفِيَّتَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[الأنعام]، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[طه] كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَهَذَا النَّوْعُ لَا يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ؛ لِتَعَذُّرِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: نِسْبِيٌّ، وَهُوَ: مَا يَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، فَيَكُونُ مَعْلُومًا لِلرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَهَذَا النَّوْعُ يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ وَبَيَانِهِ؛ لِإِمْكَانِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، إِذْ لَا يُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ لَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[آل عمران]، وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[القيامة] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾[النِّساء].

وَأَمْثِلَةُ هَذَا النَّوْعِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشُّورىٰ:١١]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ أَهْلِ التَّعْطِيلِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ انْتِفَاءَ الصِّفَاتِ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَادَّعَوْا أَنَّ ثُبُوتَهَا يَسْتَلْزِمُ الْمُمَاثَلَةَ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ثُبُوتِ الصِّفَاتِ لِهُ، وَأَنَّ إِثْبَاتَ أَصْلِ الْمَعْنَىٰ لَا يَسْتَلْزِمُ الْمُمَاثَلَةَ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النِّساء]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ الْوَعِيدِيَّةِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ أَنَّ قَاتِلَ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَطَرَدُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ دُونَ الشِّرْكِ فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحج]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ الْجَبْرِيَّةِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ أَنَّ الْعَبْدَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ عَمَلِهِ، وَادَّعَوْا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَيْهِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ لِلْعَبْدِ إِرَادَةً وَقُدْرَةً، وَأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ نَوْعَانِ: اخْتِيَارِيٌّ، وَغَيْرُ اخْتِيَارِيٍّ.

وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ -أَصْحَابُ الْعُقُولِ- يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُخْرِجُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةَ إِلَىٰ مَعْنًىٰ يَتَلَاءَمُ مَعَ الْآيَاتِ الْأُخْرَىٰ، فَيَبْقَىٰ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمًا لَا اشْتِبَاهَ فِيهِ).

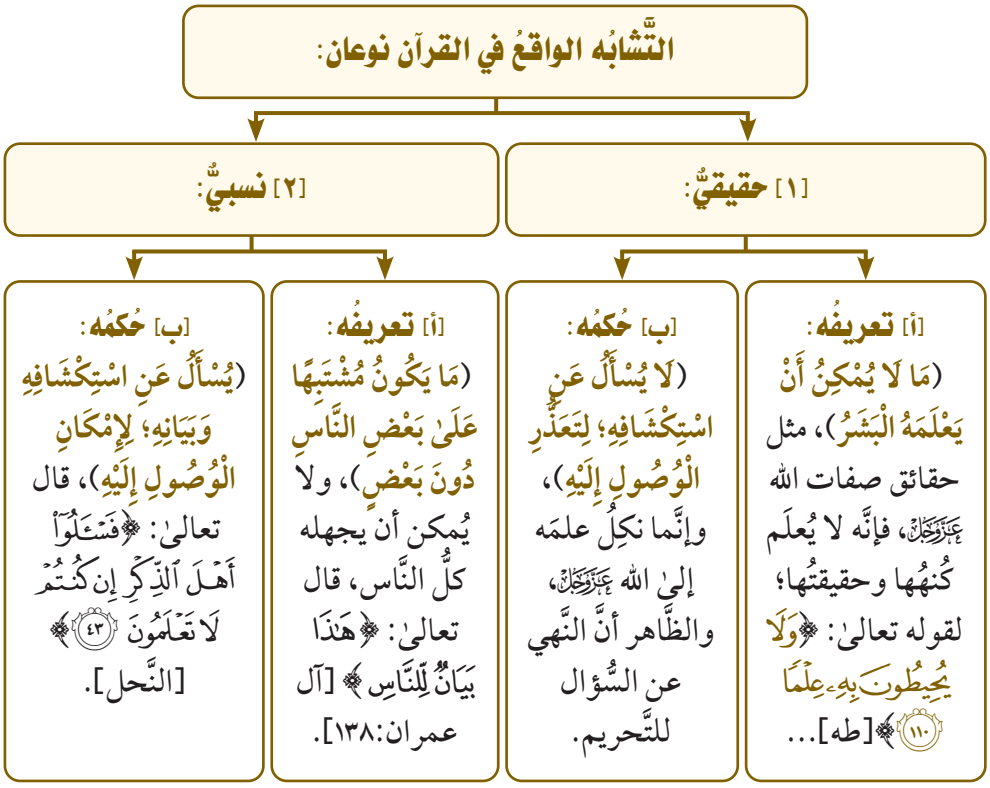

مَعنى قول الإمام مالكٍ رَحِمَهُ اللهُ في الاستواء:

لمَّا سُئِل مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ عن كيفيَّة الاستواء؛ قال: (**الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ**) أي: مَعلوم المَعنىٰ في اللُّغة العربيَّة، (**وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ**) أي: لا يُدرَك بالعقل، وإذا لم يُدرَك بالعقل فلا مَردَّ إلَّا إلىٰ السَّمع، والسَّمعُ لم يرد به، (**وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ**) لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أخبر به عن نفسه، (**وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ**) لأنَّه سُؤالٌ عمَّا لا يُدرَكُ بالعقل، ولم يرد فيه دليلٌ من السَّمع.

الدَّليلُ نوعان:

- [١] **السَّمعُ**: وهو الكتابُ والسُّنَّةُ؛ لأنَّهما مَسموعان.
- [٢] **العقلُ**: والنَّظرُ، ويُسمَّىٰ المُتكلِّمون بالنُّظَّار؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّهم أهل العقول.

آياتُ الصِّفات من:

- [١] **المُحكَم**: باعتبار المَعنىٰ، فمَعناها واضحٌ ظاهرٌ، وليس مَعناها خفيًّا.
- [٢] **المُتشابه**: باعتبار الكيفيَّة؛ لأنَّنا لا يمكن أن نصل إلىٰ حقائقها.

لا يوجد في القرآن شيءٌ لا يتبيَّن مَعناه لأحدٍ من النَّاس، والدَّليل:

- [١] ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كلِّهم، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لا يهتدي ويتَّعظ به إلَّا المُتَّقون.
- [٢] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو مُبينٌ، وكلُّ شيءٍ يحتاج النَّاس إلىٰ بيانه فإنَّه مَوجودٌ فيه، إمَّا نصًّا، أو إشارةً.
- [٣] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قرأه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عليك، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ لفظًا ومَعنًىٰ.
- [٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ والبرهان والنُّور لابدَّ أن يكون بيِّنًا.

لـماذا ذكر اللَّه عَزَّوَجَلَّ قراءة جبريل بقوله: ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾؟

لمَّا كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولًا من ربِّ العالمين، صارت قراءتُه كقراءة الله عَزَّوَجَلَّ، فأطلق الله عَزَّوَجَلَّ الفعل علىٰ نفسه والمُرادُ به الرَّسول؛ لأنَّ الرَّسول مُبلِّغٌ.

ومن هذا الباب قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، ولا يُمكن أن يُبايعوا الله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش وهم تحت الشَّجرة، فهم إنَّما بايعوا النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومُبايعة الرَّسول مُبايعةٌ لله، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠] والَّذي فوق أيديهم هو يد الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلىٰ هذا فلا إشكال في الآية.

المثال الأوَّل للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشُّورىٰ:١١]، ضلَّ في هذه الآية طائفتان:

[١] طائفةٌ غلوا في نفيِها، وفهموا أنَّها تدلُّ علىٰ نفي كلِّ الصِّفات، وقالوا: إنَّك إذا أثبتَّ أيَّ صفةٍ فقد مثَّلتَ.

[٢] طائفةٌ قالوا: ليس كمثله شيءٌ في الصِّفات الخبريَّة فقط؛ كالوجه واليدين وما أشبه ذلك.

[٣] وقال أهل السُّنَّة: ليس كمثله شيءٌ في كلِّ الصِّفات، ونفيُ المثل يدلُّ علىٰ ثبوت أصل المَعنىٰ؛ وإلَّا لكان نفيُ المثل لغوًا.

المثال الثَّاني للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النِّساء]، فهم منها الوعيديَّة -وهم المُعتزلة والخوارج- أنَّ قاتل المؤمن عمدًا مُخلَّدٌ في النَّار؛ لأنَّهم قالوا بنصوص الوعيد وأعرضوا عن نصوص الرَّجاء، وكلاهما قال: إنَّ فاعل الكبيرة مُخلَّدٌ في النَّار، لكنَّ بينهما فرقًا.

الفرق بين الخوارج والـمُعتزلة في فاعل الكبيرة:

[١] **الخوارج**: قالوا: إنَّ فاعل الكبيرة كافرٌ في الدُّنيا؛ لأنَّ حكم الخُلود لا يكون إلَّا للكافرين، وبناءً علىٰ هذا الأصل استحلُّوا دماء المسلمين.

[٢] **الـمُعتزلة**: قالوا: إنَّ فاعل الكبيرة في الدُّنيا في منزلةٍ بين المنزلتين، لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، فلم يستحلُّوا دمه، لكن وافقوا الخوارج في كونه مُخلَّدًا في النَّار.

دفع التَّوهُّم في آية النِّساء:

من المناسبات الجيِّدة أنَّ آية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾[النِّساء:٩٣] وقعت بين آيتين تدلَّان علىٰ أنَّ ما سوىٰ الشِّرك تحت المشيئة، وهما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[النِّساء]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾[النِّساء].

لكنَّ الأصل في الخلود الدَّوام، وذكر التَّأبيد من باب التَّوكيد فقط، فكيف توجيه قوله تعالىٰ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾؟

[١] تفسير ابن عبَّاسٍ: القتل العمد سببٌ للخلود في النَّار، لكن قد يوجد مانعٌ -وهو الإيمان- فينتفي الخلود، فالشَّيء لا يتمُّ إلَّا بوجود شروطه وانتفاء مَوانعه، وهذا هو أقرب الأقوال إلىٰ الصَّواب.

[٢] وقيل: المُراد بالخلود هنا المُكث الطَّويل دون تأبيد، وهو تفسيرٌ سائغٌ في اللُّغة العربيَّة، لكن يرد عليه أنَّه ثبت في السُّنَّة خلود قاتل نفسه في النَّار، وكذا من قتل نفسه بشيءٍ فإنَّه يُخلَّد في العذاب به.

[٣] وقيل: يُحكَم بخلوده في النَّار إذا كان مُستحلًّا دم المَقتول، وهذا قولٌ مَردودٌ.

[٤] وقيل: الآية مُطلقةٌ، فيكفر قالت المؤمن عمدًا علىٰ كلِّ حالٍ، وهو قولٌ غير سديدٍ.

المثال الثَّالث للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أي: قد علمتَ، والاستفهام هنا للتَّقرير، والخطاب للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ من يتأتَّىٰ خطابُه، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ يدلُّ علىٰ العموم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: ما في السَّماء والأرض مَكتوبٌ في اللَّوح المَحفوظ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: كتابة ما في السَّماء والأرض، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحجّ].

اشتبهت هذه الآية علىٰ الجبريَّة، ففهموا منها أنَّ العبد مَجبورٌ علىٰ عمله، وادَّعوا أنَّه ليس له إرادةٌ ولا قدرةٌ ولا اختيارٌ، وأنَّ حركاته كتحرُّك الرِّيش في الهواء.

ولا شكَّ أنَّ هذا قولٌ باطلٌ، ودليل بُطلانه:

[١] السَّمع:

أثبت الله ﷻ المشيئة للعبد في عدَّة آياتٍ، منها: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّكوير]، وأثبت له القدرة كما في قوله: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم].

[٢] العقل:

من المَعلوم أنَّه لو كان الله مُجبرًا عبادَه علىٰ ما يفعلون، ثمَّ يعذِّبهم في المُخالفة؛ لكان هذا أمرًا لا يليق بالله ﷻ؛ لأنَّه ظلمٌ.

[٣] الحسُّ:

فكلُّ إنسانٍ يعرف أنَّه يدخل ويخرج ويذهب ويجيء باختياره، ولا يرىٰ أنَّ أحدًا يُكرهه علىٰ هذا.

تنبيهٌ:

فعل العبد نوعان: اختياريٌّ، وغير اختياريٍّ، فالأوَّل يُؤاخذ عليه، والثَّاني لا يُؤاخذ عليه.

وينبغي للإنسان أن يسأل الله ﷻ دائمًا أن يهديه للحقِّ في العقائد والعمليَّات.

وانظر إلىٰ فعل الرَّسول ﷺ، كان يفتتح قيام اللَّيل -وهو أوَّل صلاةٍ يصلِّيها بعد النَّوم- بقوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**». أخرجه مسلمٌ.

رَابِعًا: الْحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ الْقُرْآنِ إِلَى مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمًا لَفَاتَتِ الْحِكْمَةُ مِنَ الِاخْتِبَارِ بِهِ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا؛ لِظُهُورِ مَعْنَاهُ، وَعَدَمِ الْمَجَالِ لِتَحْرِيفِهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالْمُتَشَابِهِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَلَوْ كَانَ كُلُّهُ مُتَشَابِهًا لَفَاتَ كَوْنُهُ بَيَانًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، وَلَمَا أَمْكَنَ الْعَمَلُ بِهِ، وَبِنَاءُ الْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ مِنْهُ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، يُرْجَعُ إِلَيْهِنَّ عِنْدَ التَّشَابُهِ، وَأُخَرَ مُتَشَابِهَاتٍ امْتِحَانًا لِلْعِبَادِ؛ لِيَتَبَيَّنَ صَادِقُ الْإِيمَانِ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ.

فَإِنَّ صَادِقَ الْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى، وَمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَاطِلٌ أَوْ تَنَاقُضٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء].

وَأَمَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ فَيَتَّخِذُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ سَبِيلًا إِلَى تَحْرِيفِ الْمُحْكَمِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى فِي التَّشْكِيكِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْأَحْكَامِ، وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ يَحْتَجُّونَ عَلَى انْحِرَافِهِمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ).

لو كان القرآن:

[١] كلُّه مُحكمًا:

والإحكام هنا هو وضوح المَعنىٰ وبيانه لكلِّ النَّاس، فلو كان القرآن كلُّه بيِّنًا لفاتت الحكمة من الاختبار والامتحان بين المؤمن الرَّاسخ في العلم، ومن في قلبه زيغٌ.

[٢] كلُّه مُتشابهًا:

والتَّشابه هنا هو خفاء المَعنىٰ علىٰ بعض النَّاس، فإذا كان القرآن كلُّه خفيًّا فات البيان للنَّاس والإيضاح، ولم يمكن العمل بمَضمونه، ولا بناء العقيدة السَّليمة عليه.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ: مُوهِمُ التَّعَارُضِ فِي الْقُرْآنِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّعَارُضُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تَتَقَابَلَ آيَتَانِ، بِحَيْثُ يَمْنَعُ مَدْلُولُ إِحْدَاهُمَا مَدْلُولَ الْأُخْرَىٰ، مِثْلَ أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُمَا مُثْبِتَةً لِشَيْءٍ وَالْأُخْرَىٰ نَافِيَةً فِيهِ. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ التَّعَارُضُ بَيْنَ آيَتَيْنِ مَدْلُولُهُمَا خَبَرِيٌّ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ كَوْنُ إِحْدَاهُمَا كَذِبًا، وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي أَخْبَارِ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[النِّساء]، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ التَّعَارُضُ بَيْنَ آيَتَيْنِ مَدْلُولُهُمَا حُكْمِيٌّ؛ لِأَنَّ الْأَخِيرَةَ مِنْهُمَا نَاسِخَةٌ لِلْأُولَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة: ١٠٦]، وَإِذَا ثَبَتَ النَّسْخُ كَانَ حُكْمُ الْأُولَىٰ غَيْرَ قَائِمٍ وَلَا مُعَارِضٍ لِلْأَخِيرَةِ، وَإِذَا رَأَيْتَ مَا يُوهِمُ التَّعَارُضَ مِنْ ذَلِكَ، فَحَاوِلِ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ وَجَبَ عَلَيْكَ التَّوَقُّفُ، وَتَكِلُ الْأَمْرَ إِلَىٰ عَالِمِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً لِمَا يُوهِمُ التَّعَارُضَ، بَيَّنُوا الْجَمْعَ فِي ذَلِكَ، وَمِنْ أَجْمَعِ مَا رَأَيْتُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ كِتَابُ «دَفْعِ إِيهَامِ الِاضْطِرَابِ عَنْ آيِ الْكِتَابِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْأَمِينِ الشِّنْقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[البقرة]، وَقَوْلُهُ فِيهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٨٥]، فَجَعَلَ هِدَايَةَ الْقُرْآنِ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ خَاصَّةً بِالْمُتَّقِينَ، وَفِي الثَّانِيَةِ عَامَّةً لِلنَّاسِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْهِدَايَةَ فِي الْأُولَىٰ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالِانْتِفَاعِ، وَالْهِدَايَةَ فِي الثَّانِيَةِ هِدَايَةُ التَّبْيِينِ وَالْإِرْشَادِ.

وَنَظِيرُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الرَّسُولِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦] وَقَوْلُهُ فِيهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشُّورىٰ]، فَالْأُولَىٰ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَالثَّانِيَةُ هِدَايَةُ التَّبْيِينِ).

قاعدةٌ مهمَّةٌ:

(كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن التَّعارُضِ والاختلافِ)، ولهذا قالَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: (مُوهِمُ التَّعارُضِ فِي الْقُرْآنِ)؛ لأنَّ التَّعارُضَ غيرُ حَقيقيٍّ وإنَّما مُتوَهَّمٌ، قالَ تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النِّساء].

تقابل المَعنيين على نوعين:

[١] تقابلٌ من كلِّ وجهٍ:
بحيث يمنع مَدلول أحدهما مَدلول الآخر، فهذا هو التَّعارض المَقصود في هذا الباب.

[٢] تقابلٌ من بعض الوجوه:
لا يمنع مَدلول أحدهما مَدلول الآخر؛ كما يكون بين العامِّ والخاصِّ، فهذا ليس بتعارضٍ، فالعامُّ فيه شمول الحكم للأفراد، والخاصُّ يختصُّ بأحدها.

التَّعارض في:

[١] الأخبار:
بحيث تأتي آيةٌ تثبت شيئًا وأخرىٰ تنفيه، وهذا غير واقعٍ في القرآن؛ لأنَّه لو وقع للزم أن تكون إحدىٰ الآيتين كاذبةً، وهذا مُستحيلٌ في خبره عَزَّوَجَلَّ.

[٢] الأحكام:
إذا وقع في القرآن فإنَّ الآية المُتأخِّرة منهما تكون ناسخةً للمُتقدِّمة؛ لأنَّ النَّسخ جائزٌ في الأحكام، فلا تبقىٰ المُقابلة والمُقاومة.

فائدة كتاب «دَفْعِ إِيهَامِ الاِضْطِرَابِ عَنْ آيِ الْكِتَابِ»:

أهمِّيَّة هذا الكتاب في أنَّ الإنسان يتعوَّد به كيف يجمع بين الآيات، يوقن بأنَّ القرآن ليس فيه تعارضٌ، لذلك ينبغي للإنسان أن يطالع مثل هذه الكتب الَّتي فيها الجمع بين الآيات الَّتي ظاهرها التَّعارض.

الهداية نوعان:

[١] **هداية توفيقٍ وعملٍ**: وهي خاصَّةٌ بالمُتَّقين، ومنها قوله تعالىٰ عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[البقرة]، وقوله عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

ولفظ ﴿أَحْبَبْتَ﴾ يحتمل مَعنيين:

[أ] (**أَحْبَبْتَهُ**): والآية نزلت في أبي طالبٍ، وهذا يقتضي أنَّه ﷺ يحبُّ عمَّه أبا طالبٍ، ولا يُلام علىٰ حبِّه له؛ لأنَّه يحبُّه لقرابته وإحسانه إليه، وليس لدينه، وهذا المَعنىٰ أقرب؛ لأنَّه ليس فيه تقديرٌ، والأصل عدم التَّقدير.

[ب] (**أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ**): وهذا فيه تقدير مَحذوفٍ.

[٢] **هداية بيانٍ وإرشادٍ**: وهي عامَّةٌ لكلِّ النَّاس، ومنها قوله تعالىٰ عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[الشُّورىٰ].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾[آل عمران: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾[آل عمران: ٦٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾[الشُّعراء]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾[هود]، فَفِي الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ نَفْيُ الْأُلُوهِيَّةِ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ إِثْبَاتُ الْأُلُوهِيَّةِ لِغَيْرِهِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ الْخَاصَّةَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ هِيَ الْأُلُوهِيَّةُ الْحَقَّةُ، وَأَنَّ الْمُثْبَتَةَ لِغَيْرِهِ هِيَ الْأُلُوهِيَّةُ الْبَاطِلَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝٦٢﴾[الحجّ].

وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[الأعراف:٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾[الإسراء]، فَفِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ نَفَىٰ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْفَحْشَاءِ، وَظَاهِرُ الثَّانِيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ بِمَا هُوَ فِسْقٌ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ هُوَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ،

وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يَأْمُرُ شَرْعًا بِالْفَحْشَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾[النَّحل]، **وَالْأَمْرُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ هُوَ الْأَمْرُ الْكَوْنِيُّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ كَوْنًا بِمَا شَاءَ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[يس]).

المثال الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ فعلَّلوا بأمرين: أنَّهم وجدوا عليها آباءهم، وأنَّ الله أمرهم بها، فردَّ الله عليهم العلَّة الأولىٰ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾[الأعراف:٢٨]، ولم يردَّ الثَّانية؛ لأنَّها حقٌّ، والحقُّ يُقبل ولو من الكافر، بل ولو من الشَّيطان نفسه! وفي الآية أنَّ الله لا يأمر بالفحشاء.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾[الإسراء]، وفيها أنَّ الله يأمر بالفسق، فكيف يُجمع بينهما؟

الجمع بينهما بأنَّ أمر اللَّه عَزَّوَجَلَّ نوعان:

[١] أمرٌ شرعيٌّ:

ومنه الآية الأولىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر شرعًا بالفحشاء، بل هو ينهىٰ عن الفحشاء والمُنكر.

[٢] أمرٌ كونيٌّ:

فإنَّ كلَّ ما وقع في السَّماء والأرض فهو بأمره الكونيِّ، ومن هذا قولُه تعالىٰ: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، أي: أمرًا كونيًّا، وحملها بعضهم علىٰ الشَّرعيِّ، بمعنىٰ: (إذا أردنا أن نهلك قريةً أرسلنا الرُّسل إليهم ففسقوا فدمَّرناهم)، وهذا غلطٌ لمُنافاته حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ: الْقَسَمُ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْقَسَمُ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالسِّينِ: الْيَمِينُ، وَهُوَ: تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعَظَّمٍ بِالْوَاوِ أَوْ إِحْدَىٰ أَخَوَاتِهَا، وَأَدَوَاتُهُ ثَلَاثَةٌ:

- **الْوَاوُ**: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[الذَّاريات:٢٣]، وَيُحْذَفُ مَعَهَا الْعَامِلُ وُجُوبًا، وَلَا يَلِيهَا إِلَّا اسْمٌ ظَاهِرٌ.

- **وَالْبَاءُ**: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾[القيامة]، وَيَجُوزُ مَعَهَا ذِكْرُ الْعَامِلِ كَمَا فِي هَذَا الْمِثَالِ، وَيَجُوزُ حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص]، وَيَجُوزُ أَنْ يَلِيَهَا اسْمٌ ظَاهِرٌ كَمَا مَثَّلْنَا، وَأَنْ يَلِيَهَا ضَمِيرٌ كَمَا فِي قَوْلِكَ: اللهُ رَبِّي، وَبِهِ أَحْلِفُ لَيَنْصُرَنَّ الْمُؤْمِنِينَ.

- **وَالتَّاءُ**: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾[النَّحل]، وَيُحْذَفُ مَعَهَا الْعَامِلُ وُجُوبًا، وَلَا يَلِيهَا إِلَّا اسْمُ اللهِ، أَوْ رَبِّ، مِثْلَ: تَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحُجَّنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ).

ضبط لفظ (القسم):

[١] **الْقِسْمُ**:	[٢] **الْقَسْمُ**:	[٣] **الْقِسَمُ**:	[٤] **الْقَسَمُ**:
بمعنىٰ: الجنس، أو الصِّنف، وما أشبه ذلك.	بمعنىٰ: تقسيم الشَّيء.	بمعنىٰ: ما يُقدَّر لابن آدم.	بمعنىٰ اليمين، والحَلِف.

القَسَم هو تأكيد الشَّيء بـ:

[١] (ذِكر مُعظَّمٍ)، سواءٌ كان الـمُعظَّم:

[أ] يستحقُّ التَّعظيم: وهو الله عَزَّوَجَلَّ وحده.

[ب] لا يستحقُّ التَّعظيم: فالَّذين يحلفون باللَّات والعُزَّىٰ ومَناة قَسَمهم صحيحٌ لغةً؛ لأنَّهم يعظِّمونهم.

[٢] (على وجهٍ مَخصوصٍ):

بحروف القَسَم الثَّلاثة:
(الواو)، و(الباء)، و(التَّاء).
ويُقسم أحيانًا بـ(الهاء)، نحو: (ها اللهِ لأفعلنَّ).
ولهذا ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (**أَخَوَاتِهَا**).

وحُكم الحلف بغير اللَّه عَزَّوَجَلَّ شرعًا أنَّه:

[أ] شركٌ أكبر: إذا اعتقد أنَّه يستحقُّ من التَّعظيم كما يستحقُّ الله.

[ب] شركٌ أصغر: إذا لم يعتقد ذلك.

وعلىٰ هذا فلو قال: (حرامٌ عليَّ أن أفعل كذا) فإنَّه لا يكون قسمًا بغير الله، وليس شركًا، لكنَّ حكمه حكمُ اليمين؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التَّحريم].

من أحكام القَسَم:

[١] لا ينبغي للإنسان أن يحلف بالله إلَّا عند الحاجة والضَّرورة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

[٢] ينبغي لمن حلف أن يستثني بـ(إن شاء الله)؛ ليسهُل أمرُه، ولئلَّا تترتَّب عليه كفَّارةٌ إذا حنث.

[٣] لا يجوز الحلف بغير الله مهما كانت مَنزلتُه، ولو كان النَّبيَّ ﷺ.

يجوز القَسَم بـ:

- [١] **اللَّه:** وهذا هو الأكثر.
- [٢] **ما يختصُّ به من الأسماء:** مثل: الرَّحمن، وربِّ العالمين، ونحوها.
- [٣] **الصِّفات المَعنويَّة:** مثل: العلم، والقدرة، والسَّمع، والبصر، والعزَّة، ونحوها.
- [٤] **الصِّفات الخبريَّة:** الَّتي يُعبَّر بها عن ذاته عَزَّوَجَلَّ، مثل: الوجه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرَّحمن]، فعبَّر بالوجه عن الذَّات.

وأمَّا الصِّفات الخبريَّة الَّتي لا يُعبَّر بها عن الذَّات فلا يجوز القسم بها، مثل: اليد، والعين، والرِّجل، ونحوها، فلا يجوز مثلًا أن يقول: (وَيَدِ الله).

القَسَم إذا كان على شيءٍ:

- [١] **ماضٍ: فلا كفَّارة في الحِنث:**
  - [أ] **ولا يأثم:** إذا كان صادقًا.
  - [ب] **ويأثم:** إذا كان كاذبًا، فإذا تضمَّن اليمين أكلَ مالِ الغير بغير حقٍّ = كانت اليمينَ الغموسَ الَّتي تغمس صاحبَها في النَّار.
- [٢] **مُستقبَلٍ؛ فينقسم إلى:**
  - [أ] **يمين لَغوٍ:** وهي الَّتي تجري علىٰ الإنسان بغير قصدٍ، نحو: (لا والله)، و(بلىٰ والله)، وهذه لا كفَّارة فيها.
  - [ب] **يمينٍ مَعقودةٍ:** وهي الَّتي يقصدها الإنسان، فإذا قصد.
    - **الخبرَ:** فلا كفَّارة.
    - **إيقاعَ الفعل:** ففيها الكفَّارة إذا حنث.
  - [ج] **يمين على ما يظُنُّ وقوعَه:** فلا كفَّارة عليه إذا لم يقع علىٰ الصَّحيح.

القسمُ بالواو هو الأكثرُ، والفرقُ بينَها وبينَ الباءِ والتَّاءِ:

[١] أنَّه يجبُ حذفُ العاملِ مع الواو والتَّاء:
فلا يصحُّ أن تقول: (أقسم واللهِ لتفعلنَّ كذا)، أو (أقسم تالله)؛ بخلاف الباء فإنَّه يجوز فيها إثباتُه: (أقسم بالله لتفعلنَّ كذا)، ويجوز حذفُه: (بالله لتفعلنَّ كذا).

[٢] أنَّه يجبُ أن يَلِيَ الواو اسمٌ ظاهرٌ:
فلا يجوز أن يليَ الواو ضميرٌ؛ بخلاف الباء فإنَّه يجوز فيها مثلًا: (اللهُ أقسمُ به لتفعلنَّ كذا).
وأمَّا التَّاء فلا يصحُّ أن يليَها سوىٰ (الله) و(ربِّ).

والخلاصة: أنَّ الواو هي أكثر حروف القسم الثَّلاثة استعمالًا، والباء هي أوسُعها من حيث طريقةُ الاستعمال (ما يصحُّ أن يتقدَّمها وأن يليَها)، والتَّاء هي أضيقُها.

خلافُ المُفسِّرين في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

[١] ﴿لَآ﴾ نافيةٌ لفعل مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: (لَا صحَّة لما تزعُمون من إنكار البعث، أُقسم بيوم القيامة).

[٢] ﴿لَآ﴾ نافيةٌ لفعل مَوجودٍ، والتَّقديرُ: (لا أُقسم بكذا علىٰ كذا؛ لأنَّه لا يحتاج إلىٰ قَسَمٍ).

[٣] ﴿لَآ﴾ للتَّنبيه، والجملة جملةٌ ثُبوتيَّةٌ، لا جملةٌ مَنفيَّةٌ، وهذا هو أصحُّ الأقوال، وأقلُّها تكلُّفًا.

سُمِّيَ يومَ القيامة لأنَّه اليومُ الَّذي:

[١] يقوم النَّاس فيه من قبورهم لربِّ العالمين قيام رجلٍ واحدٍ.

[٢] يقوم فيه الأشهادُ، فتشهد الرُّسل علىٰ أُممِهم، وتشهد هذه الأمَّة علىٰ أُمم الرُّسل، ويشهد محمَّدٌ ﷺ علىٰ هذه الأمَّة.

[٣] يُقامُ فيه العدلُ.

قاعدةٌ هامَّةٌ في التَّفسير:

كلُّ قَسَمٍ في القرآن لابدَّ أن يكون بينَه وبين المُقسَم عليه مُناسبةٌ، لكنَّ المُناسبة: قد تكون ظاهرةً، وقد تكون خفيَّةً.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْأَصْلُ ذِكْرُ الْمُقْسَمِ بِهِ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَمَا فِي الْأَمْثِلَةِ السَّابِقَةِ.
وَقَدْ يُحْذَفُ وَحْدَهُ، مِثْلَ قَوْلِكَ: أَحْلِفُ عَلَيْكَ لَتَجْتَهِدَنَّ.
وَقَدْ يُحْذَفُ مَعَ الْعَامِلِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾[التَّكاثر].
وَالْأَصْلُ ذِكْرُ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التَّغابن: ٧].
وَقَدْ يُحْذَفُ جَوَازًا مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾[ق]، وَتَقْدِيرُهُ: لَيَهْلِكُنَّ.
وَقَدْ يُحْذَفُ وُجُوبًا إِذَا تَقَدَّمَهُ أَوِ اكْتَنَفَهُ مَا يُغْنِي عَنْهُ، قَالَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي «الْمُغْنِي»، وَمَثَّلَ لَهُ بِنَحْوِ: زَيْدٌ قَائِمٌ وَاللهِ، وَزَيْدٌ وَاللهِ قَائِمٌ).

الأصلُ في القَسَم ذِكرُ الـمُقسَم به، لكن قد:

[١] يُحذف وحدَه:
كما في قولِك: (أَحْلِفُ عَلَيْكَ لَتَجْتَهِدَنَّ)، فالمَحلوفُ له مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: (أحلِفُ بالله عليك لتَجتهدنَّ).

[٢] يُحذف هو والعامل معًا:
وهو كثيرٌ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾[التَّكاثر]، والتَّقديرُ: (ثمَّ أُقسم بالله لتُسأَلُنَّ).

ومن أمثلة ذكرهما معًا في القرآن قولُه تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الذَّاريات]، وقولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[النَّحل]...

الأصلُ في القَسَم ذِكرُ الـمُقسَم عليه، لكن قد:

[١] يُحذف جوازًا:
كما في قوله تعالىٰ: ﴿قٓۚ﴾ حرف هجاءٍ، وسبق أنَّ الرَّاجح أنَّه ليس له مَعنًى في حدِّ ذاتِه، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ هذا هو المُقسَم به، والمُقسَمُ عليه مَحذوفٌ تقديرُه: (لَيَهْلِكُنَّ)، وقيل: (لَيُبْعَثُنَّ)، وقيل: لا حاجة لذكره؛ لأنَّه مَعلومٌ من السِّياق.

[٢] يُحذف وجوبًا: إذا:

[أ] تقدَّمه ما يُغني عنه:
مثل: (زيدٌ قائمٌ واللهِ)، مَعناه: (واللهِ إنَّ زيدًا لَقائمٌ)، ولو قلت: (زيدٌ قائمٌ، والله إنَّه لَقائمٌ) لكان لَغوًا.

[ب] اكتنفه ما يُغني عنه:
يعني كان القَسَم بين أجزاء الجملة، مثل: (زيدٌ واللهِ قائمٌ).

ومن أمثلة ذِكر المُقسَم عليه -وهو كثيرٌ- قولُه تعالىٰ: ﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها الرَّسول للَّذين زعموا أنَّهم لن يُبعَثوا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[التَّغابن:٧]، فحلَف لهم بالله وهم قومٌ مُنكِرون، وهذا أسلوبٌ من أساليب اللُّغة العربيَّة: أنَّ الكلامَ يُؤكَّد بالقَسَم، وإذا لم ينتفع هؤلاء بالقَسَم انتفع غيرُهم، فيكون حجَّةً عليهم من وجهٍ، ونبراسًا لغيرهم من وجهٍ آخر.

أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه ﷺ بالقَسَم في ثلاثةِ مَواضعَ من القُرآن:

[١] على القرآن:
في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾[يونس].

[٢] على السَّاعة:
في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾[سبأ:٣].

[٣] على البعث:
في قولِه تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[التَّغابن:٧].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِلْقَسَمِ فَائِدَتَانِ:
- إِحْدَاهُمَا: بَيَانُ عَظَمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ.
- وَالثَّانِيَةُ: بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَإِرَادَةُ تَوْكِيدِهِ، وَلِذَا لَا يَحْسُنُ الْقَسَمُ إِلَّا فِي الْأَحْوَالِ التَّالِيَةِ:
  - الْأُولَىٰ: أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ذَا أَهَمِّيَّةٍ.
  - الثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُتَرَدِّدًا فِي شَأْنِهِ.
  - الثَّالِثَةُ: أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُنْكِرًا لَهُ).

للقَسَم فائدتان:

[١] (بَيَانُ عَظَمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ):
ولهذا لا يجوز للمَخلوق أن يحلِف بغير الله عَزَّوَجَلَّ، لكن يجوز لله عَزَّوَجَلَّ أن يحلِف بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو بما شاء من مَخلوقاتِه.

[٢] (بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ):
ولهذا فإنَّ حَلِفَ الله عَزَّوَجَلَّ بمَخلوقٍ من مَخلوقاتِه يدلُّ علىٰ عظمته، وأنَّه جديرٌ بأن يكون مُقسَمًا به.

لا يحسُنُ القَسَمُ إلَّا في ثلاث أحوالٍ:

[١] أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ذَا أَهَمِّيَّةٍ:
حتَّىٰ وإن كان المُخاطَبُ غير مُنكِرٍ له؛ لبيان أهمِّيَّة المُقسَم عليه، وأمَّا ما ليس له أهمِّيَّةٌ فلا يُقسَمُ عليه سواءٌ صدَّق المُخاطَبُ أو لا.

[٢] (أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُتَرَدِّدًا فِي شَأْنِهِ):
وهنا يحسُنُ القَسَمُ ولا يجبُ؛ لأنَّ المُخاطَب قد يكفيه الخبرُ المُجرَّدُ، فتحلِفُ ليطمئِنَّ ويزولَ عنه الشَّكُّ.

[٣] (أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُنْكِرًا لَهُ):
وهنا يجب تأكيدُ الكلام ليكون المُخاطَبُ مُطمئنًّا، سواءٌ بالقَسَم، أو بغيره ممَّا يُناسبُه.

ممَّا يكونُ في مَعنى القَسَم، وليس قسمًا حقيقةً:

[١] (**لَعَمْرُكَ أو لَعَمْرِي**):
يجوز ذلك؛ لأنَّه قد جاء عن النَّبيِّ ﷺ عند أحمد، وعن عائشة في «الصَّحيحين»، وهو في مَعنىٰ القَسَم، لكن في حقيقتِه ليس قَسَمًا يُرادُ به الحَلِفُ الَّذي يكون شركًا أو كُفرًا.

[٢] (**يمينُ اللهِ**):
وكذلك قولُ: (عهدُ اللهِ).

[٣] (**يعلمُ اللَّه ما فعلتُ كذا**):
قال بعضُ العلماء: إنَّ هذا من أحطر ما يكون في باب القَسَم، والقائل علىٰ خطرٍ عظيمٍ إذا كذب؛ لأنَّ قولَه هذا يقتضي أنَّ الله جاهلٌ عياذًا بالله!
قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[يس]، وهذا كذلك في مَعنىٰ القَسَم، ولهذا أُجيب بما يُجابُ به القَسَمُ: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

الْفَصْلُ السَّادِسُ: الْقَصَصُ

أَوَّلاً: مَعْنَى الْقَصَصِ وَأَقْسَامُهَا

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْقَصَصُ وَالْقَصُّ لُغَةً: تَتَبُّعُ الْأَثَرِ، وَفِي الِاصْطِلَاحِ: الْإِخْبَارُ عَنْ قَضِيَّةٍ ذَاتِ مَرَاحِلَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَقَصَصُ الْقُرْآنُ:

- أَصْدَقُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، وَذَلِكَ لِتَمَامِ مُطَابَقَتِهَا لِلْوَاقِعِ.

- وَأَحْسَنُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[يوسف:٣]، وَذَلِكَ لِاشْتِمَالِهَا عَلَىٰ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ فِي الْبَلَاغَةِ وَجَلَالِ الْمَعْنَىٰ.

- وَأَنْفَعُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ تَأْثِيرِهَا فِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَخْلَاقِ.

وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١. قِسْمٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَمَا جَرَىٰ لَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَالْكَافِرِينَ.

٢. وَقِسْمٌ عَنْ أَفْرَادٍ وَطَوَائِفَ جَرَىٰ لَهُمْ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ، فَنَقَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ؛ كَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَلُقْمَانَ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَارُونَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَأَصْحَابِ الْأُخْدُودِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

٣. وَقِسْمٌ عَنْ حَوَادِثَ وَأَقْوَامٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَقِصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْأَحْزَابِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَبَنِي النَّضِيرِ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأَبِي لَهَبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ).

مِن فوائد القصَصِ القُرآنيِّ:

[١] **الاقتداءُ بالأنبياءِ والرُّسلِ عليهم السلام:** قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

[٢] **اجتنابُ سُلوكِ المُجرمين:** قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام:٥٥].

[٣] **التَّفكُّرُ:** قال تعالىٰ: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف:١٧٦].

[٤] **الاعتبارُ:** قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف:١١١].

[٥] **وسيلةٌ تربويَّةٌ، وزادٌ للمُعلِّمين:** قال تعالىٰ: ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران:٤٤].

[٦] **آيةٌ للنَّبيِّ ﷺ:** قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف].

تعريفُ القَصَصِ:

[١] **لغةً:**

(**تَتَبُّعُ الْأَثَرِ**)، ومنه قولُه تعالىٰ عن موسىٰ والفتىٰ: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف] أي: يقُصَّان الأثرَ ويتبَعانِه.

[٢] **اصطلاحًا:**

(**الْإِخْبَارُ عَنْ قَضِيَّةٍ ذَاتِ مَرَاحِلَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا**)، فلو قلتَ: (زيدٌ قائمٌ) لم تكن قِصَّةً؛ لأنَّها ليست ذات مَراحلَ يتبعُ بعضُها بعضًا.

قَصَصُ القرآنِ:

[١] أصدقُ القَصَصِ:
وهذا لا شكَّ فيه؛ لأنَّ المُخبِر به هو الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، والاستفهامُ بمَعنىٰ النَّفي والتَّحَدِّي، وذلك لتمام مُطابقتها للواقع، ليس فيها مِريةٌ بوجهٍ، وهذا هو الصِّدقُ، بل إنَّ ما أخبر اللهُ به آكَدُ عندنا ممَّا شاهدناه بأعيُننا؛ لأنَّه لا يعتريه لَبسٌ.

[٢] أحسنُ القَصَصِ:
لفظًا ومَعنًىٰ؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]، وهذا لكمال بلاغة القرآن.

[٣] أنفعُ القَصَصِ:
لفظًا ومَعنًىٰ؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟﴾ [يوسف:٣]، وهذا لكمال بلاغة القرآن.

وكذلك قَصَصُ السُّنَّة الصَّحيحة الثَّابتة مثلُ القرآن من حيثُ الصِّدقُ، وهي أحسنُ قَصَصِ الخلق وأنفعُها، وقد قصَّ النَّبيُّ ﷺ علىٰ أمَّته أشياء كثيرةً عن بني إسرائيل وغيرهم، وكلُّه حقٌّ وصدقٌ، وفيه عِبرةٌ ومَنفعةٌ.

ما ينبغي مع قَصَصِ القرآن والسُّنَّة:

يحسُن للواحد منَّا أن يأخذ قصَّةً من القَصَص يتتبَّعُها في: تفسيرها، ومَعناها الإجماليِّ، وفوائدها، وما تتضمَّنه من الأحكام والحِكَم، ولو عوَّد الإنسان نفسه علىٰ هذا لحصل له خيرٌ كثيرٌ.

مثالٌ: انظر إلىٰ خطاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه ومُحاورته معه، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[مريم:٤٣]، فأتىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأسلوبٍ حسنٍ وتحاشىٰ أن يقول: أنت جاهلٌ وأنا أعلم منك؛ لأنَّها شديدةٌ علىٰ الأب، وربَّما تُنفِّرُه.

قَصَصُ القرآن على ثلاثة أقسامٍ:

[١] عن الأنبياء والـمُرسلين السَّابقين:
قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إبراهيم:٩].

[٢] عن أفرادٍ وطوائفَ قبل النَّبيِّ ﷺ:
(كَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَلُقْمَانَ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَارُونَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ...).

[٣] عن حوادثَ وأقوامٍ في عهد النَّبيِّ ﷺ:
(كَقِصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْأَحْزَابِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَبَنِي النَّضِيرِ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأَبِي لَهَبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ).

من عِبر قصَّة مريم بنت عمران:

قال تعالىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ والمرأة النُّفساء تجدها في العادة ضعيفةً، والهَزُّ بجِذع النَّخلة أصعب من الهَزِّ برأسها، ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[مريم] أي: يسقط من فوقك رُطَبٌ طريٌّ ثريٌّ جَنِيٌّ، لا ينفقس إذا وقع علىٰ الأرض، بل كالَّذي جناه الإنسانُ بنفسه، وهذه وهذه آيةٌ وعِبرةٌ يعتبر بها الإنسان علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

من عِبر قصَّة لقمان:

والَّذي يظهر أنَّ لقمان رجلٌ صالحٌ، أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ الحكمة، وليس نبيًّا.
قال تعالىٰ في قصَّته: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان]، وهذه كلُّها حِكمٌ.

من عِبر قصَّة الَّذي مرَّ على القرية:

قال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ﴾ أي: كيف ﴿يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ فأراه الله ذلك، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأنَّ الله أماته في أوَّل اليوم وأحياه في آخر اليوم، والوقت يذهب إذا لم تكن الرُّوح في الجسم، كما يحصل مع النَّائم والمُغمىٰ عليه، ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغيَّر، لا باللَّون، ولا بالرَّائحة، ولا باليُبوسة، وهذا من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: إنَّ الطَّعام كان عنبًا، وقيل غيرُه، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، فالطَّعام لم يتغيَّر ولكنَّ الحمار صار عظامًا، فلمَّا نظر إلىٰ العظام إذا هي تلوحُ، ويركب بعضُها بعضًا، وتنشز بالعصب، ثمَّ تُكسىٰ باللَّحم، ثمَّ قام الحمار، سبحان الله! ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[البقرة]، وهذه القصَّة تحيي القلب، ويعرف بها قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

من عِبر قصَّة ذي القرنين:

ذو القرنين آتاه الله عَزَّوَجَلَّ مُلكًا عظيمًا بلغ مَشارق الأرض ومَغاربها، ومن أعظم عِبر هذه القصَّة أنَّه أتىٰ علىٰ قوم لا يكادون يَفقَهون قولًا بأنفسهم، ولا يُفقِهون أيضًا، فقالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: نعطيك دراهم، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾؛ لأنَّه مَلِكٌ عظيمٌ، فظنُّوا أنَّه يأخذ الرِّشوة، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ ممَّا تُعطونني، ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ والرَّدم أعظمُ من السَّدِّ، ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ فزبَروا له الحديد، وأحمىٰ عليه النَّار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾، فأفرغ عليه نحاسًا ذائبًا، فتلاصق الحديد بعضُه ببعضٍ بالنُّحاس، ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾؛ لأنَّه أملس، ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف]، وهذه من القصص الغريبة!

من عِبر قصَّة قارون:

كان قارونُ رجلًا غنيًّا من قوم موسىٰ عليه السلام، ولكنَّه كفر به، واستعلىٰ بما أعطاه الله من المال، وبغىٰ علىٰ قومه، وآتاه الله من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أي: لا يستطيعون حمل المَفاتيح، فكيف بالخزائن وما فيها؟! فقال الله عز وجل حين طغىٰ هذا الرَّجل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[القَصص].

من عِبر قصَّة أصحاب الكهف:

وهم سبعةٌ مُخلصون لله مُوحِّدون، ومعهم كلبُهم، رجوا من قومهم المُشركين مُهاجرين إلىٰ الله، وما أحدٌ قصد الله فخاب أبدًا، فآواهم الله عز وجل، فهيَّأ لهم كهفًا واسعًا وجهُه إلىٰ الشَّمال الشَّرقيِّ، لا تأتيه الشَّمس إذا أشرقت ولا إذا غربت، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: شيءٌ يسيرٌ عند الغروب، فبقوا نائمين فترةً طويلةً، لا يملُّون، ولا يجوعون، ولا يعطشون، إلَّا أنَّ الله قال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ لئلَّا تفسد أجسادُهم، ولم يقل: (يتقلَّبون)؛ لأنَّ فعل النَّائم لا يُنسَبُ إليه، فقد رُفع عنه القلم، ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، فبقوا ثلاثمائة سنةٍ وتسع سنواتٍ، حتَّىٰ أخلف الله عن الملك الأوَّل المُشرك ملكًا آخر صالحًا، فلمَّا بعثهم الله عز وجل تنازعوا، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأنَّهم ناموا أوَّل النَّهار، واستيقظوا آخر النَّهار، وطلبوا أن يُبعث واحدٌ منهم بدراهمهم إلىٰ المدينة ليشتري طعامًا، فلمَّا ذهب إلىٰ المدينة رأوا السِّكَّة قديمةً، فتعجَّبوا منه، وهذه القصَّة فيها عِبرٌ عظيمةٌ.

من عِبر قصَّة أصحاب الفيل:

وهو قومٌ جاءوا ليهدموا الكعبة، وذلك أنَّ ملك اليمن وضع عنده كعبةً تضاهي الكعبة الَّتي بمكَّة من أجل أن يحجَّ النَّاس إليها، فجاء أحد العرب إلىٰ هذه الكعبة وتغوَّط فيها إهانةً لها، فغضب الملك وبعث إلىٰ مكَّة جُندًا عظيمًا يتقدَّمهم فيلٌ عظيمٌ، يريد أن يهدم الكعبة، فلمَّا وصل مكانًا يُسمَّىٰ المُغمَّس أبىٰ الفيلُ أن يتقدَّم، إذا وجَّهوه إلىٰ مكَّة وقف، وإذا وجَّهوه إلىٰ اليمن هرول بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، زعم بعض العلماء أنَّ الفيل حُبس في وادي مُحسِّرٍ وليس بصحيح، قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أي: جماعاتٍ مُتفرِّقةً، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ تضرب الواحد من رأسه، وتخرج من دُبُره، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾[الفيل]، والعصف هو الزَّرع الَّذي أكلته الإبل أو البقر، ووطِئته بأقدامها.

من عِبر قصَّة أصحاب الأخدود:

الأخدود جمع خدٍّ، وهو الحفر في الأرض كحفر السَّواقي، فأحاب الأخدود قومٌ اعتدوا علىٰ قوم مؤمنين بالله عَزَّوَجَلَّ عدوانًا بشعًا، وحاولوا جعلهم يرتدُّون عن إيمانهم فأبوا، قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾، فخدُّوا الأخاديد، وأضرموا فيها النَّار، وجعلوا يُلقون المؤمنين في النَّار وهم قعودٌ مُتفكِّهين حولها، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾، ما هي إلَّا عداوةٌ دينيَّةٌ من هؤلاء المُعتدين، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾[البروج]، عُلم منها أنَّهم لو تابوا لم يُعذَّبوا؛ لأنَّ التَّوبة تجُبُّ ما قبلها حتَّىٰ وإن كان مُتعلِّقًا بالغير، ولا يُعترض علىٰ هذا بكونه حقَّ آدميٍّ؛ لأنَّ قتل هؤلاء الكفَّار للمؤمنين ليس لكونهم آدميِّين؛ بل لإيمانهم، فإذا آمنوا ارتفع عنهم أثر هذا القتل، وهذا من حِلم الله عَزَّوَجَلَّ.

في سورة البقرة خمسُ قَصَصٍ في إحياء المَوتى:

[١]	[٢]	[٣]	[٤]	[٥]
في قوم موسىٰ لمَّا قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾، ثمَّ بعثهم الله وهم ينظرون.	في أصحاب البقرة، تنازعوا في قتيل لهم، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرةً، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فحيا الرَّجل، وقال: قتلني فلانٌ.	في الَّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت؛ لوقوع الوباء بأرضهم، فأراهم الله أنَّه لا مفرَّ من قدر الله، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾.	في صاحب القرية الَّذي مرَّ عليها وهي خاويةٌ علىٰ عروشها، وقد تقدَّم هذا.	في قصَّة إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، فالإنسان مَأمورٌ بأن يزيد في إيمانه من طمأنينة القلب والثَّبات، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اذبحهنَّ واخلط بعضهنَّ ببعضٍ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أيُّها الطُّيور أقبلي، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ فأحياها الله عزوجل وأقبلت عليه سعيًا لا طيرانًا.

تنبيهٌ:

قَصَص القرآن كثيرةٌ جدًّا، وكلُّها نافعةٌ، وفيها عِبرةٌ، وقد أَلَّف فيها الكثير، لكن خلط بعضهم الحابل بالنَّابل، وصاروا كحاطب ليل، ولذلك يجب الحذر ممَّا أُلِّف في قَصَص الأنبياء، وغيرها منَ قَصَص القرآن.

الَّذي ذُكر في القرآن من هذه الأمَّة:

[١] باسمه:

[أ] زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ذُكر في مَقام المدح، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧].

[ب] أبو لهب:

عمُّ رسول الله ﷺ، ذُكر في مَقام الذَّمِّ، قال تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد].

[٢] بوصفٍ تامٍّ ينطبق عليه:

أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التَّوبة:٤٠] أجمع المُفسِّرون أنَّ المُراد بها أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال بعض العلماء: نزل فيه كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [اللَّيل].

هل قصَّةُ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أحسَنُ قصَصِ القرآن مُطلقًا؟

قالَ تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ...﴾ [يوسف]، وليس المُرادُ أنَّ قصَّة يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أحسنُ ما قُصَّ في القرآنِ مُطلَقًا، فأين ما جرىٰ ليوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ممَّا جرىٰ لموسىٰ ونوحٍ وإبراهيمَ وغيرهم مِن الأنبياءِ والرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأين ما عودِيَ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ممَّا عودوا، وأين نصرُه مِن نصرِهم، ويَكفيك قصَّةُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما جرىٰ له مع فِرعون وغيره، فلا شكَّ أن قصَّتَه أعظَمُ وأشرَفُ، فهي أعظَمُ قصَص الأنبياءِ، ولهذا ثنَّاها اللهُ عَزَّوَجَلَّ أكثرَ من غيرِها، وبسَطَها وطوَّلَها أكثرَ من غيرِها.

وأمَّا تَفضيلُ قصَّةِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو تَفضيلٌ مِن وُجوهٍ، وليس تَفضيلًا مُطلَقًا.

من أمثِلَةِ التَّفضيلِ الوَجهِيِّ بين قصَصِ القرآنِ:

[١] **قصَّةُ يوسُفَ** عليه السلام:
هي أحسَنُ القصَصِ باعتِبارِ صَبرِه عليه السلام وتَقواه عند الابتِلاءِ، وباعتِبارِ حُسنِ عاقِبَتِه في الدُّنيا، وقد ابتُلِيَ عليه السلام وعودِيَ في أمورٍ دُنيَوِيَّةٍ، فحسَدَه إخوَتُه، وابتُلِيَ بالسِّجنِ، ثمَّ بالمُلكِ.

[٢] **قصَّةُ ذي القَرنَينِ:**
هي أحسَنُ قصَصِ المُلوكِ.

[٣] **قصَّةُ ذي القَرنَينِ:**
هي أحسَنُ قصَصِ أولياءِ اللهِ الَّذين كانوا في زمَنِ الفَترَةِ.

ثَانِيًا: الْحِكْمَةُ مِنْ قَصَصِ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِلْقَصَصِ فِي الْقُرْآنِ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا:

١. **بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِيمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْقَصَصُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةُۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾[القمر].

٢. **بَيَانُ عَدْلِهِ تَعَالَىٰ بِعُقُوبَةِ الْمُكَذِّبِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُكَذِّبِينَ:** ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[هود:١٠١].

٣. **بَيَانُ فَضْلِهِ تَعَالَىٰ بِمَثُوبَةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِقَوْلِهِ ﷻ:** ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾[القمر].

٤. **تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾[فاطر].

٥. **تَرْغِيبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمَانِ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ، إِذْ عَلِمُوا نَجَاةَ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ، وَانْتِصَارَ مَنْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء]، **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الروم].

٦. **تَحْذِيرُ الْكَافِرِينَ مِنَ الِاسْتِمْرَارِ فِي كُفْرِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾[محمد].

٧. **إِثْبَاتُ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ أَخْبَارَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ﷻ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[هود]، **وَقَوْلِهِ:** ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[إبراهيم:٩]).

الحكمة الأولى: بيانُ حِكمةِ اللَّهِ تعالى

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ يعني: قريشًا، ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: أخبار الأمم السَّابقة، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ أي: ازدجارٌ عن المَعاصي والتَّكذيب، وفي هذا الَّذي جاءهم ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ مُؤثِّرةٌ، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾[القمر]، يجوز أن تكون (ما):

[١] **نافيةً**: أي: (لم تغن عنهم النُّذر شيئًا)، ويؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[هود:١٠١].

[٢] **استفهاميَّةً**: أي: (أيُّ شيءٍ تغني عنهم النُّذر؟)، وهذا أظهر.

الحكمة الثَّانية: بيانُ عَدلِ اللَّهِ تعالى

لمَّا ذكر الله ﷻ وصف الأنبياء، وإهلاك قومهم، قال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾[هود].

الحكمة الثَّالثة: بيانُ فضلِ اللَّهِ تعالى

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥﴾[القمر]، وقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾[هود]، والظَّاهر أنَّ ذلك لمَّا امتدَّ امتدَّت العقوبة من السَّحر إلىٰ الصَّباح، فصار موعد إهلاكهم جميعًا الصَّباح.

إشكالٌ والجواب عنه:

قال تعالىٰ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذَّاريات]؛ فهل الإيمان والإسلام شيءٌ واحدٌ؟

في الآية دليلٌ علىٰ أنَّهما ليسا شيئًا واحدًا، قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والَّذي خرج هو لوطٌ وأهله إلَّا امرأته، كانت معهم في الدَّار، وكان ظاهرها أنَّها مسلمةٌ، ولم تخرج لأنَّها كانت كافرةً، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

الحكمة الرَّابعة: تسليةُ النَّبيِّ ﷺ

النَّبيُّ ﷺ يحبُّ من جميع النَّاس أن يؤمنوا، ويضيق صدره بما يقول الكافرون، ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾[الحجر:٩٧]، ولهذا فإنَّ الله ﷻ يسلِّيه بذكر أخبار الأمم السَّابقة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات البيِّنات، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ جمع زَبورٍ وهو الكتاب، ويُطلَق علىٰ الكتاب المُعيَّن؛ كما أُطلق علىٰ كتاب داود ﷺ، ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥﴾ عطف المُرادف علىٰ مُرادفه؛ لبيان إنارة الكتب للنَّاس طريق الهداية، ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾[فاطر]، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يتسلَّىٰ بهذا ويتصبَّر.

الحكمة الخامسة: ترغيبُ المُؤمنينَ في الإيمانِ

يرغِّب الله ﷻ المؤمنين في الثَّبات علىٰ الإيمان، والازدياد منه.

ولمَّا قال يونس ﷺ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[الأنبياء]، فمن قال هذه الكلمات وهو في غمٍّ وهو مؤمنٌ أنَّ الله يُنجيه بها = نجَّاه الله.

وقد أوجب الله ﷻ علىٰ نفسه نصر المؤمنين فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾[الرُّوم].

نصر اللَّه عَزَّوَجَلَّ للعباد على نوعين:

[١] نصرٌ في الدُّنيا والآخرة.

[٢] نصرٌ في الآخرة فقط.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١]، فالله عَزَّوَجَلَّ ينصر هؤلاء الأنبياء المَقتولين في الآخرة قطعًا، وربَّما في الدُّنيا أيضًا بنصر أقوالهم وما دعوا إليه؛ فالآثار الَّتي تبقىٰ بعد الإنسان من أعظم النَّصر.

وأمَّا المؤمنون الَّذين صدَّقوا المُرسَلين واتَّبعوهم فلابدَّ أن يُنصروا؛ لأنَّ الله تكفَّل بذلك: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾، فيه إثبات صفة الانتقام لله، ولا تُقال علىٰ سبيل الإطلاق؛ لأنَّها لم تَرِدْ إلَّا مُقيَّدةً، ولهذا فإنَّه ليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ المُنتقِم.

الحكمة السَّادسة: تحذيرُ الكافرين

يُحذِّرهم الله عَزَّوَجَلَّ بذكر هذه القَصَص من الاستمرار في الكفر، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سير قلوبٍ؛ لأنَّه أعمُّ من سير الأقدام، فالقلوب تصل إلىٰ ما لم تصل إليه الأقدام، ومن ذلك الماضي، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي: أفسد عليهم أمرهم، فلم ينجحوا، ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾[محمَّد] للكافرين المَوجودين الآن أمثال ما كان للسَّابقين، أي: فاحذروا أيُّها الكفَّار أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم من التَّدمير.

الحكمة السَّابعة: إثبات رسالة النَّبيِّ ﷺ

فإنَّ أخبار الأمم السَّابقة لا يعلمها إلَّا الله، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[هود]، فلمَّا قصَّها ﷺ علىٰ الوجه المُطابق دلَّ علىٰ أنَّه رسولٌ؛ لأنَّه كان أمِّيًّا لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يتلقَّىٰ الأخبار إلَّا من طريق الوحي.

ثَالِثًا: تَكْرَارُ الْقَصَصِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِنَ الْقَصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ مَا لَا يَأْتِي إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، مِثْلَ قِصَّةِ لُقْمَانَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَمِنْهَا مَا يَأْتِي مُتَكَرِّرًا حَسَبَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ، وَتَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ، وَلَا يَكُونُ هَذَا الْمُتَكَرِّرُ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ؛ بَلْ يَخْتَلِفُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَاللِّينِ وَالشِّدَّةِ، وَذِكْرِ بَعْضِ جَوَانِبِ الْقِصَّةِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ آخَرَ.

وَمِنَ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّكْرَارِ:

١. بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ تِلْكَ الْقِصَّةِ؛ لِأَنَّ تَكْرَارَهَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِهَا.

٢. تَوْكِيدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ لِتَثْبُتَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

٣. مُرَاعَاةُ الزَّمَنِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ بِهَا، وَلِهَذَا تَجِدُ الْإِيجَازَ وَالشِّدَّةَ غَالِبًا فِيمَا أَتَىٰ مِنَ الْقَصَصِ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وَالْعَكْسَ فِيمَا أَتَىٰ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ.

٤. بَيَانُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي ظُهُورِ هَذِهِ الْقَصَصِ عَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ وَذَاكَ الْوَجْهِ عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ.

٥. ظُهُورُ صِدْقِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ، حَيْثُ تَأْتِي هَذِهِ الْقَصَصُ مُتَنَوِّعَةً بِدُونِ تَنَاقُضٍ).

اختلافُ القِصَّةِ المُتكرِّرة:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يَكُونُ هَذَا الْمُتَكَرِّرُ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ) وإن وُجد فهو قليلٌ جدًّا؛ (بَلْ يَخْتَلِفُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَاللِّينِ وَالشِّدَّةِ، وَذِكْرِ بَعْضِ جَوَانِبِ الْقِصَّةِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ آخَرَ).

فمثلًا من أقصر القَصَص وأشدِّها ما جاء في سورة القمر، فإنَّ القَصَص قصيرةٌ جدًّا، لكن فيها قَوارعُ عظيمةٌ، تُختم كلُّ واحدةٍ منها بـ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾[القمر]، فالَّذي يقرأ السُّورة بتدبُّرٍ لابدَّ أن يتأثَّر؛ لأنَّها عظيمةٌ.

من أمثلة تَكرار القَصَص في القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾[الأعراف]، فالقائل هو قوم فرعون، وقال: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[الشُّعراء] فجعل القائل هو فرعون؛ لأنَّ فرعون قال، ثمَّ صدَّقه هؤلاء وتابعوه، وأخذوا يُطنطنون ويُدندنون بقوله.

أكثر القَصَص تَكرارًا في القرآن:

هي قصَّة موسىٰ عليه السلام؛ لأنَّ الحاجة تدعو إلىٰ ذلك، لأنَّ اليهود كانوا مَوجودين في المدينة، وقريبين من قريشٍ، وكذلك النَّصارىٰ في نجران وغيرها، ولذلك تكرَّرت قصَّة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام أكثر من غيرهما حسب ما تقتضيه المَصلحة.

من حِكَم تَكرار القَصَص في القرآن:

[١] (بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ تِلْكَ الْقِصَّةِ).

[٢] (تَوْكِيدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ) اعتناءً بها، وتثبيتًا، وترسيخًا.

[٣] (مُرَاعَاةُ الزَّمَنِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ).

[٤] (بَيَانُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ)؛ لأنَّ مُطابقة الكلام لمُقتضىٰ الحال هو البلاغة في الحقيقة.

[٥] (ظُهُورُ صِدْقِ الْقُرْآنِ) في كونِها تأتي من وجوهٍ مُتعدِّدةٍ، وبلا تناقضٍ، وفيها صدق النَّبيِّ ﷺ، فالكاذب يأتي بالكلام الثَّاني مثل الأوَّل لئلَّا يظهر كذبُه.

قد نجد بعض القَصَص المُتكرِّرة يُعارض بعضها في الظَّاهر؛ كما في قول فرعون وملئه عن موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾[الأعراف]، وفي موضعٍ آخر: ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾[يونس:٢]، والجمع بينهما سهلٌ، وهو أنَّهم قالوا هذا في وقتٍ وهذا في وقتٍ.

الْفَصْلُ السَّابِعُ: الإِسْرَائِيلِيَّاتُ

أَوَّلاً: الإِسْرَائِيلِيَّاتُ وَأَنْوَاعُهَا

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْيَهُودِ -وَهُوَ الْأَكْثَرُ- أَوْ مِنَ النَّصَارَىٰ.

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ الْأَخْبَارُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

الْأَوَّلُ: مَا أَقَرَّهُ الْإِسْلَامُ، وَشَهِدَ بِصِدْقِهِ؛ فَهُوَ حَقٌّ.

مِثَالُهُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَاضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمر].

الثَّانِي: مَا أَنْكَرَهُ الْإِسْلَامُ، وَشَهِدَ بِكَذِبِهِ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ.

مِثَالُهُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

الثَّالِثُ: مَا لَمْ يُقِرَّهُ الْإِسْلَامُ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ؛ فَيَجِبُ التَّوَقُّفُ فِيهِ؛ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]» الْآيَةَ»، وَلَكِنَّ التَّحَدُّثَ بِهَذَا النَّوْعِ جَائِزٌ، إِذَا لَمْ يُخْشَ مَحْذُورٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ

الْبُخَارِيُّ.
وَغَالِبُ مَا يُرْوَىٰ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِذِي فَائِدَةٍ فِي الدِّينِ؛ كَتَعْيِينِ لَوْنِ كَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَنَحْوِهِ).

مَعْنَى الإِسْرَائِيلِيَّاتِ:

هي: (الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، سُمِّيت بذلك نسبةً إلىٰ إسرائيل عليه السلام -وهو نبيٌّ-، وبنوا إسرائيل هم اليهود والنَّصارىٰ، وسُمِّيت إسرائيليَّاتٍ من باب النِّسبة إلىٰ المُضاف إليه، وقد ذكر علماء النَّحو أنَّ النِّسبة إلىٰ المُضاف والمُضاف إليه تكون إمَّا لهما معًا، وإمَّا للمُضاف إذا كان أشهر، وإمَّا للمُضاف إليه.

ويجب الحذر من الإسرائيليَّات، خصوصًا إذا كانت تتضمَّن عيبًا أو لمزًا لأحدٍ من الأنبياء؛ مثل قصة سليمان وداود عليهما السلام.

الإسرائيليَّات ثلاثة أنواعٍ:

[١] **ما أقرَّه الإسلام وصدَّقه**: فهو حقٌّ يجب قَبولُه وتصديقُه.

[٢] **ما أنكره الإسلام وكذَّبه**: فهو باطلٌ يجب إنكارُه وتكذيبُه.

[٣] **ما لم يُقرَّه الإسلام، ولم يُنكره**: فالواجب التَّوقُّفُ فيه، وعدمُ تصديقه أو تكذيبه.

لأنَّنا قد نُصدِّق باطلًا، أو نُكذِّب حقًّا، وقد قال ﷺ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**»، ويجوز التَّكلُّم بهذا النَّوع بشرط أن لا يُخشىٰ مَحذورٌ؛ لقوله ﷺ: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»، والمَحذور الَّذي يُخشىٰ أن يتَّجه النَّاس إلىٰ هذه القَصَص، ويدَعوا ما جاء في القرآن والسُّنَّة، ففي هذه الحال تكون حكايتُها مُحرَّمةً.

مثال النَّوع الأوَّل:

(جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَاضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ) وليس تعجُّبًا منه وإنكارًا له؛ كما زعمه أهل التَّحريف الَّذين يقولون: إنَّ الله ليس له أصابع -والعياذ بالله-، وليسوا بأعلم من ابن مسعودٍ رضي الله عنه القائل: (تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ)! ولو كان قولُ الحَبر مُنكرًا ما اكتفىٰ النَّبيُّ ﷺ بالضَّحك، ولَأنكره صراحةً، ثمَّ قرأ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عُظِّم الله حقَّ تعظيمه، مع أنَّه ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

فائدةٌ:

لفظ (إصبعٍ) فيه عشر لغاتٍ؛ كما في قول الشَّاعر:

وَلَفْظَ أُنْمُلَةٍ ثَلِّثْ وَثَالِثَهُ ... وَالتِّسْعُ فِي أُصْبُعٍ وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعِ

مثال النَّوع الثَّاني:

(كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣])؛ لأنَّ اليهود يرون أنَّ الولد لا يجيء سالمًا إلَّا إذا جامعها من القُبُل، فأنزل الله عزَّ وجلَّ تكذيبَهم، فدلَّت الآية علىٰ أنَّ وطء المرأة في قُبُلها من خلفها جائزٌ.

وفي هذه الآية إشارةٌ إلىٰ قاعدةٍ مهمَّةٍ وهي أنَّ: (**المَأذون فيه لا يمكن أن يُحدث شرًّا**)؛ لأنَّ الله لا يُحلُّ لهم ما يضرُّهم، وجاء في خبر مَوضوع مَكذوبٍ في البقر: «**أَلْبَانُهَا شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلُحُومُهَا دَاءٌ**»، ولا يمكن أن يكون داءً وقد أحلَّه الله لنا!

ثَانِيًا: حُكْمُ سُؤَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا سُؤَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ؛ لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بحقٍّ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي».

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ مَحْضًا، لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَغَيَّرُوا، فَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ، قَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ لِيَشْتَرُوا بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَوَ لَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ).

تنبيهٌ:

ذكر بعض العلماء أنَّ ابن عبَّاسٍ ممَّن عُرف بالأخذ عن بني إسرائيل، والأثر المَنقول يبيِّن أنَّ هذا لا صحَّة له؛ إذ كيف ينقل عنهم وهو ينهىٰ عنهم؟!

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ مَحْضًا، لَمْ يُشَبْ) أي: لم يُبدَّل، ولم يزد فيه أو يُنقص، (وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ... فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ)، كيف هم يسألوننا عن الَّذي أُنزل إلينا مع أنَّه آخر ما نزل، ثمَّ نحن نسألهم؟! وهذا من باب الإغراء في ترك سؤالهم، وهو كلامٌ عظيمٌ فيه تحذيرٌ ونهيٌ لعقول من في عصرنا ممَّن يذهبون ليأخذوا النُّظم والقوانين والحُكم بين النَّاس من الكفَّار، ويحكمون فيها بين المسلمين!

ثَالِثًا: مَوْقِفُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (اخْتَلَفَتْ مَوَاقِفُ الْعُلَمَاءِ -وَلَا سِيَمَا الْمُفَسِّرُونَ- مِنْ هَذِهِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ:

أ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا مَقْرُونَةً بِأَسَانِيدِهَا، وَرَأَىٰ أَنَّهُ بِذِكْرِ أَسَانِيدِهَا خَرَجَ مِنْ عُهْدَتِهَا؛ مِثْلَ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ.

ب. وَمِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا، وَجَرَّدَهَا مِنَ الْأَسَانِيدِ غَالِبًا، فَكَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ؛ مِثْلَ الْبَغَوِيِّ الَّذِي قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ عَنْ «تَفْسِيرِهِ»: إِنَّهُ مُخْتَصَرٌ مِنَ الثَّعْلَبِيِّ، لَكِنَّهُ صَانَهُ عَنِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَقَالَ عَنِ الثَّعْلَبِيِّ: إِنَّهُ حَاطِبُ لَيْلٍ يَنْقُلُ مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ: صَحِيحٍ، وَضَعِيفٍ، وَمَوْضُوعٍ.

ج. وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْهَا، وَتَعَقَّبَ الْبَعْضَ مِمَّا ذَكَرَهُ بِالتَّضْعِيفِ أَوِ الْإِنْكَارِ؛ مِثْلَ ابْنِ كَثِيرٍ.

د. وَمِنْهُمْ مَنْ بَالَغَ فِي رَدِّهَا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا شَيْئًا يَجْعَلُهُ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ؛ كَمُحَمَّد رَشِيدٍ رِضَا).

مَواقف العلماء في اعتبار الإسرائيليَّات:

[١]	[٢]	[٣]	[٤]
(مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا مَقْرُونَةً بِأَسَانِيدِهَا، وَرَأَىٰ أَنَّهُ بِذِكْرِ أَسَانِيدِهَا خَرَجَ مِنْ عُهْدَتِهَا).	(مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا، وَجَرَّدَهَا مِنَ الْأَسَانِيدِ غَالِبًا)، وهذا أقلُّ رتبةً من الأوَّل.	(مَنْ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْهَا، وَتَعَقَّبَ الْبَعْضَ مِمَّا ذَكَرَهُ بِالتَّضْعِيفِ أَوِ الْإِنْكَارِ)؛ كابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، تعقَّب بعضها، وأنكره أشدَّ الإنكار، وهذا القسم أحسن من الَّذي قبله.	(مَنْ بَالَغَ فِي رَدِّهَا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا شَيْئًا)؛ كمحمَّد رشيد رضا وغيره من المُعاصرين.

اعتراضٌ على النَّوع الأوَّل:

قد يُقال: إنَّ ظنَّهم أنَّهم خرجوا من عهدة الأخبار بنقل أسانيدها فيه نظرٌ؛ لأنَّ إذا ذكرها فقد لا يتيسَّر للقارئ أن يُراجع أصولها، ولكن يُعتذر عن ابن جريرٍ وغيره أنَّه -والله أعلم- لم يكن لهم فراغٌ في تمحيصها وتحريرها، وخافوا من ضياع الصَّحيح منها، فقالوا: نثبتُها، ولعلَّ الله يأتي بمن ينقِّحها ويحرِّرها.

تفسير البغويِّ:

فيه من الإسرائيليَّات الكثير، يذكرها بدون الأسانيد، ولا يتعقَّبها، وهذه هفوةٌ منه. لكنَّه من حيث اللُّغةُ جيِّدٌ، وتفسيره تفسير تجزئةٍ، أي: يُفسِّر جملةً جملةً، وليس كبعض المُفسِّرين يذكر الآيات الكثيرة ثمَّ يذكر المَعنىٰ مُجملًا، وكما ذكر شيخ الإسلام تفسيره خيرٌ من تفسير الثَّعلبيِّ؛ لأنَّه (صَانَهُ عَنِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ).

تفسير محمَّد رشيد رضا:

فيه مَسائل جيِّدةٌ، ومُؤلِّفُه ممَّن يميل إلىٰ الاستقلال الفكريِّ، أي: غالبًا ما يرجع إلىٰ فكره دون أن يرجع إلىٰ غيره، لكن مع ذلك يكون استنباطُه وفهمُه جيِّدًا في تفسير القرآن، ثمَّ يتعرَّض أحيانًا لأحوال المسلمين الواقعة، ويُطبِّق عليها آيات القرآن، لكنَّه لم يُتِمَّه.

تنبيهاتٌ في التَّعامُلِ مع الإسرائيليَّات:

- لا ينبغي أن تُذكَرَ الإسرائيليَّاتُ إلَّا نادرًا، فنتوسَّطُ فيها، مع ضرورَةِ التَّنبيهِ علىٰ الصَّحيح منها والباطل، وفي الصَّحيح مَندوحَةٌ عن الضَّعيفِ والمَوضوعِ.
- يُحدَّث عن الإسرائيليَّاتِ في الآدابِ والزُّهدِ والورَعِ، أو بقصَصٍ تُناسِبُ أشياءَ في القرآنِ أو السُّنَّةِ، فما وافقَ الحقَّ قبلناه، وما رأيناه باطلًا اعتبَرناه مِنْ أكاذيب أهلِ الكتابِ.
- نستفيدُ ممَّا ورَدَ عن أهلِ الكتابِ في إيضاحِ المعنىٰ، وتعضيدِه، ومعرِفَةِ شيءٍ من التَّفاصيلِ الَّتي جاءَت مُجملَةً في الكِتابِ والسُّنَّةِ، ولأجلِ الاتِّعاظِ به والاعتِبارِ.

الْفَصْلُ الثَّامِنُ: الضَّمِيرُ

أَوَّلاً: مَعْنَى الضَّمِيرِ وَأَنْوَاعُهُ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الضَّمِيرُ لُغَةً: مِنَ الضُّمُورِ -وَهُوَ الْهُزَالُ-؛ لِقِلَّةِ حُرُوفِهِ، أَوْ مِنَ الْإِضْمَارِ -وَهُوَ الْإِخْفَاءُ-؛ لِكَثْرَةِ اسْتِتَارِهِ.

وَفِي الِاصْطِلَاحِ: مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا، وَقِيلَ: مَا دَلَّ عَلَىٰ حُضُورٍ أَوْ غَيْبَةٍ لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا.

- فَالدَّالُّ عَلَى الْحُضُورِ نَوْعَانِ:

١. **أَحَدُهُمَا**: مَا وُضِعَ لِلْمُتَكَلِّمِ؛ مِثْلَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[غافر:٤٤].

٢. **الثَّانِي**: مَا وُضِعَ لِلْمُخَاطَبِ؛ مِثْلَ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٧].

وَهَذَانِ لَا يَحْتَاجَانِ إِلَىٰ مَرْجِعٍ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْحُضُورِ عَنْهُ.

- وَالدَّالُّ عَلَى الْغَائِبِ: مَا وُضِعَ لِلْغَائِبِ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ مَرْجِعٍ يَعُودُ عَلَيْهِ.

وَالْأَصْلُ فِي الْمَرْجِعِ أَنْ يَكُونَ سَابِقًا عَلَى الضَّمِيرِ لَفْظًا وَرُتْبَةً، مُطَابِقًا لَهُ لَفْظًا وَمَعْنًى؛ مِثْلَ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود:٤٥].

وَقَدْ يَكُونُ مَفْهُومًا مِنْ مَادَّةِ الْفِعْلِ السَّابِقِ؛ مِثْلَ: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

وَقَدْ يَسْبِقُ لَفْظًا لَا رُتْبَةً؛ مِثْلَ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾[البقرة:١٢٤].

وَقَدْ يَسْبِقُ رُتْبَةً لَا لَفْظًا؛ مِثْلَ: (حَمَلَ كِتَابَهُ الطَّالِبُ).

وَقَدْ يَكُونُ مَفْهُومًا مِنَ السِّيَاقِ؛ مِثْلَ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾[النِّساء:١١]، فَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْمَيِّتِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا تَرَكَ﴾.

وَقَدْ لَا يُطَابِقُ الضَّمِيرُ مَعْنًى؛ مِثْلَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾[المؤمنون]؛ فَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ الْمَجْعُولَ نُطْفَةً لَيْسَ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ.

وَإِذَا كَانَ الْمَرْجِعُ صَالِحًا لِلْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ، جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِأَحَدِهِمَا؛ مِثْلَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾[الطَّلاق:١١].

وَالْأَصْلُ اتِّحَادُ مَرْجِعِ الضَّمَائِرِ إِذَا تَعَدَّدَتْ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾[النَّجم]، فَضَمَائِرُ الرَّفْعِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَعُودُ إِلَىٰ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ.

وَالْأَصْلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَىٰ أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، إِلَّا فِي الْمُتَضَايِفَيْنِ فَيَعُودُ عَلَىٰ الْمُضَافِ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَحَدَّثُ عَنْهُ.

مِثَالُ الْأَوَّلِ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الإسراء:٢].

وَمِثَالُ الثَّانِي: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم:٣٤].

وَقَدْ يَأْتِي عَلَىٰ خِلَافِ الْأَصْلِ فِيمَا سَبَقَ بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ).

الضَّميرُ لغةً:

[١] (مِنَ الضُّمُورِ -وَهُوَ الْهُزَالُ-؛ لِقِلَّةِ حُرُوفِهِ)، فمنه ما هو علىٰ حرفٍ واحدٍ فقط مثل: (الهاء)، أو علىٰ حرفين مثل: (هو)، أو علىٰ ثلاثةٍ مثل: (نحن).

وانظر مثلًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾[الأحزاب:٣٥]، كيف ناب الضَّمير (هم) عن عشرين كلمةً!

[٢] (مِنَ الْإِضْمَارِ -وَهُوَ الْإِخْفَاءُ-؛ لِكَثْرَةِ اسْتِتَارِهِ).

الضَّميرُ اصطلاحًا:

[١] (مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا)، فإذا قلت: (عمرٌو ضربه بَكرٌ) فالهاء نابت عن عمرٍو اختصارًا.

[٢] (مَا دَلَّ عَلَىٰ حُضُورٍ أَوْ غَيْبَةٍ لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا)، وهذا تفسير ابن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الألفيَّة، وخرج بـ(لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا) لفظ (حضر) و(غاب) وما تصرَّف منهما فهي ليست من الضَّمائر.

ينقسمُ الضَّميرُ إلى نوعين:

[١] **ضميرُ حضورٍ**: وهو نوعان:

[أ] **للمُتكلِّم**: مثل (الياء) في: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر:٤٤].

[ب] **للمُخاطَب**: مثل (التَّاء) في: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

(لَا يَحْتَاجَانِ إِلَىٰ مَرْجِعٍ) يرجعان إليه؛ (اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْحُضُورِ عَنْهُ).

[٢] **ضميرُ غَيبةٍ**: مثل (هم) في: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٧].

وضمير الغائب (لَابُدَّ لَهُ مِنْ مَرْجِعٍ يَعُودُ عَلَيْهِ)، فـ(هم) في الآية يعود على ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

قاعدةٌ في تقديرِ الضَّميرِ المُستَتِرِ:

[١] **ضميرُ الحُضورِ**: إذا كان تقدير الضَّمير (أنا) أو (أنت) أو (نحن) مثلًا فهو مُستترٌ وجوبًا. مثالُه: الفاعل في (أَقُومُ) مُستترٌ وجوبًا، وتقديره (أنا).

[٢] **ضميرُ الغَيبَةِ**: إذا كان تقدير الضَّمير (هو) مثلًا أو (هي) فهو مُستترٌ جوازًا. مثالُه: الضَّميرُ في (قَامَ) مُستترٌ جوازًا، وتقديره (هو).

ترتيبُ المَرجعِ مع الضَّمير:

[١] الأصل أن يكونَ المَرجعُ سابقًا لفظًا ورتبةً:
كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود:٤٥]؛ فالهاء في ﴿رَّبَّهُۥ﴾ تعود علىٰ ﴿نُوحٌ﴾، و﴿نُوحٌ﴾ سابقٌ لفظًا، كما أنَّه فاعلٌ، والفاعل أسبق رتبةً.

[٢] قد يسبقُ لفظًا لا رتبةً:
قال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾[البقرة:١٢٤]، فالهاء في ﴿رَبُّهُۥ﴾ تعود علىٰ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ السَّابق لفظًا، لكنَّ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مَفعولٌ به فهو مُؤخَّرٌ رُتبةً.

[٣] قد يسبقُ لفظًا لا رتبةً:
مثل: (حَمَلَ كِتَابَهُ الطَّالِبُ)، فالهاء تعود علىٰ (الطَّالِبُ) المُؤخَّر لفظًا، لكنَّه فاعلٌ فهو مُقدَّمٌ رتبةً.

مُطابقةُ الضَّميرِ للمَرجعِ:

[١] الأصل أن يُطابقَه لفظًا ومَعنًى:
كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾[هود:٤٥]؛ والهاء ضميرٌ مُفردٌ مُذكَّرٌ يرجع علىٰ ﴿نُوحٌ﴾ المُفرد المُذكَّر، فهو مُطابقٌ له لفظًا ومَعنًىٰ.

[٢] قد يُخالفُه لفظًا:
كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨] فالمَرجع هو العدل، وهو مَفهومٌ من ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾، فالضَّميرُ غير مُطابقٍ لفظًا.
وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾[النِّساء:١١]، فالضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يَعود علىٰ الميِّت المَفهوم من السِّياق.

[٣] قد يُخالفُه مَعنًى:
كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾[المؤمنون]، فالضَّمير في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ يعود علىٰ الإنسان لفظًا، ولو قلنا إنَّه مُطابقٌ له مَعنًىٰ لكان آدم عليه السلام قد تحوَّل إلىٰ نطفةٍ!

إذا كانَ المَرجِعُ صالحًا للمُفرَدِ والجَمعِ:

(جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِأَحَدِهِمَا) أي: إمَّا الجمع أو المُفرد، مثالُ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الطَّلاق:١١]، فضميرُ المُفرد في ﴿يُدْخِلْهُ﴾ راجعٌ علىٰ (مَنْ) الشَّرطيَّة الَّتي تصلح للمُفرد والجمع معًا، وضميرُ الجمع في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ عائدٌ علىٰ (مَنْ) كذلك.

تعدُّدُ الضَّمائرِ:

الأصل عند تعدُّد الضَّمائر أنَّ مَرجعها واحدٌ، وهو الأقرب إلىٰ المَعنىٰ؛ لأنَّك إذا أرجعت كلَّ ضميرٍ إلىٰ مَرجعٍ تشتَّتت الضَّمائر، وصار الكلام مُبهمًا خفيًّا.

مثال ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ الهاء تعود علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ جبريلُ عليه السلام، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ هيئةٍ حسنةٍ ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ كمُل، فكان علىٰ خِلقته الَّتي خُلق عليها، له ستُّ مائة جناح، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ الشَّيء المُرتفع في الجوِّ، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريلُ ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ﴾ جبريلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ النَّبيِّ ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ جبريلُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، أو اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ جبريل عليه السلام، وقال بعض العلماء: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ الله عزَّ وجلَّ، وحملهم علىٰ ذلك قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النَّجم]، فرَاعَوا آخر الآية ولم يُراعُوا أوَّلها، وشتَّتوا الضَّمائر، والصَّواب المُتعيَّن هو الأوَّل.

الأصلُ عَودُ الضَّمير:

[١] إلى أقرب مَذكور:
مثالُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ﴾ الكتاب؛ لأنَّه أقرب مَذكورٍ، ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الإسراء:٢].

[٢] إلَّا في المُتضايفين:
فالأصل عَودُه إلىٰ المُضاف، مثالُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم:٣٤] النِّعمة، ودليله تأنيثُ الضَّمير.

أمثلةٌ لـما يأتي على خلافِ الأصلِ:

[١] في قولِه تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحجّ:٧٨]، اختُلف في المُسَمِّي علىٰ قولين:

- [أ] **اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: لأنَّ الحديث هكذا مَجراه، وهذا هو الرَّاجح من السِّياق.
- [ب] **إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: لأنَّه هو أقرب مَذكورٍ.

[٢] قولُه ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**». مُتَّفَقٌ عليه. اختُلف في مَرجع الهاء علىٰ قولين:

- [أ] **اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: لأنَّه هو الخالق.
- [ب] **آدم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: لأنَّه هو أقرب مَذكورٍ.

هذا هو الرَّاجح، ومَعناه:

- (علىٰ صورةِ الله) إضافة تشريفٍ وتكريم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٧٣]، ولهذا جاء في الحديث نفسه: «**إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ**»؛ لتكريمِه، وهذا قريبٌ ليس ببعيدٍ.
- (علىٰ صورةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ)، ولا يُنافي هذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورىٰ:١١]؛ لأنَّه لا يلزم من كونه علىٰ صورته أن يكون مُماثلًا له.

هذا التَّفسير يمنعه شيئان:

- أنَّه لا مزيَّة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا كان المَعنىٰ: خلقه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ صورة آدم؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ خلقه اللهُ علىٰ صورة نفسِه، حتَّىٰ الفرسُ خلقه الله علىٰ صورته، وكذا إبليس...
- أنَّه ورد بلفظٍ صريح: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمَنِ**». أخرجه الحاكم والطَّبرانيُّ. فيُحملُ الضَّميرُ المُبهَمُ علىٰ الظَّاهر المُفصَّل.

مثالٌ آخرُ لـما جاءَ على غيرِ الأصلِ:

قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾، الضَّمير في ﴿صَلَّىٰٓ﴾ يعودُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ لا إلىٰ الَّذي ينهىٰ، ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾[العلق] كلُّه يرجع إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

ثَانِيًا: الإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْأَصْلُ أَنْ يُؤْتَىٰ فِي مَكَانِ الضَّمِيرِ بِالضَّمِيرِ؛ لِأَنَّهُ أَبْيَنُ لِلْمَعْنَىٰ، وَأَخْصَرُ لِلَّفْظِ، وَلِهَذَا نَابَ الضَّمِيرُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[الأحزاب] عَنْ عِشْرِينَ كَلِمَةً الْمَذْكُورَةَ قَبْلَهُ، وَرُبَّمَا يُؤْتَىٰ مَكَانَ الضَّمِيرِ بِالِاسْمِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ: الْإِظْهَارَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ، وَلَهُ فَوَائِدُ كثيرةٌ تَظْهَرُ بِحَسَبِ السِّيَاقِ، مِنْهَا:

١. الْحُكْمُ عَلَىٰ مَرْجِعِهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ.

٢. بَيَانُ عِلَّةِ الْحُكْمِ.

٣. عُمُومُ الْحُكْمِ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ

مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[البقرة]، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُ، فَأَفَادَ هَذَا الْإِظْهَارُ:

١. الْحُكْمَ بِالْكُفْرِ عَلَىٰ مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجِبْرِيلَ، وَمِيكَالَ.

٢. أَنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُمْ؛ لِكُفْرِهِمْ.

٣. أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ فَاللهُ عَدُوٌّ لَهُ.

مِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف]، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ، فَأَفَادَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

١. الْحُكْمَ بِالْإِصْلَاحِ لِلَّذِينَ يُمْسِكُونَ الْكِتَابَ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.

٢. أَنَّ اللهَ آجَرَهُمْ لِإِصْلَاحِهِمْ.

٣. أَنَّ كُلَّ مُصْلِحٍ لَهُ أَجْرٌ غَيْرُ مُضَاعٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ يَتَعَيَّنُ الْإِظْهَارُ كَمَا لَوْ تَقَدَّمَ الضَّمِيرَ مَرْجِعَانِ يَصْلُحُ عَوْدُهُ إِلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْمُرَادُ أَحَدُهُمَا؛ مِثْلَ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ، وَبِطَانَةَ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، إِذْ لَوْ قِيلَ: وَبِطَانَتَهُمْ لَأَوْهَمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِطَانَةَ الْمُسْلِمِينَ).

الأصلُ أن يُؤتى في مَكانِ الضَّميرِ بالضَّمير لوجهين:

[١] **لأنَّه أبينُ للـمَعنى:** لأنَّك إذا أظهرت في مَكان الإضمار فقد يظنُّ الظَّانُّ أنَّ هذا الكلام لا يرجعُ إلىٰ ما سبق.

[٢] **لأنَّه أبينُ للـمَعنى:** لما سبق أنَّ الضَّمير هو (**مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا**)، ومثَّل المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾[الأحزاب:٣٥]، حيث ناب الضَّمير (هم) عن عشرين كلمةً، ولو أُعيدت كان الكلام طويلًا ركيكًا.

فوائدُ الإظهار في مَوضع الإضمار:

[١] (**الْحُكْمُ عَلَىٰ مَرْجِعِهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ**).

[٢] (**بَيَانُ عِلَّةِ الْحُكْمِ**)، وهو أنَّ علَّته ما دَلَّ عليه ذلك الاسمُ الظَّاهر.

[٣] (**عُمُومُ الْحُكْمِ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ**)، أي: إرادة العموم.

[٤] **التَّنبيه:** لأنَّ السِّياق إذا كان يقتضي الإضمار ثمَّ جاء الإظهارُ؛ فإنَّ الإنسان يتوقَّف: لماذا جاء الإظهارُ؟ فيكونُ فيه تنبيهٌ للقارئ أو المُخاطَب.

بيانُ الفائدةِ الأولى:

المَقصودُ منها أنَّنا نحكم علىٰ المَرجع بما يقتضيه الاسمُ الظَّاهرُ، فإذا كان الاسمُ الظَّاهرُ يقتضي الكفر حكمنا علىٰ مَرجعه بأنَّه كافرٌ، وإذا كان يقتضي الظُّلم حكمنا علىٰ مَرجعه بأنَّه ظالمٌ، وهكذا.

المثالُ الأوَّلُ:

قولُه تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[البقرة]، مُقتضىٰ السِّياق أن يُقال: (فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُ)، ولكنَّ الله ﷻ قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فأفادنا:

[١] الحكم بالكفر علىٰ مَن كان عدُوًّا لله، وملائكتِه، ورسلِه، وجبريلَ، وميكالَ، ولو أضمر لم نستفد كفر مَن كان عدُوًّا لهؤلاء، وإنَّما يكون الله عدُوًّا له، لكن لا ندري هل هو كافرٌ، أم ظالمٌ، أم فاسقٌ؟	[٢] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تفيد التَّعليل: أنَّ الله عدوٌّ لهم لكُفرهم، ولو أضمر لم تتبيَّن علَّة العداوة.	[٣] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تُفيد العُموم، وهو أنَّ كلَّ كافرٍ فاللهُ ﷻ عدوٌّ له.	[٤] لما كان الكلام علىٰ نسقٍ واحدٍ، ثمَّ جاء ما يُخالفُه؛ فإنَّ السَّامع سيتوقَّف ويتنبَّه.

المثالُ الثَّاني:

قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ تمسُّكًا تامًّا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾[الأعراف]، مُقتضىٰ السِّياق أن يُقال: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ)، ولكنَّ الله ﷻ قال: ﴿أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ فأفادنا:

[١] الحكم للَّذين يُمسِّكون بالكتاب، ويقيمون الصَّلاة بأنَّهم مُصلحون، ولو قال: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ) لم يتبيَّن هذا.	[٢] أنَّ الله ﷻ آجرهم لإصلاحهم، وهذه إفادةٌ عاليةٌ.	[٣] أنَّ كلَّ مُصلحٍ فله أجرٌ غيرُ مُضاعٍ عند الله ﷻ.	[٤] تنبيه القارئ أو السَّامع كما تقدَّم.

قاعدةٌ: يتعيَّن الإظهارُ إذا خيفَ الالتباسُ

هذه قاعدةٌ مَعروفةٌ في النَّحو: (إذا خيف الالتِباسُ وجب أن يُحوَّل الكلامُ إلىٰ ما ليس فيه التِباسٌ)، قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَقَدْ يَتَعَيَّنُ الْإِظْهَارُ كَمَا لَوْ تَقَدَّمَ الضَّمِيرَ مَرْجِعَانِ يَصْلُحُ عَوْدُهُ إِلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْمُرَادُ أَحَدُهُمَا؛ مِثْلَ: اللَّهُمَّ أَصْلِحِ لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ، وَبِطَانَةَ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، إِذْ لَوْ قِيلَ: وَبِطَانَتُهُمْ لَأَوْهَمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِطَانَةَ الْمُسْلِمِينَ**)، وهذا واضحٌ.

ثَالِثًا: ضَمِيرُ الْفَصْلِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (ضَمِيرُ الْفَصْلِ حَرْفٌ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الرَّفْعِ الْمُنْفَصِلِ، يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ إِذَا كَانَا مَعْرِفَتَيْنِ، وَيَكُونُ:

- بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[طه:١٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾[الصَّافَّات:١٦٥].

- وَبِضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة:١١٧].

- وَبِضَمِيرِ الْغَائِبِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾[البقرة].

وَلَهُ ثَلَاثَةُ فَوَائِدَ:

- الْأُولَىٰ: التَّوْكِيدُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ هُوَ أَخُوكَ؛ أَوْكَدُ مِنْ قَوْلِكَ: زَيْدٌ أَخُوكَ.

- الثَّانِيَةُ: الْحَصْرُ، وَهُوَ: اخْتِصَاصُ مَا قَبْلَهُ بِمَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: الْمُجْتَهِدُ هُوَ النَّاجِحُ؛ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ الْمُجْتَهِدِ بِالنَّجَاحِ.

- ثَالِثًا: الْفَصْلُ، أَيْ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ كَوْنِ مَا بَعْدَهُ خَبَرًا أَوْ تَابِعًا، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ الْفَاضِلُ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ صِفَةً لِزَيْدٍ، وَالْخَبَرُ مُنْتَظَرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا، وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ؛ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا؛ لِوُجُودِ ضَمِيرِ الْفَصْلِ).

ضَميرُ الفَصلِ:

(حَرْفٌ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الرَّفْعِ الْمُنْفَصِلِ)، هذا يدلُّ علىٰ أنَّه لا محلَّ له من الإعراب، قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾[الشُّعراء]، ولو كان له محلٌّ من الإعراب لقال: (هم الغالبون)، (يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ إِذَا كَانَا مَعْرِفَتَيْنِ) سواءٌ كانا مَنسوخين أم غير مَنسوخين.

يأتي ضميرُ الفَصلِ:

[١] بضمير الـمُتكلِّم:
كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه:١٤]، فالضَّمير ﴿أَنَا﴾ وقع بين المُبتدأ وهو (الياء) في ﴿إِنَّنِيٓ﴾ والخبر ﴿ٱللَّهُ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما مَنسوخان.
وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الصَّافات:١٦٥]، ولو قال: (وإنَّا الصَّافُّونَ) صحَّ، لكن أُتي بضمير الفصل للفوائد الَّتي ستأتي.

[٢] بضمير الـمُخاطَب:
كقوله تعالىٰ: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧]، فالضَّمير ﴿أَنتَ﴾ وقع بين المُبتدأ وهو (التَّاء) في ﴿كُنتَ﴾ والخبر ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما مَنسوخان.

[٣] بضمير الغائب:
كقوله تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة]، فالضَّمير ﴿هُمُ﴾ وقع بين المُبتدأ (أُولَئِكَ) والخبر ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما غير مَنسوخين.

فوائدُ الإتيانِ بضميرِ الفَصلِ:

[١] التَّوكيدُ:
(فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ هُوَ أَخُوكَ؛ أَوْكَدُ مِنْ قَوْلِكَ: زَيْدٌ أَخُوكَ).

[٢] الحصرُ:
(وَهُوَ: اخْتِصَاصُ مَا قَبْلَهُ بِمَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: الْمُجْتَهِدُ هُوَ النَّاجِحُ؛ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ الْمُجْتَهِدِ بِالنَّجَاحِ)، وغيرُ المُجتهد لا نجاح له، وربَّما يُعبِّر بعضُهم بقوله: يُفيد الحصر، والمَعنىٰ واحدٌ.

[٣] الفَصلُ:
(أَيْ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ كَوْنِ مَا بَعْدَهُ خَبَرًا أَوْ تَابِعًا، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ الْفَاضِلُ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ صِفَةً لِزَيْدٍ، وَالْخَبَرُ مُنْتَظَرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا، وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ؛ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا).

هل ضَميرُ الفَصلِ هو ضميرُ الشَّأنِ؟

ضميرُ الفصل غيرُ ضمير الشَّأن، فضميرُ الشَّأن له مَحلٌّ من الإعراب، ويكون مَحذوفًا، بين ضميرُ الفصل مَوجودٌ، وليس له مَحلٌّ من الإعراب.

ولهذا فإنَّ تقسيم بعضِهم الخير إلىٰ جملةٍ إسميَّةٍ وفعليَّةٍ ضعيفٌ، فمثلًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[آل عمران]، يقولون: ﴿أَنتَ﴾ ضميرٌ مُنفصلٌ، وهو مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ خبرٌ، وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّك إذا أعربتَ هكذا صار الخبرُ جملةً، وأصل الخبر مُفرَدٌ.

رَابِعًا: الالْتِفَاتُ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الِالْتِفَاتُ: تَحْوِيلُ أُسْلُوبِ الْكَلَامِ مِنْ وَجْهٍ إِلَىٰ آخَرَ، وَلَهُ صُوَرٌ مِنْهَا:

١. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْخِطَابِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّاكَ﴾.

٢. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

٣. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[المائدة:١٢]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

٤. الِالْتِفَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[الكوثر]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وَلِلِالْتِفَاتِ فَوَائِدُ مِنْهَا:

١. حَمْلُ الْمُخَاطَبِ عَلَىٰ الِانْتِبَاهِ؛ لِتَغَيُّرِ وَجْهِ الْأُسْلُوبِ عَلَيْهِ.

٢. حَمْلُهُ عَلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي الْمَعْنَىٰ؛ لِأَنَّ تَغَيُّرَ وَجْهِ الْأُسْلُوبِ يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي السَّبَبِ.

٣. دَفْعُ السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ عَنْهُ؛ لِأَنَّ بَقَاءَ الْأُسْلُوبِ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي إِلَىٰ الْمَلَلِ غَالِبًا.

وَهَٰذِهِ الْفَوَائِدُ عَامَّةٌ لِلِالْتِفَاتِ فِي جَمِيعِ صُوَرِهِ، أَمَّا الْفَوَائِدُ الْخَاصَّةُ فَتَتَعَيَّنُ فِي كُلِّ صُورَةٍ حَسَبَ مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ).

براعةُ الاختتام:

براعة الاختتام أن يُؤتىٰ في آخر الكلام بما يدلُّ علىٰ الانتهاء، وختمُ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ بباب (الالتفات) كأنَّه التف عن هذا الكتاب إلىٰ آخر.

الالتفاتُ هو: (تَحْوِيلُ أُسْلُوبِ الْكَلامِ مِنْ وَجْهٍ إِلَى آخَرَ)، وله صُوَرٌ:

- [١] (مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْخِطَابِ).
- [٢] (مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ).
- [٣] (مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ).
- [٤] (مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ).

فوائدُ عامَّةٌ في الالتفاتِ:

- [١] (حَمْلُ الْمُخَاطَبِ عَلَىٰ الِانْتِبَاهِ)؛ لتغيُّر وجه الأسلوب، وهذا يلزم منه انتباهُ المُخاطَب، وانظر مثلًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٦٩]، إذا قرأتها انتبهتَ: لماذا صارت ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوعةً؟
- [٢] (حَمْلُهُ عَلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي الْمَعْنَىٰ)؛ لأنَّ تغيُّر وجه الأسلوب يؤدِّي إلىٰ التَّفكير في السَّبب، والتماس العلَّة.
- [٣] (دَفْعُ السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ عَنْهُ)؛ لأنَّ بقاء الأسلوب علىٰ وجهٍ واحدةٍ يؤدِّي إلىٰ الملل غالبًا، ولذلك ذهب بعض القرَّاء إلىٰ تغيير الأسلوب بالصَّوت، وبعض الخطباء إذا أتىٰ علىٰ آيةٍ يقرؤها تلاوةً مُرتَّلةً، وهذا لا بأس به؛ لأنَّه يؤدِّي للانتباه، لكنَّه قد يشوِّش علىٰ السَّامع فيجعلهُ يُفكِّر: هل هذا الفعلُ جائزٌ

مثالُ النَّوعِ الأوَّلِ من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كلُّها بصيغة الغَيبة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة]، التفاتٌ إلىٰ الخِطاب.

والفوائد الثَّلاثة المَذكورة مَوجودةٌ هنا، وهي فوائد عامَّةٌ في كلِّ التفاتٍ، لكنَّ الخاصَّة هنا أنَّك لمَّا أثنيت علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بما أثنيت به من كونه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كأنَّه بهذا الثَّناء صار حاضرًا أمامك، فقلتَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

ومن الأمثلة كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾، وهذا بصيغة الغَيبة، والمَقصودُ هو النَّبيُّ ﷺ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾[عبس] انتقل إلىٰ الخطاب، ولم يقُل أوَّلًا: (عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ) لما فيه من الغضاضة في حقِّه ﷺ.

مثالُ النَّوعِ الثَّاني من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ خطابٌ، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ انتقل إلىٰ الغَيبة، ولم يقل: (وجرين بكم) كراهة أن يتَّصف المُخاطبون -وهم المسلمون- بما ذُكر بعد ذلك، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾[يونس]، فهذه الأوصاف لا تُوجَّه إلىٰ المُخاطَبين المُسلمين لما فيها من الغضاضة.

مثالُ النَّوعِ الثَّالث من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بصيغة الغَيبة، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[المائدة:١٢] انتقل اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ التَّكلُّم، ولم يقل: (وَبَعَثَ)، والتَّكلُّم أبلغ إشارةً إلىٰ عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه هو الَّذي يبعثُ الرُّسل.

مثالُ النَّوعِ الرَّابع من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ بصيغة التَّكلُّم، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر] انتقل اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ الغَيبة، ولم يقل: (فَصَلِّ لَنَا)، ومن الفوائد الخاصَّة هنا فائدةُ الإظهار، وهي: الإشارة إلىٰ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ منحك هذا للفضائل الخاصَّة بك؛ لأنَّ الكوثر من خصائص الرَّسول ﷺ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

(وَاللهُ أَعْلَمُ،
وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ،
وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ،
تَمَّ، وَللهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

الاِخْتِبَارُ الثَّالِثُ

اختر الإجابة الصَّحيحة:

۞ يلزمُ مِن روايةِ الصَّحابةِ للاسرائيليَّات: ❍ قَبولُها. ❍ تضعيفُها. ❍ التَّوقُّفُ فيها.

۞ اتَّسمَت روايةُ الصَّحابة لأخبار بني إسرائيلَ بـ: ❍ الكثرةِ. ❍ القلَّةِ. ❍ التَّوسُّطِ.

۞ الأخبارُ المَنقولةُ عن أهل الكتاب تُسمَّىٰ: ❍ المَوقوفاتِ. ❍ المَقطوعاتِ. ❍ الإسرائيليَّاتِ.

۞ قد يُستغنىٰ عن جواب القَسَم من غير تقديرٍ: ❍ صح. ❍ خطأٌ.

۞ يلزمُ اقترانُ (اللَّام) بجواب القسم إذا كان: (ماضيًا مُثبَتًا مُتصرِّفًا مُتقدِّمَ المَعمولِ): ❍ صح. ❍ خطأٌ.

۞ القَسَمُ يكون في الغالب: (جُملةً طلبيَّةً): ❍ صح. ❍ خطأٌ.

رَوابِطُ قَنَواتِ مَعْهَدِ السُّنَّةِ:

مَوقِعُ مَعهَدُ السُّنَّةِ:

رابِطُ الفيس بوك:

رابِطُ التِّلجرام:

رابِطُ الانستغرام:

رابِطُ التويتر (X):

رابِطُ الواتساب:

قَناةُ اليوتوب:

رابِطُ تَحميلِ الكُتُبِ: